الكتاب الرابع

سلسلة إحياء تراث فكر الشيخ
محمد تقي الدين بن إبراهيم النبهاني

الدولة الإسلامية

عن الطبعة الأولى
القدس
١٣٧٢هـ-١٩٥٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يع الجيل الحاضر على الدولة الإسلامية التي تطبق الإسلام، والذين عاشوا في أواخر الدولة الإسلامية (الدولة العثمانية) التي أجهز عليها الغرب، إنما رأوا بقايا دولة فيها بقايا حكم إسلامي؛ ولهذا فإن من أصعب ما يجد المسلم تقريب صورة الحكم الإسلامي إلى أذهان يسيطر عليها الواقع، ولا تستطيع أن تتصور الحكم إلا في مقياس ما ترى من الأنظمة الديمقراطية الفاسدة المفروضة على البلاد الإسلامية فرضاً؛ وليست الصعوبة في هذا وحده، وإنما أصعب الصعوبة في تحويل هذه الأذهان (المضبوعة) بالثقافة الغربية. لقد كانت هذه الثقافة الغربية سلاحاً شهره الغرب في وجه الدعوة الإسلامية، وطعنها به طعنة نجلاء أودت بحياتها، وحمل إلى أبناء هذه الدولة سلاحه هذا يقطر من دماء أمهم القتيل، وقال لهم مفتخراً: (لقد قتلت أمكم العجوز التي كانت تستحق القتل لسوء حضانتها لكم، وقد مهدت لكم عندي حضانة تتذوقون فيها الحياة السعيدة والنعيم المقيم، ومدوا أيديهم يصافحون القاتل، وما يزال سلاحه هذا مخضباً بدماء أمهم، لقد فعل معهم فعل الضبع- فيما يروون- حينها تجعل فريستها تذهل إلا عن اللحاق بها، فلا تصحو إلا بضربة يسيل لها دمها، أو تصل بها الضبع إلى قعر الوادي فتأكلها.

فمن لي بأصحاب هذه الأذهان المضبوعة أن يعرفوا أن هذا السلاح المسموم الذي قضى على دولتهم الإسلامية، هو نفسه الذي يقضي دائماً - ما تمسكوا به -

على حياتهم وكيانهم، وأن هذه الأفكار التي يحملونها - من القومية وفصل الدين عن الدولة ومن آراء تطعن في الإسلام- هي بعض السموم التي حملتها لهم هذه الثقافة، وفصل (الغزو التبشيري) من كتاب الدولة الإسلامية هذا وكله حقائق وأرقام ناطقة- يرينا القاتل المجرم، ويقفنا على السبب الذي حمله على ارتكاب الجريمة، ويبصرنا بالوسائل التي توسل بها للقضاء على القتيل، وما كان السبب إلا قصد محو الإسلام، وما كان أهم الوسائل إلا هذه الثقافة التي جاءت مع الغزو التبشيري.

لقد غفل المسلمون عن خطر هذه الثقافة، وصاروا يحاربون المستعمر ويتناولون منه ثقافته، مع أنها هي سبب استعمارهم، وبها يتركز الاستعمار في بلادهم، ولينظروا بعد هذا كم يكون منظرهم متناقضاً تناقضاً مزرياً ومضحكا معاً، وهم يديرون ظهورهم للأجنبي- يدّعون محاربته- ويمدون إليه أيديهم من خلف ليتناولوا بكلتا يديهم سمومه القاتلة يتجرعونها، فيسقطون بين يديه هلكى، يحسبهم الجاهل شهداء نزال، وما هم إلا صرعى غفلة وضلال.

ماذا يريدون؟ أيريدون دولة على غير أساس الإسلام؟ أم يريدون دولاً متعددة في بلاد الإسلام؟ لقد أعطاهم الغرب- منذ صار الأمر إليه دولاً كثيرة، ليتم خطته في إبعاد الإسلام عن الحكم، وفي تقسيم بلاد المسلمين، وفي تخديرهم بالتافه من السلطان، ولا يزال يعطيهم كل حين دولة ليمعن في تضليلهم. وليزيد في تقسيمهم، وهو على استعداد لأن يعطيهم أكثر ما داموا يحملون مبدأه ومفاهيمه لأنهم تابعون له.

إن الأمر ليس في قيام دول، وإنما هو في قيام دولة واحدة في العالم الإسلامي كله، وإن الأمر ليس في قيام دولة أي دولة، ولا في قيام دولة تسمى إسلامية وتحكم

بغير ما أنزل الله، بل ولا في قيام دولة تسمى إسلامية وتحكم بالقوانين الإسلامية المجردة دون أن تحمل الإسلام قيادة فكرية. إن الأمر ليس في قيام دولة كذلك، وإنما هو في قيام دولة تستأنف الحياة الإسلامية عن عقيدة وتطبق الإسلام في المجتمع، بعد أن يكون متغلغلاً في النفوس متمكناً من العقول وتحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم.

ليست الدولة الإسلامية خيالاً يداعب الأحلام؛ لأنها قد امتلأت بها جوانب التاريخ في مدى ثلاثة عشر قرناً، فهي حقيقة. كانت كذلك في الماضي، وتكون كذلك في المستقبل القريب؛ لأن عوامل وجودها أقوى من أن ينكرها الزمن، أو يقوى على مصارعتها، وقد امتلأت بها اليوم العقول المستنيرة، وهي أمنية الأمة الإسلامية المتعطشة لمجد الإسلام.

وليست الدولة الإسلامية رغبة تستأثر بالنفوس عن هوى، بل هي فرض أوجبه الله على المسلمين، وأمرهم أن يقوموا به، وحذرهم عذابه إذا هم قصروا في أدائه. وكيف يرضون ربهم والعزة في بلادهم ليست لله ولا لرسوله ولا للمؤمنين؟ وكيف ينجون من عذابه وهم لا يقيمون دولة تجهز الجيوش وتحمي الثغور، وتنفذ حدود الله، وتحكم بما أنزل الله؟؟

لذلك كان لزاماً على المسلمين أن يقيموا الدولة الإسلامية؛ لأنه لا وجود للإسلام وجوداً مؤثراً إلا بالدولة، ولأن بلادهم لا تعتبر دار إسلام إلا إذا حكمتها دولة الإسلام.

وليست الدولة الإسلامية- مع هذا- من السهولة بحيث يستوزر المستوزرون أفراداً كانوا أو حزباً- فيصبحون وزراء يتربعون في دست الحكم. إن طريقها مفروشة بالأشواك، محفوفة بالمخاطر، مملوءة بالعقبات والمصاعب. وناهيك بالثقافة غير الإسلامية صعوبة، وبالتفكير السطحي عقبة، وبالحكومات الخاضعة للغرب خطورة.

إن الذين يسلكون طريق الدعوة الإسلامية لإيجاد الدولة الإسلامية، إنما يعملون للوصول إلى الحكم ليجعلوه طريقة لاستئناف الحياة الإسلامية في البلاد الإسلامية، وحمل الدعوة الإسلامية، إلى العالم ولذلك تراهم لا يقبلون الحكم المجزأ مهما تنوعت وسائل الإغراء، ولا يقبلون الحكم الكامل إلا إذا تمكنوا به من تطبيق الإسلام تطبيقاً انقلابياً.

وبعد، فإن كتاب (الدولة الإسلامية) هذا لا يقصد به أن يؤرخ للدولة الإسلامية، وإنما يقصد به أن يشاهد الناس كيف أقام الرسول ﷺ الدولة الإسلامية، وكيف هدم الكافر المستعمر الدولة الإسلامية، وكيف يقيم المسلمون الدولة الإسلامية؛ ليعود للعالم النور الذي يضيء له طريق الهدى في حالك الظلمات.

وإن هذا الكتاب ليس مؤلفاً للدرس، وإنما هو وباقي الكتب الآتية:- (أسس النهضة) و(نظام الإسلام) و(النظام الاجتماعي في الإسلام) و(النظام الاقتصادي في الإسلام) و(نظام الحكم في الإسلام) و(الشخصية الإسلامية) و(التكتل الحزبي) و(مفاهيم حزب التحرير) و(مفاهيم سياسية لحزب التحرير).. أقول: إن هذا الكتاب والكتب المذكورة إنما هي كتب دعوة ترمي إلى إنهاض المسلمين باستئناف الحياة الإسلامية، وحمل الدعوة الإسلامية.

وهذه الكتب إذا أخذت على هذا الاعتبار، كانت حرية بأن تأخذ سبيلها إلى العقل فيحسن تفهمها وإدراكها، وإلى المشاعر فتصبح عملاً يتحرك في سبيل إقامة دولة الإسلام.

داود حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

نقطة الابتداء

حين بعث ﷺ دعا زوجه خديجة فآمنت به، ثم دعا ابن عمه علياً فآمن به، ودعا مولاه زيداً فآمن به، ودعا صديقه أبا بكر فآمن به، ثم صار يدعو الناس، فآمن به من آمن وكفر به من كفر. ولما أسلم أبو بكر ﷺ عنه أظهر إسلامه لمن وثق بـه، ودعـا إلى الله وإلى رسوله. وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سـهلاً، وكـان رجـال قومـه يأتون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فأسلم على يده عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الـرحمن بـن عـوف، وسـعد بـن أبـي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فاسـلموا وصلوا، ثم أسلم أبو عبيدة واسمه عامر بن الجراح، وأبو سلمة واسمه عبـد الله بـن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم، ثم دخل النـاس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكـة وتحـدث النـاس به. وكان ﷺ يطوف على الناس في أول أمـره في منـازلهم، ويقـول إن الله يـأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، (وكان يدعو الناس للإسلام في مكة جهراً امتثـالاً لأمـر الله، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ وكان يتصل بالناس يعـرض علـيهم دينـه ويكتلهم حوله على أساس هذا الدين سراً، وكان أصحاب رسـول الله ﷺ إذا صـلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم. وكان الرسول ﷺ يرسل لمن يدخل في الإسلام جديداً من يعلمه القرآن ممن أسلموا من قبل وفقهوا في الدين، فقد أرسل خباب بن الأرت يعلم زينب بنت الخطاب وزوجها سعيداً القـرآن، وحـين فاجـأهم

عمر بن الخطاب كانوا في بيت سعيد يقرئهم خباب القرآن، وأسلم عمر على يد هذه الحلقة. ولم يكتف الرسول بذلك بل اتخذ له داراً يعلم فيها المسلمين الإسلام ويجعلها مركزاً لهذه الكتلة المؤمنة، ومدرسة لهذه الدعوة الجديدة، تلك الدار هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، فقد كان يجمع فيها المسلمين يقرئهم القرآن، ويبينه لهم، ويأمرهم باستظهاره وفهمه، وكلما أسلم شخص ضمه إلى دار الأرقم. ومكث ثلاث سنين وهو يثقف هؤلاء المسلمين، ويصلي بهم ويتهجد ليلاً فيتهجدون، فيبعث فيهم الروحانية بالصلاة والتلاوة، ويثير فيهم الفكر بالتأمل في آيات الله والتدبر في مخلوقاته، ويثقف عقولهم بمعاني القرآن وألفاظه، ومفاهيم الإسلام وأفكاره، ويأخذهم بالصبر على الأذى، ويروضهم على الطاعة والانقياد، حتى خلصوا لله العلي القدير. وظل النبي مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم بن أبي الأرقم حتى نزل قوله تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

تكتل الصحابة:

وكان عليه الصلاة والسلام في أول أمره يدعو من آنس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة بغض النظر عن سنه ومكانته، وبغض النظر عن جنسه وأصله، ولم يكن يختار الناس الذين يدعوهم إلى الإسلام اختياراً، بل كان يدعو جميع الناس، ويتحرى استعدادهم للقبول، وقد أسلم كثيرون. وكان يحرص على أن يثقف جميع الذين يعتنقون الإسلام بأحكام الدين ويحفظهم القرآن فتكتل هؤلاء وحملوا هم الدعوة، (وقد بلغ عددهم منذ بعثة الرسول ﷺ حتى أمر بإظهار أمره نيفاً وأربعين شخصاً) ما بين رجل وامرأة من مختلف البيئات والأعمار، أكثرهم من صغار الشباب، وكان فيهم الضعيف والقوي والغني والفقير. وقد آمن به ﷺ ولازمه ودأب على الدعوة معه كل من: (١) علي بن أبي طالب وكان عمره ثماني سنوات (٢) والزبير بن

العوام وعمره ثماني سنوات (٣) وطلحة بن عبيد الله وكان ابن إحدى عشرة سنة (٤) والأرقم بن أبي الأرقم وهو ابن اثنتي عشرة سنة (٥) وعبد الله بن مسعود وهو ابن أربع عشرة سنة (٦) وسعيد بن زيد وهو دون العشرين (٧) وسعد بن أبي وقاص وهو ابن سبع عشرة سنة (٨) وسعود بن ربيعة وهو ابن سبع عشرة سنة (٩) وجعفر بن أبي طالب وهو ابن ثماني عشرة سنة (١٠) وصهيب الرومي وهو دون العشرين (١١) وزيد بن حارثة وهو في حدود العشرين (١٢) وعثمان بن عفان في حدود العشرين (١٣) وطليب بن عمير وهو في حدود العشرين (١٤) وخباب بن الأرت وهو في حدود العشرين (١٥) وعامر بن فهيرة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة (١٦) ومصعب بن عمير وهو ابن أربع وعشرين سنة (١٧) والمقداد بن الأسود وهو ابن أربع وعشرين سنة (١٨) وعبد الله بن جحش وهو ابن خمس وعشرين سنة (١٩) وعمر بن الخطاب وهو ابن ست وعشرين سنة (٢٠) وأبو عبيدة بن الجراح وهو ابن سبع وعشرين سنة (٢١) وعتبة بن غزوان وهو ابن سبع وعشرين سنة (٢٢) وأبو حذيفة بن عتبة في حدود الثلاثين سنه (٢٣) وبلال بن رباح في حدود الثلاثين (٢٦) وعياش بن ربيعة وهو في حدود الثلاثين (٢٧) وعامر بن ربيعة وهو في حدود الثلاثين (٢٨) ونعيم بن عبد الله وهو في حدود الثلاثين (٢٩) وعثمان (٣٠) وعبد الله و(٣١) وقدامة (٣٢) والسائب أبناء مظعون بن حبيب، وكان عمر عثمان في حدود الثلاثين، وعبد الله سبع عشرة سنة وقدامة تسع عشرة سنة، والسائب في حدود العشرين (٣٣) وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وعمره في حدود الثلاثين (٣٤) وعبد الرحمن بن عوف في حدود الثلاثين (٣٥) وعمار بن ياسر فيها بين الثلاثين والأربعين (٣٦) وأبو بكر الصديق وهو ابن سبع وثلاثين سنة (٣٧) وحمزة بن عبد المطلب وعمره اثنتان وأربعون سنة (٣٨) وعبيدة

ابن الحارث وعمره خمسون سنة. كما آمن عدد من النساء، ولما نضج هؤلاء الصحابة في ثقافتهم، وتكونت عقليتهم عقلية إسلامية وأصبحت نفسيتهم نفسية إسلامية في مدة ثلاث سنوات اطمأن الرسول ﷺ عليهم، وأيقن بنضجهم في عقولهم، وبسموهم في نفسياتهم ورأى إدراكهم لصلتهم بالله بارزة آثاره على أعمالهم، ارتاحت نفسه لذلك كثيراً؛ إذ صارت كتلة المسلمين قوية قادرة على مجابهة المجتمع كله فأظهرها حين أمره الله.

انطلاق الدعوة:

كان أمر الدعوة الإسلامية ظاهراً من أول يوم بعث به ﷺ، وكان الناس في مكة يعرفون أن محمداً يدعو لدين جديد، ويعرفون أنه أسلم معه كثيرون، ويعرفون أن محمداً يكتل أصحابه ويسهر عليهم، ويعرفون أن المسلمين يستخفون عن الناس في تكتلهم وفي اعتناقهم الدين الجديد، وكانت هذه المعرفة تشعر أن الناس كانوا يحسون بالدعوة الجديدة، ويحسون بوجود مؤمنين بها، وإن كانوا لا يعرفون أين يجتمعون ومن هم هؤلاء الذين يجتمعون من المؤمنين، ولذلك لم يكن إعلان الرسول ﷺ للإسلام شيئاً جديداً على كفار مكة، وإنما كان الشيء الجديد ظهور هذه الكتلة المؤمنة للناس. فقد أسلم حمزة بن عبد المطلب ثم أسلم عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام فاشتد ساعد المسلمين ونزل على الرسول قوله تعالى ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فصدع ﷺ بأمر الله، وأظهر أمر التكتل علناً للناس جميعاً، وإن كان بقي بعض المسلمين مستخفين، ومنهم من بقي مستخفياً حتى فتح مكة. وكان أسلوب إظهار الرسول ﷺ لأمر هذا التكتل أنه خرج في أصحابه صفين اثنين كان على رأس أحدهما حمزة بن عبد المطلب، وعلى رأس الصف الثاني عمر بن

الخطاب، وذهب بهم الرسول إلى الكعبة في نظام دقيق لم تعهده العرب من قبل فطاف بهم الكعبة، وانتقل الرسول بذلك في أصحابه من دور الاستخفاء إلى دور الإعلان، ومن دور الاتصال بمن يأنس فيهم الاستعداد إلى دور مخاطبة الناس جميعاً، فبدأ الاصطدام بين الإيمان والكفر في المجتمع، وبدأ الاحتكاك بين الأفكار الصحيحة وبين الأفكار الفاسدة، وبدأت المرحلة الثانية وهي مرحلة التفاعل والكفاح. وبدأ الكفار يقاومون الدعوة ويؤذون الرسول وأصحابه بجميع أنواع الأذى. وهذه الفترة فترة التفاعل والكفاح هي أشد ما عرف روعة في العصور جميعها، فقد كان منزل الرسول ﷺ يرجم، وكانت أم جميل زوجة أبي لهب تلقي النجس أمام بيته، فكان يكتفي بأن يزيله، وكان أبو جهل يلقي عليه رحم الشاة مذبوحة ضحية للأصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته، فلا يزيده ذلك كله إلا صبراً وإمعاناً في الدعوة، وكان المسلمون يهددون ويؤذون، فقد وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، حتى ألقى أحدهم عبده الحبشي بلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لا لشيء إلا لأنه أصر على الإسلام، ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمة أحد أحد محتملاً هذا العذاب في سبيل ربه. وعذبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها، وكان المسلمون بالجملة يضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانة فكانوا يصبرون على كل ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى.

مقاومة الدعوة:

حين بعث ﷺ بالإسلام تحدث الناس عنه وعن دعوته، وكانت قريش أقلهم حديثاً؛ لأنهم لم يعنوا به أول أمره وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان

والحكماء، وأن الناس عائدون إلى دين آبائهم وأجدادهم، ولـذلك لم ينفـروا منـه ولم ينكروا عليه، وكان إذا مر عليهم في مجالسهم يقولون هذا ابن عبد المطلب يكلـم مـن السماء، واستمر على ذلك. إلا أنهم بعد أن مضت مدة قصيرة على دعوتـه وبـدأوا يحسون بخطورة هذه الدعوة أجمعوا على خلافه وعلـى عداوتـه ومحاربتـه، وقـد رأوا بادئ الرأي أن يحاربوه بالحط من شأنه وبتكذيبه فيما يزعم من نبوته، ثم تقدموا إليه يسألونه عن معجزاته التي يثبت بها رسالته، ويقولون مـا بـال محمـد لا يحيـل الصـفا والمروة ذهباً، ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطـاً مـن السـماء، ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديث محمد عنه، ولم لا يحيي الموتى، ولا يسـير الجبـال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها، ولم لا يفجر ينبوعاً أعذب من ماء زمـزم وهـو أعلـم بحاجة أهل بلده إلى الماء، ولم لا يوحي إليه ربـه أثمـان السـلع حتـى يضـاربوا علـى المستقبل. وهكذا صاروا يهاجمون الرسول ودعوته بأسلوب تهكمي لاذع، وطال بهم اللجاج، ولكن ذلك لم يثنه ﷺ عن دعوته بل استمر يدعو الناس إلى ديـن الله ويـذكر الأصنام ويعيبها ويطعن عليها ويسفه عقول عبدتها وحلوم مقدسـيها، فعظـم الأمـر عليهم واستعملوا جميع الوسائل لإرجاعه عن دعوته فلـم يفلحـوا، وكـان مـن أهـم الوسائل التي اتخذوها لمقاومة هذه الدعوة وسائل ثلاث:

١- التعذيب.

٢- الدعاية الداخلية والخارجية.

٣- المقاطعة

اما التعذيب فقد كان يقع على النبي صلوات الله عليه رغم اعتصـامه بقومـه، وعلى أتباعه المسلمين جميعاً، وقد تفننوا في إيقاع الأذى واستعملوا جميع صنوفه، وقد عذب آل ياسر جميعهم تعذيباً شديداً ليتركوا دينهم فما زادهم ذلك إلا ثباتـاً وإيمانـاً،

وقد مر بهم الرسول ﷺ وهم يعذبون فقال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة إني لا أملك لكم من الله شيئاً» فما كان من سمية زوجة ياسر إلا أن قالت حين قال لهم إن موعدكم الجنة: «إني أراها ظاهرة يا رسول الله» وهكذا استمرت قريش في تعذيب النبي وأصحابه.

ولما رأت قريش أن ذلك لم يفدها لجأت إلى سلاح آخر هو سلاح الدعاية ضد الإسلام وضد المسلمين في كل مكان، في مكة في الداخل، وفي الحبشة في الخارج، واستعملت الدعاية بكل نواحيها وبكل ما تنطوي عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات، واستعملت الدعاية ضد العقيدة الإسلامية نفسها، وضد صاحب العقيدة، واتهامه فيها واتهامها لذاتها، وأخذوا يكذبون على الرسول، وأخذوا يهيئون كل كلام يريدون الدعاية به ضد محمد في مكة وفي خارج مكة، وخاصة الدعاية في موسم الحج، وقد بلغ من اهتمام قريش بالدعاية ضد الرسول أن اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا عسى أن يقولوا في شأن محمد للعرب القادمين إلى مكة في موسم الحج، فاقترح بعضهم أن يقولوا عنه إنه كاهن، فرد الوليد هذا الرأي بأن ما يقوله محمد ليس بزمزمة الكاهن ولا بهمهمته ولا بسجعه. واقترح البعض الآخر أن يزعموا أن محمداً مجنون، فرد الوليد هذا الرأي أيضاً لأنه لا تظهر على محمد أية ظاهرة تدل على جنونه، ورأى آخرون أن يتهموا محمداً بالسحر فرد الوليد ذلك بأن محمداً لا ينفث في العقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئاً.

وبعد جدال ومناقشات اتفقوا على اتهام محمد بسحر البيان وانفضوا، ثم انطلقوا بين وفود الحج من العرب يحذرونهم الاستماع إلى محمد لأنه ساحر البيان وما يقوله سحر يفرق فيه بين المرء وأخيه وأمه وأبيه، وزوجه وعشيرته، ويخشى على

من يستمع إليه أن يسحره فيفرق بينه وبين أهله. ولكن هذه الدعاية لم تنفع، ولم تحل بين الناس وبين دعوة الإسلام. فذهبوا إلى النضر بن الحارث وحملوه على الدعاية ضد الرسول، فأخذ النضر كلما جلس الرسول في مجلس يدعو إلى دين الله، خلفه في مجلسه، وصار يقص حديث فارس ودينها، ويقول بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني. أليس يتلو من أساطير الأولين ما أتلو. وكانت قريش تأخذ هذه الأحاديث وتذيعها بين الناس كما كانت تذيع أن ما يقوله محمد إنما يعلمه إياه غلام نصراني اسمه جبر، وأنه ليس من عند الله، وروجت لهذه الشائعة كثيراً حتى رد الله عليهم فقال ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ وهكذا استمرت دعاية قريش داخل الجزيرة. ولم تكتف بذلك بل إنها حين سمعت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة أرسلت رسولين لها لينشرا دعاية ضد المسلمين عند النجاشي حتى يخرجهم من بلاده. وكان الرسولان هما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة. فقد وصلا إلى الحبشة وقدما لبطارقة النجاشي هدايا كي يساعدوهما على رد المسلمين إلى مكة، ثم اجتمعا إلى النجاشي وقالا له «أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلم بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم «فطلب النجاشي أن يسمع من المسلمين ما يقولون في ذلك، وبعث في طلبهم فلما جاءوا سألهم ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل،؟ فأجابه جعفر بن أبي طالب، مبيناً حالهم أيام الجاهلية وما كانوا عليه من صفات، ثم بين ما جاء به الإسلام من هداية، وما صارت إليه حالهم بعد إسلامهم، ثم بين تعذيب قريش لهم

«فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك» فقال النجاشي لجعفر: هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء تقرؤه علي. قال جعفر نعم وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ فلما سمع البطارقة هذا القول، قالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح. وقال النجاشي إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم التفت إلى رسولي قريش وقال لهما انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما. غير أن الرسولين انصرفا من مجلس النجاشي وأخذا يفكران بطريقة أخرى، حتى إذا كان اليوم الثاني عاد عمرو بن العاص إلى النجاشي وقال له: إن المسلمين ليقولون في عيسى بن مريم قولاً فظيعاً فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم واستخبرهم، فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً وخط به على الأرض وقال لجعفر: ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط، وصرف الرسولين القرشيين فرجعا بخفي حنين.

وهكذا أخفقت جميع أساليب الدعاية وكانت قوة الحق الذي يدعو إليه الرسول ﷺ في الصورة الواضحة التي تتجلى على لسانه تعلو على جميع الدعايات، وكان نور الإسلام حين يشرق يبدد جميع الإشاعات والدعايات. فلجأت قريش إلى السلاح الثالث وهو سلاح المقاطعة، واتفقوا جميعهم على مقاطعة الرسول وأقاربه

وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة فلا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم. وعلقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة، توكيداً لها وتسجيلاً واعتقدوا أن هذه السياسة سياسة المقاطعة ستكون أفعل أثراً من التعذيب والدعاية. وأقاموا على هذا الحصار سنتين أو ثلاث سنين، وكانوا ينتظرون أن يترك بنو هاشم وبنو عبد المطلب محمداً، وأن يترك المسلمون إسلامهم، فيصبح محمد وحيداً، وهو إما أن يرجع عن دعوته، وإما أن لا يبقى لدعوته أي خطر على قريش ولا على ديانتها، إلا أن ذلك لم يزد الرسول ﷺ إلا اعتصاماً بحبل الله وتمسكاً بدين الله، وحماسة في سبيل الدعوة إلى الله، ولم يزد الذين آمنوا معه إلا صلابة وقوة، ولم يحل دون انتشار الدعوة إلى الإسلام في مكة وفي خارج مكة، وبلغ خبر حصار قريش لمحمد العرب خارج مكة فذاع أمر الدعوة بين القبائل، وصار ذكر الإسلام يفشو في الجزيرة. وتتحدث به الركبان. إلا أن المقاطعة استمرت والتجويع ظل سارياً، وظلت الصحيفة التي تعاقدت قريش فيها على المقاطعة نافذة. واحتمى الرسول وأهله في الشعب بظاهر مكة، يعانون آلام الجوع والحرمان وألوان الفاقة والعوز. ولا يجدون في كثير من الأحيان ما يسدون به رمقهم، كما أنه لم يكن يتاح لهم أن يختلطوا بالناس ويتحدثوا إليهم، إلا في الأشهر الحرم حيث كان ينزل الرسول إلى الكعبة، يدعو العرب إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عذابه وعقابه، ثم يرجع إلى الشعب. وكان ذلك يثير عطف العرب عليهم فكان منهم من يقبل على دعوته، ومنهم من كان يرسل لهم الطعام والشراب خلسة، وكان هشام بن عمرو يأتي بالبعير- وقد حمله الطعام والبر- ويسير به في جوف الليل حتى يصل إلى الشعب، وهناك يخلع خطامه، ثم يضربه على جنبه، حتى يذهب إلى الشعب، فيأخذه المسلمون ويقتاتون بحمله، ويذبحونه ويأكلون لحمه، وظلوا على هذه

الحال مدة ثلاث سنوات متتابعة، حتى ضاقت عليهم الدنيا (إلى أن أرسل) الله الفرج وفك الحصار. وذلك أن خمسة من شباب قريش هم زهير بن أبي أمية، وهشام بن عمرو، والمطعم بن عدي، وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود. اجتمعوا وتذاكروا بأمر الصحيفة وأمر المقاطعة، وتذمروا منها، وأظهروا سخطهم عنها لبعضهم، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام بأمر يؤدي إلى نقض الصحيفة وتمزيقها، وفي اليوم التالي ذهبوا إلى الكعبة فجاء زهير وطاف بالبيت سبعاً ثم نادى في الناس: يا أهل مكة أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت والله لا تشق، فتصايح من جوانب البيت زمعة وأبو البخترى والمطعم وهشام وكلهم يكذبون أبا جهل، ويؤيدون زهيراً. فأدرك أبو جهل أن الأمر قضي بليل، وأن القوم قد اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شراً فأوجس في نفسه خيفة وتراجع، وقام المطعم ليشق الصحيفة، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها «باسمك اللهم» وبذلك أتيح للرسول وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكة، وأن يفك عنهم الحصار، فعادوا واستمر ﷺ على دعوته، حتى ازداد عدد المسلمين وهكذا أخفقت وسائل قريش في التعذيب والدعاية والمقاطعة، ولم تستطع أن تفتن المسلمين عن دينهم، ولا أن ترجع الرسول عن دعوته، حتى أظهرها الله تعالى رغم كل الصعاب والعقبات.

تفاعل الدعوة:

كان اصطدام قريش بالدعوة الإسلامية أمراً طبيعياً؛ لأنه ﷺ حمل الدعوة وأظهر الكتلة التي تحمل معه الدعوة سافرة متحدية، وفوق ذلك فقد كانت هذه الدعوة بذاتها تتضمن كفاح قريش والمجتمع في مكة لأنها كانت تدعو لتوحيد الله

وعبادته وحده، وإلى ترك عبادة الأصنام والإقلاع عن النظام الفاسد الذي يعيشون عليه، فاصطدمت بقريش اصطداماً كلياً، وهل يمكن أن لا يصطدم الرسول بقريش وهو يسفه أحلامهم، ويحقر آلهتهم وينـدد بحياتهم الرخيصة، وينعي على وسائل عيشهم الظالمة. ينزل عليه القرآن فيهاجمهم ويقول لهم بصراحة ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ثم يهاجم الربا الذي يعيشون عليه مهاجمة عنيفة من أصوله قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ويتوعد الذين يطففون الكيل والميزان قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وبهذا أخذوا يقفون في وجهه، ويؤذونه هو وأصحابه بالتعذيب تارة، وبالمقاطعة أخرى، وبالدعاية ضده وضد دينه. غير أنه ظل يهاجمهم، واستمر على كفاح الآراء الخاطئة، وهدم العقائد الفاسدة، والمجاهدة في سبيل نشر الدعوة. وكان يدعو للإسلام بكل صراحة، لا يكني، ولا يلوح، ولا يلين ولا يستكين، ولا يحابي، ولا يداهن، رغم ما لاقاه من قريش من صنوف الأذى، ورغم ما يصيبه من مشقات. ومع أنه فرد أعزل لا معين له ولا نصير، ولا عدة معه ولا سلاح، فإنه جاء سافراً متحدياً، يدعو لدين الله بقوة وإيمان، لا يتطرق إليه أي ضعف عن احتمال تكاليف الدعوة، والقيام بالأعباء الجسام من أجلها، فكان لذلك كله الأثر في التغلب على الصعوبات التي كانت تضعها قريش في وجهه لتحول بينه وبين الناس. وقد استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى الناس ويبلغهم، فأقبلوا على دين الله، وأخذت قوة الحق تعلو على الباطل، وأخذ نور الإسلام يزداد كل يوم انتشاراً بين العرب، فأسلم الكثيرون من عباد الأصنام، ومن النصارى، بل أخذ زعماء قريش يسمعون للقرآن وتهفو قلوبهم له.

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً فأتت إليه

قريش تحذره محمداً وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء واهله، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة، وأن الخير في ألا يكلمه ولا يستمع إليه. وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة وكان رسول الله هناك فسمع بعض قوله فإذا هو كلام حسن فقال في نفسه: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته» واتبع الرسول إلى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه، فعرض رسول الله عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلم وشهد شهادة الحق، ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام.

وقدم على الرسول ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره، فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له، فاستجابوا وآمنوا به وصدقوه، مما غاظ قريشاً حتى سبوهم وقالوا لهم: «خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال» ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة النبي، ولم ترده عن الإسلام، بل زادتهم بالله إيماناً على إيمانهم وبذلك ازداد أمر النبي ظهوراً وازداد شوق الناس لسماع القرآن. حتى إن أشد قريش خصومة بدأوا يسائلون أنفسهم أحقاً إنه يدعو إلى الدين القيم، وأن ما يعدهم وينذرهم هو الصحيح، وحملهم هذا التساؤل على التسلل لسماع القرآن. خرج أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل عمرو بن هشام، والأخنس بن شريق، ليلة ليستمعوا إلى محمد وهو في بيته فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه، وكان محمد يقوم الليل إلا قليلاً يرتل القرآن ترتيلاً وهم يسمعون آيات الله فتأسر قلوبهم ونفوسهم، ويظلون ينصتون حتى الفجر فتفرقوا عائدين إلى منازلهم، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا

تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمداً عليكم، فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى محمد يتلو كتاب ربه، وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة، فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم فأقلعوا عن الذهاب لسماع محمد ولكن ما سمعوه في الليالي الثلاث ترك في نفوسهم أثراً جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأي فيما سمعوا، وكلهم تضطرب نفسه، ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمداً معه. وهكذا سرت الدعوة في كل مكان رغم ما تضعه قريش في وجهها من عقبات، فساء ذلك قريشاً واشتد خوفها من انتشار الدعوة بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة، فزادت من أذى أصحابه، وأخذت تزيد في إيذائه، وكثرت مساءاتهم نحوه حتى ضاق بهم ذرعاً. فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة ويرجو إسلامهم، لكنهم ردوه بشر جواب، وأغروا به غلمانهم وسفهاءهم يسبونه ويضربونه بالحجارة حتى أدميت قدماه، ففر منهم ورجع حتى جلس إلى كرم عنب لشبيب وشيبة ابني ربيعة يفكر في أمره وأمر الدعوة، فهو لا يستطيع أن يدخل مكة إلا في حماية أحد زعماء مكة المشركين، وهو لا يستطيع أن يذهب إلى الطائف بعد ما لاقى من الأذى، ولا يبقى مكانه لأن الكرم لرجلين مشركين، واشتد الكرب عليه فرفع رأسه إلى السماء يشكو إلى الله في أشد حالة من الألم، وأعظم حال من الثقة بالله وطلب رضاه، وأخذ يدعو هذا الدعاء «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري،

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» ثم عاد إلى مكة في حماية المطعم بن عدي، وعرفت قريش ماذا حصل لمحمد في الطائف فازدادت أذى له وشددت النكير عليه، وأخذت تمنع الناس من الاستماع إليه، فانصرف عنه أهل مكة من المشركين وأعرضوا عن الاستماع إليه، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة لدين الله، وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه. غير أن عمه عبد العزيز بن عبد المطلب أبا لهب لم يكن يدعه بل كان يتبعه أينما ذهب ويحرض الناس ألا يستمعوا له، فأثر ذلك عليهم وانصرفوا عن سماعه، فصار الرسول ﷺ يغشى القبائل في منازلهم، ويعرض نفسه عليهم، فأتى كندة في منازلها، وأتى كلباً في منازلها، وأتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، فلم يسمع له منهم أحد وردوه جميعاً رداً غير جميل، بل رده بنو حنيفة رداً قبيحاً. أما بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده، فلما قال لهم: إن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء لووا عنه وجوههم وردوه كما رده غيرهم. وهكذا أعرضت مكة عن الإسلام وأعرض أهل الطائف عن رسول الله وردت القبائل دعوة الرسول. ورأت القبائل التي تجيء حاجّة إلى مكة ما صار إليه محمد من عزلة، وما أحاطته قريش من عداوة، تجعل كل نصير له عدواً لها وعوناً عليها، فازدادت إعراضاً عنه وزاد ذلك الرسول عزلة عن الناس وصارت الدعوة صعبة في مكة وما حولها وظهر المجتمع المكي في صلابة الكفر والعناد، مما يجعل الأمل ضعيفاً فيه.

دَوْران من أدوار الدعوة:

سار الرسول ﷺ في مكة في دورين متتاليين: أولهما دور التعليم والتثقيف والإعداد الفكري والروحي، وثانيهما دور نشر الدعوة والكفاح، فالدور الأول دور فهم الأفكار وتجسيدها في أشخاص وتكتلهم حولها، والدور الثاني دور نقل هذه الأفكار إلى قوة دافعة في المجتمع تدفعه لأن يطبقها في معترك الحياة. لأن الأفكار تبقى مجرد معلومات ما دامت لم تطبق، ولا فرق بين أن تكون هذه المعلومات في الكتب أو في الأدمغة فهي مخزونة في مكان، ولذلك لا قيمة للأفكار إذا لم تنتقل إلى تطبيق لها في الحياة. والأفكار لكي تطبق لا بد أن تمر بدور تحويلها من فكر إلى قوة دافعة في الناس، فتؤمن بها الجماهير، وتفهمها، وتحملها، وتكافح في سبيل تطبيقها، وحينئذ يصبح تطبيقها أمراً حتمياً ونتيجة طبيعية. وهكذا سار الرسول ﷺ بالدعوة في مكة في هذين الدورين، أما الدور الأول فهو دور دعوة الناس للإسلام، وتثقيفهم بأفكاره وتلقينهم أحكامه، وتكتيل من يستطيع التكتل على أساس العقيدة الإسلامية، وهذا الدور هو دور التكتل السري في الدعوة. وذلك أن الرسول، ﷺ كان لا يفتر عن الدعوة ويدأب على تثقيف من يدخلون في الإسلام بالأفكار، ويجمعهم في دار الأرقم، ويرسل من يثقفهم كتلة في حلقات، فيجتمع المسلمون في بيوتهم سراً وفي شعاب الجبال سراً، وفي دار الأرقم سراً ويتكتلون، ويزداد كل يوم إيمانهم وتزداد كل يوم صِلاتهم ببعضهم، ويزداد كل يوم إدراكهم لحقيقة المهمة التي يحملونها، فيستعدون للتضحية في سبيلها. حتى غرست الدعوة في نفوسهم، وسرى الإسلام فيهم سريان الدم في أجسامهم، فأصبحوا إسلاماً يمشي في الطريق. وبذلك لم تستطع الدعوة أن تبقى حبيسة في نفوسهم رغم استخفائهم ورغم سرية تكتلهم والحرص على إخفاء تجمعهم، فأخذوا يتحدثون إلى من يثقون بهم، وإلى من يأنسون منهم

استعداداً لقبول الدعوة، وبهذا أحس الناس على دعوتهم، وأحسوا على وجودهم، فاجتازت بذلك الدعوة نقطة الابتداء، وصار لا بد لها أن تنطلق، ووجدت المحاولات لانطلاقها ومخاطبة الناس جميعاً بها، وبذلك انتهى الدور الأول وهو دور التكتل السري والتثقيف الذي يبني هذا التكتل، وصار لا بد من الانتقال إلى الدور الثاني وهو دور التفاعل والكفاح بإفهام الناس الإسلام، فيتجاوبون معه ويقبلون عليه فيختلط بنفوسهم، أو يردونه ويحملون عليه فيصطدمون بأفكاره، ويحصل من هذا الاصطدام أن يهزم الكفر والفساد، ويستقر الإيمان والصلاح، وينتصر الفكر الصحيح؛ لأن العقول مهما تكن مكابرة لا يمكن أن تغلق أمام الفكر الصحيح، ولا تستطيع أن ترفضه، وإن كانت تهرب منه حتى لا يؤثر عليها. وهكذا بدأ دور التفاعل وبدأ به الكفاح بين فكر وفكر، بين مسلمين وكافرين، بدأ ذلك من الكتلة الحزبية حين خرج الرسول ﷺ ومعه أصحابه في ترتيب لم تعهده العرب من قبل، وفي كتلة واحدة، فطاف بالكعبة وأعلن أمره. ومنذ ذلك الحين صار الرسول ينشر الدعوة على الناس كافة جهاراً نهاراً سافراً متحدياً.

وصارت الآيات تنزل على الرسول ﷺ في الدعوة إلى التوحيد، وفي إنكار الوثنية والشرك، والحملة عليهما، والنعي على تقليد الآباء والأجداد من غير نظر وصارت تنزل في الحملة على المعاملات الفاسدة، فتهاجم الربا، وتهاجم التجارة الفاسدة، والغش في الكيل والميزان، وصار الرسول يتحدث إلى الناس في الإسلام جماعات، فيجمع قومه على طعام في بيته ويحدثهم جماعة، ويطلب إليهم أن يسلموا وأن يؤازروه فيرفضوا شر رفض، ثم يجمع أهل مكة على الصفا ويحدثهم، فيثور زعماء قريش ويرده أبو لهب شر رد، وتزداد الخصومة بين قريش والنبي محمد كما تزداد بين غير قريش من العرب وبينه ﷺ وهكذا تجمع الدعوة إلى التثقيف المركز

بالحلقات في البيوت وبين الشعاب وفي دار الأرقم تثقيفاً جماعياً، وتنتقل من دعوة من يؤنس فيه الاستعداد إلى دعوة الناس جميعاً، فيكون لهذه الدعوة الجماعية والتثقيف الجماعي أثر على قريش؛ إذ ازداد حقدها وأحست بالخطر يقترب منها، وبدأت تتخذ الخطوات الجدية للمقاومة، بعد أن كانت لا تأبه لمحمد ولا لدعوته، فازداد الأذى والاضطهاد على النبي ﷺ وعلى أصحابه. ولكن هذه الدعوة الجماعية كان لها أثر في الدعوة نفسها، فقد أسمعت الناس جميعاً كلمة الإسلام، وانتشرت الدعوة إلى دين الله بين أهل مكة جميعاً، فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه، فآمن به كل بائس وكل ضعيف وكل محروم، وجميع من لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم إليه رسول الله، وآمن به من تجار مكة وأشرافها وزعمائها من عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والصدق وارتفعوا عن اللجاج والمكابرة، هؤلاء أسلموا وجههم لله بمجرد أن أدركوا صحة الدعوة وصدق الداعي، وانتشر الإسلام بمكة ودخل الناس في الإسلام رجالاً ونساء. فكان للدعوة الجماعية أثر نقلها إلى أفق أوسع، وإن كان نقل حملتها إلى المشقة والعذاب وتحمل صنوف الأذى. وكان يزيد النار اشتعالاً في نفوس زعماء قريش مهاجمة الرسول للظلم والقسوة والاستعباد الذي كان يسود مكة، وكشفه لأحوال الكفار ولأعمالهم. وبدأت بين الرسول ومعه أصحابه وبين كفار قريش مرحلة من أشق المراحل، ودور من أعنف الأدوار. ولئن كان الانتقال من دور الثقافة إلى دور التفاعل هو من أدق الأدوار لأنه يحتاج إلى صراحة وتحد دون أن يحسب للنتائج والأوضاع أي حساب، فتحصل فيه فتنة الكفار للمسلمين عن دينهم، وفيه يظهر الإيمان وتظهر قوة الاحتمال، ويظهر ما في النفس من صدق اللقاء، وهكذا سار الرسول في هذا الدور وهو والصحابة يتحملون ما تنوء به الجبال الشامخات من ظلم وإرهاق وعسف وعنت، فكان منهم من هاجر إلى

الحبشة فراراً بدينه، ومنهم من مات تحت التعذيب ومنهم من احتمل أقسى صنوف الأذى، واستمروا على ذلك مدة طويلة كانت كافية لأن يتأثر مجتمع مكة بنور الإسلام وتبدد فيه الظلمات. ولئن مكث الرسول ثلاث سنوات في دار الأرقم وانتهى من الدور الأول دور التكتل السري والتثقيف خلال هذه السنوات الثلاث، فقد مضى على الرسول ثماني سنوات أخرى وهو يكافح الكفر (وتظهر المعجزات الناس) ومع ذلك فلم تخفّ وطأة قريش عن تعذيب المسلمين ولم يخفّ حماسهم في محاربة الإسلام. نعم كان من جراء احتكاك المسلمين بقريش أن سمعت الجزيرة كلها بالإسلام، وسارت أجواء الدعوة في جميع أنحاء الجزيرة، نقلها إليهم الحجاج وتحدثوا بها، لكن هؤلاء العرب كانوا يقفون موقف المتفرج، ولم يتقدموا الخطوة نحو الإيمان، بل كانوا يسعون لعدم إغضاب قريش، ويبتعدون عن الرسول حتى لا يثير ذلك غضب قريش. فاشتد ذلك على الرسول وعلى أصحابه وظهر أن الانتقال للدور الثالث دور تطبيق الإسلام لا بد منه، ولكن قسوة المجتمع في مكة لا تدل على إمكانية ذلك التطبيق، وازدياد الأذى على المسلمين لا يمكّنهم من التفرغ للدعوة بل يحول بينهم وبينها، وإعراض الناس عن الدعوة يزيدهم ألماً وحزناً.

توسع مجال الدعوة:

زادت مساءات قريش للرسول وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً، ولم يبق رجاء في نصرة القبائل إياه بعد أن ردته ثقيف من الطائف بشر جواب، وبعد أن ردته كندة وكلب وبنو عامر وبنو حنيفة لما عرض نفسه عليهم في موسم الحج، ولم يبق مطمع في أن يهتدي إلى الإسلام من قريش أحد، ورأت غير قريش من القبائل التي تجاور مكة والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجة إليها ما صار محمد إليه من عزلة، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له عدواً لها وعوناً عليها،

فازدادت إعراضاً عنه. ورأى ﷺ رسالة ربه تقف في دائرة من اتبعه إلى يومئذ، وتطاولت الأيام والرسول يزداد بين قومه عزلة، وقريش تزداد عليه حقداً، والناس يزدادون عنه إعراضاً، إلا أنه ﷺ بالرغم من كل ذلك ظل هو وأصحابه من حوله أشد ما يكون ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله، وظل يدعو الناس كلما أتيح له ذلك، فإذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة بادأ القبائل فدعاها إلى الإسلام غير آبه أن تبدي هذه القبائل رغبة عن دعوته والإعراض عنه أو ترده رداً غير جميل. ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالة ربه وينالونه بالسوء، فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه، وطمأنينتها إلى غده. إن الله قد بعثه بالإسلام فهو لا ريب ناصره ومؤيده ومظهر دينه. وأخذ ينتظر فرج الله وهو يومئذ في ألم من وقوف دعوته، وفي شدة وضيق من قريش، ولم يطل به الانتظار حتى بدت تباشير الفوز آتية من المدينة، ذلك أن نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكة في موسم الحج فلقيهم الرسول فكلمهم وسألهم عن شأنهم، ودعاهم إلى الله، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه وأجابوا دعوة الرسول وأسلموا وقالوا له: «إنا تركنا قومنا (أي الأوس والخزرج) ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك وأن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك». وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة فذكروا لقومهم إسلامهم، فألفوا قلوباً منشرحة ونفوساً متلهفة للدين الجديد، فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلا فيها ذكر محمد ﷺ.

بيعة العقبة الأولى:

فلما استدار العام وجاء موسم الحج أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة فالتقوا هم والنبي بالعقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى: بايعوه على أن لا يشرك

أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف فإن وفى في ذلك فله الجنة وإن غشي من ذلك شيئاً فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. وبعد أن أتموا البيعة وانقضى موسم الحج عادوا إلى المدينة.

الدعوة في المدينة:

لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر وفشا الإسلام في دور الأنصار أرسلت الأنصار رجلاً إلى رسول الله ﷺ وكتبت كتاباً تقول فيه ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين، ويقرئنا القرآن. وكان عليه الصلاة والسلام لا يترك من يدخل الإسلام دون أن يعنى بتعليمه الأحكام وتثقيفه بالإسلام ثقافة صحيحة تمكنه من فهمه وإدراك حقيقته؛ لأن الثقافة الإسلامية ضرورية لكل مسلم، وهي وسيلة لتقوية العقيدة، ولفهم رسالة الإسلام، وهي الضمانة لدوام العمل بالإسلام. وقد أحس الذين أسلموا بذلك فطلبوا من يعلمهم فبعث إليهم رسول الله مصعب بن عمير، فقدم على منزل أسعد بن زرارة، وكان يأتي الناس في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها إلا دوراً من أوس الله وهي خطمة ووائل وواقف، وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمّع بهم، فأذن له وكتب إليه: انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم، فإذا زالت الشمس فازدلف إلى الله فيه بركعتين، واخطب فيهم، فجمّع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة وهم اثنا عشر رجلاً، وما ذبح لهم يومئذ إلا شاة، فهو أول من جمّع في الإسلام جمعة. واستمر مصعب يطوف بالمدينة على الناس ويدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم إياه. وذات يوم خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بني

الأشهل ودار بني ظفر- وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة- فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر أي بستاناً من بساتينهم، وكان على بئر يقال له بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد ابن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أحد عليه مقدماً، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال فوقف عليهما متشتماً، فقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا. اعتزلانا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا- فيما يذكر عنهما- والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين. قالا له تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين. قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال احلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا

نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره، وقد قال أسعد لمصعب: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لم يخالف عليك منهم اثنان، فقال له مصعب أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد أنصفت، ثم ركز الحربة فجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسهله، ثم قال لهما كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قال تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين. قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رآه قومه مقبلاً قالوا نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون. وأقام مصعب بالمدينة مدة سنة بين الأوس والخزرج، يعلمهم دينهم، ويرى مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق وكان ﷺ يطرق الأبواب على الناس

سعياً للاتصال بهم ليبلغهم دعـوة الله، وكـان يجـوب الحقـول متصـلاً بـالمزارعين في أعمالهم يدعوهم للإسلام، وكان يواجـه الأسـياد يـدعوهم لـدين الله، وكـان يقـوم بحركات مقصودة كما فعل مع أسعد بن زرارة في اتخاذ الوسائل للوصول إلى النـاس حتى يقوم بإسماعهم صوت الحق حتى استطاع في سنة واحدة أن يقلـب الأفكـار في المدينة من وثنية خرقة، ومن مشاعر خاطئة «إلى توحيد وإيمان، وإلى مشاعر إسلامية» تسخط على الشرك وتنفر من تطفيف الكيل والميزان. وهكذا كـان نشـاط مصـعب، وكان نشاط الذين أسلموا معه أن تحولت المدينة في سنة واحدة من حـال الشـرك إلى حال الإسلام.

بيعة العقبة الثانية:

كانت بيعة العقبة الأولى خيراً وبركة، فإن الذين أسـلموا علـى قلـة عـددهم، كفاهم شخص واحد من أصحاب الرسول هو مصعب لأن يغير بهم المدينة، ويقلب الأفكار والمشاعر الموجودة في مجتمعها، ومع أن الذين أسلموا في مكـة كـانوا كـثيرين إلا أن جماهير الناس كانوا منفصلين عنهم، إذ لم تؤمن الجماعـات، ولم يتـأثر المجتمـع بالأفكار والمشاعر الإسلامية، بخلاف المدينـة فقـد دخلـت في الإسـلام فيهـا جمـاهير الناس، وتأثر المجتمع فيها بالإسلام، وتأثرت أفكاره، وتأثرت مشـاعره، وذلـك يـدل دلالة واضحة على أن إيمان الأفراد منفصلين عن المجتمع، منفصلين عن جماهير الناس لا يحدث أثـراً في المجتمـع، ولا في الجمـاهير، مهمـا تكـن قـوة هـؤلاء الأفـراد. وأن العلاقات القائمة بـين النـاس إذا تـأثرت بتـأثير الأفكـار والمشـاعر حـدث التحـول والانقلاب مهما يكن قليلاً عدد الحاملين للدعوة. ويدل على أن المجتمع حين يكـون جامداً على الكفر كمجتمع مكة يكون أكثر صعوبة من المجتمع الـذي لم تـتحكم فيـه الآراء الفاسدة كمجتمع المدينة، وإن كانت موجـودة فيـه هـذه الآراء؛ ولـذلك تـأثر

المجتمع في المدينة بالإسلام أكثر من مكة، فقد كان الناس في المدينة يشعرون بخطأ الأفكار التي يحملونها وكانوا يبحثون عن أفكار أخرى وعن نظام آخر لحياتهم، في حين أن مجتمع مكة كان مرتاحاً إلى ما هو عليه، حريصاً على بقائه لا سيما رؤوس الكفر أمثال أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان، ولذلك ما لبث مصعب في المدينة مدة قصيرة حتى وجد الإقبال على الدعوة، فأقام يدعو الناس للإسلام ويثقفهم بأفكاره وأحكامه، فيلمس الاستجابة السريعة، ويشاهد إقبال الناس على الإسلام وإقبالهم على تفهم أحكامه فيسر كثيراً، ويرى ازدياد عدد المسلمين، وازدياد الإسلام بالمدينة، فيغتبط لذلك ويزداد نشاطاً في التعليم وبث الدعوة، حتى إذا أتى موسم الحج عاد إلى مكة وقص على رسول الله ﷺ خبر المسلمين وقوتهم، وأنباء الإسلام وازدياد انتشاره، وصور له المجتمع بالمدينة بأنه أصبح لا يتحدث إلا عن الرسول، ولا شيء في أجوائه إلا الإسلام، وأن قوة المسلمين ومنعتهم هناك لها من التأثير ما جعل الإسلام هو الذي له الغلبة على كل شيء، وأنه سيحضر هذا العام بعض المسلمين، وهم أعظم إيماناً بالله، واستعداداً لحمل رسالة الله، والدفاع عن دين الله، فسر النبي ﷺ لأخبار مصعب كثيراً وأخذ يفكر في الأمر طويلاً، ويقارن بين مجتمع مكة ومجتمع المدينة. فإن مكة قد قضى يدعو فيها إلى الله اثني عشر عاماً متتالية، لم يأل جهداً بالدعوة، ولم يترك فرصة إلا بذل فيها كل ما يستطيع من جهد، وتحمل جميع صنوف الأذى، ومع ذلك فالمجتمع متحجر لا تجد الدعوة إليه سبيلاً، نظراً لما في قلوب أهل مكة من قسوة، وما في نفوسهم من غلظة، وما في عقولهم من جمود على القديم، وبذلك كان مجتمع مكة قاسياً ضعيف القابلية للدعوة، لما تغلغل في نفوس أهله من وثنية الشرك التي كانت مكة المركز الرئيسي لها. وأما مجتمع المدينة، فقد كان مرور سنة على إسلام نفر من الخزرج، ثم بيعة اثني عشر رجلاً، وجهود مصعب بن عمير

مدة سنة أخرى، كان ذلك كافياً لإيجاد الأجواء الإسلامية في المدينة ودخول الناس في دين الله بهذه السرعة المدهشة، وإذا كانت مكة قد وقفت فيها رسالة الله عند حد الذين أسلموا، مع ما يلاقي فيها المسلمون من أذى قريش ومساءاتها، فإن المدينة قد بدأت فيها رسالة الله تنتشر بهذه السرعة، ولا يجد المسلمون فيها من أذى اليهود ولا أذى المشركين شيئاً، وذلك مما يمكن للإسلام في النفوس، ويفتح الطريق أمام المسلمين، ولهذا فقد تبين لرسول الله أن المدينة أصلح من مكة للدعوة إلى الإسلام، وأن مجتمع المدينة فيه قابلية لأن يكون منبثق نور الإسلام أكثر من مكة. ولهذا فكر أن يهاجر إليه، وأن يهاجر أصحابه إلى إخوانهم المسلمين، ليجدوا عندهم أمناً، وليسلموا من أذى قريش، حتى يتفرغوا للدعوة وينتقلوا بها إلى مرحلتها العملية، ألا وهي تطبيق الإسلام، وحمل رسالته، بقوة الدولة وسلطانها. وكان هذا هو السبب للهجرة إليها لا غيره.

ولا بد من لفت النظر إلى أن الرسول ﷺ لم يفكر بالهجرة من مكة لمجرد أن لاقى صعوبات أمام الدعوة، دون أن يصبر، وأن يحاول التغلب على هذه الصعوبات، فإنه ﷺ قد صبر عشر سنين في مكة، وهو لا يتحول فكره عنها، وكان يلاقي الأهوال في سبيل الدعوة هو وأتباعه، ولم تضعف مساءات قريش من نفسه شيئاً، وما أوهنت مقاومتهم له عزماً، بل زاده الإيمان بالدعوة التي جاء بها من ربه سمّوا، وزاده اليقين بنصر الله صلابة وثباتاً، ولكنه ﷺ رأى بعد هذه التجارب ما عليه هذا المجتمع القاسي في مكة من ضحالة أفكار، وما فيه من غلظة أكباد، وما هو عليه من ضلالة، مما يضعف الأمل فيه، ويجعل استمرار التجربة في دعوته- جهداً ضائعاً، ولذلك كان لا بد من التحول عن هذا المجتمع إلى غيره. ففكر في الهجرة من مكة، وكان هذا هو الذي حمله على التفكير بالهجرة إلى المدينة، وليس هو ما ناله وما نال

أصحابه من أذى. نعم إن الرسول أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى؛ إذ يجوز للمؤمنين أن يهاجروا عن مواطن الفتنة فراراً بدينهم، لأنه وإن كان الأذى يذكي الإيمان، والاضطهاد يشعل الإخلاص، والمقاومة ترهف العزائم، والإيمان يحمل صاحبه على الاستهانة بكل شيء، وعلى التضحية في سبيله بالمال والجاه والراحة والحياة، نعم إنه وإن كان الإيمان بالله يجعل المؤمن يقدم نفسه عن طيب خاطر في سبيل الله. ولكن استمرار الأذى، ومداومة التضحية، تجعل المؤمن مشغولاً بالصبر على الأذى، ويبذل التضحيات، عن دقة التأمل التي تزيد أفق المؤمن سعةً وإدراكه للحق قوة وعمقاً، ولذلك كان لا بد من هجرة المؤمنين عن مواطن الفتنة. غير أن هذا ينطبق على هجرة المسلمين إلى الحبشة. أما هجرتهم إلى المدينة فإنها كانت ليتمكنوا من الانتقال برسالتهم إلى وضع يجعلها حية في مجتمعهم الجديد، مندفعة في الكرة الأرضية لإعلاء كلمة الله. ومن هنا فكر الرسول أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، بعد أن دخلها الإسلام وانتشر فيها هذا الانتشار. وقبل أن يأمرهم بالهجرة إلى يثرب، وقبل أن يقرر هو الهجرة إليها، لا بد أن يرى الحاج من المدينة، ويرى المسلمين الذين قدموا للحج، ويرى مبلغ استعدادهم لحماية الدعوة، ومبلغ استعدادهم للتضحية في سبيل الإسلام، ويرى أكانوا يقدمون على بيعته بيعة حربية، بيعة قتال تكون الحجر الأساسي لإقامة الدولة الإسلامية، وانتظر قدوم الحاج، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة للبعثة الموافق سنة ٦٢٢ ميلادية وكان الحاج كثيرين بالفعل وكان بينهم خمسة وسبعون مسلماً. منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن ابن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع، فاتصل بهم الرسول سراً، وتحدث إليهم في بيعة ثانية لا تقف عند حد الدعوة فحسب والصبر على الأذى، بل تتجاوز ذلك

وتمتد إلى ما يكون به قوة يدفع بها المسلمون عن أنفسهم، بل تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك أيضاً، إلى إيجاد النواة التي تكون حجر الزاوية، والدعامة الأولى في إقامة دولة الإسلام، التي تطبقه في المجتمع، وتحمله رسالة عالمية إلى الناس كافة، وتحمل معه القوة التي تحميه، وتزيل من طريقه كل حاجز مادي يقف في سبيل نشره وتطبيقه. تحدث إليهم في ذلك، وعرف حسن استعدادهم فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جوف الليل، في أواسط أيام التشريق. وقال لهم: لا توقظوا نائماً، ولا تنتظروا غائباً. وفي يوم موعدهم المعين، وبعد مضي الثلث الأول من الليل، خرجوا من رحالهم يتسللون مستخفين، مخافة أن ينكشف أمرهم، وذهبوا للعقبة وتسلقوا الجبل جميعاً، وتسلقت معهم المرأتان، وأقاموا ينتظرون الرسول ﷺ، فأقبل ومعه عمه العباس، ولم يكن قد أسلم حينئذ، وإنما جاء ليستوثق لابن أخيه. وكان أول من تكلم (فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن فدعوه) فلما سمعوا كلام العباس قالوا له سمعنا ما قلت. ثم قالوا تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فأجاب الرسول بعد أن تلا القرآن، ورغّب في الإسلام. «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فمد البراء لمبايعته على ذلك وقال: بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. وقبل أن يتم البراء كلامه، اعترضه أبو الهيثم بن التيهان قائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال- أي اليهود- حبالاً (عهوداً) نحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم

الرسول وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. وهمّ القوم بالبيعة، فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً: يا معشر الخزرج، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن فدعوه، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. فأجاب القوم أنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك. فرد عليهم الرسول مطمئن النفس قائلاً: الجنة. ومدوا إليه أيديهم فبسط يده فبايعوه قائلين: «بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا، ويسرنا، ومنشطنا، ومكرهنا، وأن نقول الحق أينما كان، لا نخاف في الله لومة لائم» فلما فرغوا قال النبي: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً: يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء، فاختار القوم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فقال النبي لهؤلاء النقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، ثم احتملوا رحالهم وعادوا إلى المدينة. وبعد ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يهاجروا إلى المدينة، وأن يخرجوا متفرقين، وبدأ المسلمون يهاجرون فرادى، أو نفراً قليلاً، وكانت قريش قد علمت في أمر البيعة، لذلك حاولت أن ترد من تستطيع رده إلى مكة. وكانت تحول بين المسلمين والهجرة، حتى كانت تحول بين الزوج والزوجة. إلا أن ذلك لم يؤثر على الهجرة، فتتابعت هجرة المسلمين إلى المدينة والرسول مقيم في مكة، ولا يعرف أحد هل اعتزم أن يهاجر إلى المدينة، أم قرر الإقامة في مكة؟ ولكن الذي كان يظهر أنه يريد الهجرة إلى المدينة. فقد استأذنه أبو بكر أن يهاجر إلى المدينة فقال: لا تعجل لعل الله يجعل

لك صاحباً. فعرف أبو بكر أنه يريد الهجرة. وكانت قريش تحسب لهجرة النبي إلى المدينة ألف حساب بعد أن كثر المسلمون هناك كثرة جعلتهم أصحاب اليد العليا في المدينة، وجعلتهم مع الذين يهاجرون من مكة قوة كبيرة، فإذا لحق بهم النبي وهم في هذه القوة، كان في ذلك الويل والدمار لهم. ولهذا فكروا في منع الرسول من الهجرة إلى المدينة. وخافوا في نفس الوقت من بقائه في مكة أن يتعرضوا لأذى المسلمين في المدينة حين تشتد شوكتهم، بعد أن صاروا بهذه القوة، فيأتون إلى مكة ليدافعوا عن رسول الله الذي آمنوا به. لذلك فكروا في قتله حتى لا يلحق بالمسلمين في المدينة وحتى لا يكون هنالك ما يسبب اشتباكهم مع أهل المدينة من أجل الإسلام ومن أجل محمد. وقد جاء في كتب السيرة أنه قد ورد في حديث عائشة وأبي أمامة بن سهم: لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له منعة أهل حرب ونجدة. وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلنون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وأتعبوهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ، فقال: قد أريت دار هجرتكم سبخة. ثم مكث أياماً، ثم خرج مسروراً فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها. فجعلوا يتجهزون ويترافقون ويتواصون ويخرجون ويخفون ذلك، وقد خرجوا أرسالاً أي أقواماً وفرقاً متقطعة، وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج، وكان الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة إلى المدينة بعد أن صار المسلمون يهاجرون إليها فيقول لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون هو. ولما رأت قريش هجرة الصحابة، وعرفوا أنه أجمع لحربهم، اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام، فأجمع رأيهم على قتله، وتفرقوا على ذلك. ثم أتى جبريل النبي فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان

يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في بيته تلك الليلة وأذن الله عند ذلك له بالخروج.

وعلى ذلك فإن وجود القوة الإسلامية في المدينة واستعداد المدينة لتلقي الرسول وإقامة الدولة الإسلامية فيها هو الذي حمل الرسول ﷺ على الهجرة، وهذا هو السبب المباشر للهجرة. ولهذا يخطئ كل من يظن بأن محمداً ﷺ قد هاجر من مكة خوفاً من قريش أن تقتله، وفراراً منها. فإنه ﷺ لم يكن يحسب للأذى أي حساب، ولم يكن للموت في نظره أي اعتبار في سبيل الدعوة إلى الإسلام، ولم تكن تشغله نفسه ولا حياته، وما كانت هجرته للمدينة إلا للدعوة الإسلامية، ولإقامة الدولة الإسلامية. وإنما ائتمرت قريش بقتله مخافة هجرته إلى المدينة، واعتزازه بها، ولكنه ﷺ انتصر عليها، وهاجر إلى المدينة رغم أنفها، ولم تستطع منعه رغم ائتمارها به. فكانت الهجرة الحد الفاصل في الإسلام بين دور الدعوة له، وبين إيجاده مجتمعاً ودولة تحكم به، وتطبقه، وتدعو له بالحجة والبرهان، وبالقوة التي تحمي هذه الدعوة من قوى الشر والطغيان.

قيام الدولة الإسلامية:

وصل النبي ﷺ المدينة واستقبله عدد كبير من أهلها، من المسلمين والمشركين واليهود، وأحاط به المسلمون. وكان الجميع حريصين على استجلاء طلعته، وكان المسلمون حريصين على خدمته وراحته، حريصين على أن يقدموا نفوسهم في سبيله، وفي سبيل الدين الذي جاء به، وفي سبيل الدعوة الإسلامية. وكان كل منهم حريصاً على أن ينزل النبي عنده، لكنه عليه الصلاة والسلام ألقى بخطام ناقته على غاربها إلى أن بركت على مربد سهل وسهيل ابني عمرو، فابتاعه وأقام عليه مسجده وأقام حوله مساكنه. وما كان بناء المسجد ولا بناء المساكن ليرهق أحداً، فقد كانت كلها من

البساطة بحيث لا تحتاج إلى نفقة طائلة ولا إلى جهد كبير. كان المسجد فناء فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجرّ والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخل، وترك الجزء الآخر مكشوفاً، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون مسكناً، ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا ساعة صلاة العشاء، إذ توقد فيه أنوار من القش اثناءها. ولم تكن مساكن النبي بأكثر من المسجد بناء سوى أنها كانت أكثر منه استنارة، وقد مكث ﷺ في بيت أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري أثناء بناء المسجد والمساكن حتى انتهى من بنائها، فانتقل إليها واستقر عليه الصلاة والسلام، وأخذ يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتحها، والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة واسعة من دور إلى دور، نقلتها من دور التثقيف ومن دور التفاعل إلى دور تطبيق أحكام الإسلام على الناس في علاقاتهم، نقلتها من دور الدعوة فحسب والصبر على الأذى في سبيلها، إلى دور الحكم والسلطان والقوة التي تحمي هذه الدعوة. فالرسول ﷺ منذ وصل المدينة أمر ببناء المسجد مكاناً للصلاة وللاجتماع وللتشاور ولإدارة شؤون المسلمين والقضاء بينهم، واتخذ أبا بكر وعمر وزيرين له، قال عليه الصلاة والسلام «وزيراي في الأرض أبو بكر وعمر» والتف المسلمون حوله وصاروا يرجعون إليه، فكان يقوم بأعمال رئيس الدولة والقاضي، وقائد الجيش، وكان ﷺ يرعى شؤون المسلمين، ويفصل الخصومات بينهم. وأخذ يؤمِّر على السرايا قواداً، ويرسل السرايا خارج المدينة. وبذلك أقام الدولة في المدينة من أول يوم أقام فيها، وأخذ يركز هذه الدولة ببناء المجتمع على أساس ثابت، وتهيئة القوة الكافية لحماية الدولة ونشر الدعوة. وبعد أن اطمأن لذلك كله بدأ يزيل الحواجز المادية التي تقف في سبيل نشر الإسلام.

بناء المجتمع:

فطر الله في الإنسان غريزة البقاء وكان من مظاهرها تجمع الإنسان مع الإنسان، لذلك كان اجتماع الناس مع بعضهم طبيعياً، وكان التجمع بينهم أمراً غريزياً، إلا أن مجرد اجتماع الناس ببعضهم لا يجعل منهم مجتمعاً، وإنما يجعل منهم جماعة، ويبقون جماعة فقط إذا اقتصروا على مجرد الاجتماع، فإذا نشأت بينهم علاقات لجلب المصالح لهم، ودفع المفاسد عنهم، جعلت هذه العلاقات من هذه الجماعة مجتمعاً. غير أن هذه العلاقات لا تجعل منهم مجتمعاً واحداً إلا إذا توحدت نظرتهم إلى هذه العلاقات بتوحيد أفكارهم، وتوحد رضاهم عنها وسخطهم منها بتوحيد مشاعرهم، وتوحدت معالجاتهم لهذه العلاقات بتوحيد النظام الذي يعالجها، ولذلك كان لا بد من النظرة إلى الأفكار والمشاعر والأنظمة حين النظر للمجتمع؛ لأنها هي التي تجعله مجتمعاً معيناً له لون معين. وعلى هذا الأساس ننظر إلى المجتمع في المدينة حين قدمها الرسول ﷺ لنعرف ماهيته.

كانت تسكن المدينة حينئذ ثلاث جماعات: أولاها المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكانوا الكثرة الغالبة فيها. وثانيتها المشركون من سائر الأوس والخزرج الذين لم يسلموا، وكانوا قلة بين أهلها. وثالثتها اليهود وهم أربعة أقسام: قسم منهم في داخل المدينة، وثلاثة أقسام خارجها. أما الذين في داخل المدينة فهم بنو قينقاع. وأما الذين خارجها فهم بنو النضير، ويهود خيبر، وبنو قريظة. وقد كان اليهود قبل الإسلام مجتمعاً منفصلاً عن المجتمع في المدينة فأفكارهم متباينة، ومشاعرهم متباينة، والمعالجات التي يحلون بها مشاكلهم متباينة؛ ولذلك لا يعتبر اليهود جزءاً من المجتمع في المدينة، وإن كانوا داخلها وعلى مقربة منها. وأما المشركون فقد كانوا قلة. وكانت الأجواء الإسلامية التي اكتسحت المدينة قد اجتاحتهم، ولذلك كان خضوعهم في

علاقاتهم للأفكار الإسلامية وللمشاعر الإسلامية ولنظام الإسلام أمراً حتمياً، حتى ولو لم يعتنقوا الإسلام. وأما المهاجرون والأنصار فقد جمعتهم العقيدة الإسلامية وألف الإسلام بينهم، ولهذا كانت أفكارهم واحدة ومشاعرهم واحدة، فكان تنظيم علاقاتهم بالإسلام أمراً بديهياً، ولذلك بدأ الرسول ﷺ يقيم العلاقات بينهم على أساس العقيدة الإسلامية، ودعاهم ليتآخوا في الله أخوين أخوين، أخوّة يكون لها الأثر الملموس في معاملاتهم وأموالهم وسائر شؤونهم، فآخى بين المسلمين، فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وآخى بين المهاجرين والأنصار، فكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين، وكان طلحة بن عبيد الله وأبو أيوب الأنصاري أخوين، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين. وكان لهذه الأخوة أثر في الناحية المادية فقد أظهر الأنصار من الكرم لإخوانهم المهاجرين ما يزيد هذه الأخوة قوة وتوكيداً، فقد أعطوهم الأموال والأرزاق، وشاركوهم في حاجات الدنيا، وقد اتجه التجار للتجارة، والزراع للزراعة، وكل إلى عمله. أما التجار فقد أخذوا يشتغلون بالتجارة، فقد بدأ عبد الرحمن بن عوف يبيع الزبدة والجبن، وصنع كثير غير عبد الرحمن صنيعه، وأثروا من تجارتهم؛ إذ كانوا على دراية في شؤون التجارة. أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم فقد عملت أسرهم بالزراعة في الأراضي التي منحهم إياها الأنصار. قال عليه الصلاة والسلام: من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه. وصاروا جميعاً يعملون لكسب قوتهم. وكانت هنالك جماعة صغيرة لم يكن لديها مال ولم تجد عملاً تعمله، وليس لها مسكن تسكنه، وكانوا في حال من العوز والمتربة، ولم يكن هؤلاء من المهاجرين ولا من الأنصار، وإنما كانوا عرباً وفدوا على المدينة وأسلموا، فعني بهم الرسول، ﷺ، وأفرد لهم صفّة المسجد (القسم المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها،

ولذلك سُمُّوا أهل الصفة، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً. وبذلك انتهى الرسول ﷺ من تركيز المسلمين جميعاً على حال مستقرة، ومن تركيز العلاقات القائمة بينهم على أساس متين. وبهذا أقام الرسول المجتمع في المدينة على أساس ثابت وقف في وجه الكفر، وصمد لدسائس اليهود والمنافقين، وظل وحدة واحدة، فاطمأن الرسول ﷺ إلى هذا المجتمع وإلى هذه الوحدة. أما المشركون فقد خضعوا للحكم الإسلامي ثم تلاشى وجودهم. ولذلك لم يكن لهم أثر في تكوين المجتمع. وأما اليهود فإنهم مجتمع آخر قبل الإسلام. وبعد الإسلام ازداد التباين بين مجتمعهم وبين المجتمع الإسلامي، وبينهم وبين المسلمين، وكان لا بد من وضع العلاقات بينهم وبين المسلمين على أساس معين، ولذلك حدد الرسول موقف المسلمين منهم، وحدد لهم هو ما يجب أن يكون عليه وضعهم في علاقاتهم مع المسلمين. فقد كتب ﷺ بين المهاجرين والأنصار كتاباً ذكر فيه اليهود واشترط عليهم شروطاً، فكان الكتاب منهاجاً حددت فيه علاقات قبائل اليهود مع المسلمين بعد أن حددت علاقات المسلمين ببعضهم وبمن تبعهم. وقد افتتح الكتاب بقوله «هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس» ثم ذكر ما يجب أن تكون عليه العلاقات بين المؤمنين. وذكر اليهود عرضاً أثناء الحديث عن علاقات المؤمنين فقال «ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فلهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم» وليس المقصود من اليهود المذكورين هنا في هذا النص هم قبائل اليهود المجاورة، بل المراد كل من أراد أن يكون من رعية الدولة الإسلامية تابعاً لها يكون له

النصر وتكون له المساواة في المعاملة مع المسلمين؛ إذ يكون حينئذ ذمياً. وأما قبائل اليهود الذين شملهم الكتاب فقد ذكروا بأسماء قبائلهم في القسم الأخير من الكتاب، بعد أن انتهى الحديث عن علاقات المؤمنين، فقد ذكر يهود بني عوف ويهود بني النجار الخ ما ذكر، وحدد وضعهم في علاقاتهم بالدولة الإسلامية فيها ذكره من شروط. وقد جاء في نصوص الكتاب ما يدل صراحة على أن العلاقة بين اليهود وبين المسلمين وضعت على أساس الاحتكام إلى الإسلام، وعلى أساس جعلها خاضعة لسلطان الإسلام، وعلى أساس تقيد اليهود بما تستلزمه مصلحة الدولة الإسلامية. فقد جاء في نصوص الكتاب عدة نقاط تدل على ذلك منها:

١- وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد،

٢- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٣- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله.

٤- وأنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نَصَرَها.

وهكذا حدد كتاب الرسول ﷺ وضع القبائل المجاورة للمدينة من اليهود، فشرط عليهم ألا يخرجوا من المدينة إلا باذن الرسول أي بإذن الدولة، وأنه يحرم عليهم انتهاك حرمة المدينة بحرب أو نصرة على حرب، وأنه يحرم عليهم أن يجيروا قريشاً ولا من نصر قريشاً، وأن أي خلاف بينهم على ما ورد في الكتاب يحكم فيه رسول الله. وقد وافق على ما في هذا الكتاب ووقعه من اليهود من ذكروا فيه وهم يهود بني عوف، ويهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ولم يشترك في توقيع هذه الصحيفة أو هذا الكتاب من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. إلا أنهم ما لبثوا بعد قليل

أن وقعوا بينهم وبين النبي صحفاً مثل هذه الصحيفة، وخضعوا لنفس الشروط المذكورة في هذه الصحيفة.

وبتوقيع هذه الصحف ركز الرسول ﷺ العلاقات في الدولة الإسلامية الناشئة على وضع ثابت الأساس، وركز العلاقات بين هذه الدولة وبين القبائل اليهودية المجاورة على أسس واضحة يكون الإسلام فيها الحَكَم، فاطمأن الرسول إلى بناء المجتمع الإسلامي وأمن إلى حد ما غدر جيرانه اليهود ومحاربتهم، وبدأ يعمل لإزالة الحواجز المادية من طريق الدعوة الإسلامية بالتهيئة للقتال.

تهيئة أجواء القتال:

بعد أن اطمأن النبي ﷺ إلى بناء المجتمع، وبعد أن عقد المعاهدات مع جيرانه اليهود، بدأ يهيئ أجواء الجهاد في المدينة؛ لأن مهمة الدولة الإسلامية هي تطبيق الإسلام كاملاً في جميع البلاد التي تحكمها، وحمل الدعوة الإسلامية خارج حدودها. وحمل الدولة الإسلامية الدعوة إلى الإسلام ليس معناه التبشير بها على طريقة المبشرين، بل هو دعوة الناس للإسلام، وتثقيفهم بأفكاره وأحكامه، وإزالة كل حاجز مادي يقف حائلاً دون هذه الدعوة بقوة مادية قادرة على إزالته.

وقد كانت قريش حاجزاً مادياً حال دون الدعوة إلى الإسلام، فكان لا بد من القوة لإزالة هذا الحاجز المادي الذي يحول دون هذه الدعوة، فبدأ يعد القوة والجيش لحمل الدعوة خارج المدينة، وقام في أول الأمر بتنظيمات تعتبر حركات مقصودة، فأرسل خلال أربعة أشهر ثلاث سرايا من المهاجرين يتحدى بها قريشاً، ويرهب بها المنافقين واليهود من سكان المدينة ومن حولها، فقد بعث ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار، فلقي أبا جهل بن هشام على شاطئ البحر من ناحية العيص في ثلاثمائة راكب، وتأهب حمزة لقتاله لولا أن حجز بينهم

مجدي بن عمرو الجهني فانصرفوا عن بعضهم ورجع حمزة دون قتال. وبعث الرسول عليه السلام محمد بن عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين دون الأنصار، فلقي أبا سفيان على رأس جمع من قريش يزيد على مائتين في وادي رابغ، ورمى سعد بن أبي وقاص العدو بسهم ولكن لم يحصل قتال وانسحب الفريقان. ثم بعث سعد بن أبي وقاص بعشرين راكباً من المهاجرين نحو مكة، ثم رجعوا دون قتال. وبهذه السرايا وجدت في المدينة أجواء القتال ووجدت عند قريش نفسها أجواء الحرب مما بعث فيها الرعب، وجعلها تحسب لرسول الله ﷺ حساباً لم تكن لتحسبه من قبل، ولم تكن تدركه لولا هذه السرايا. ثم إن النبي ﷺ لم يكتف بذلك، بل خرج بنفسه للقتال. فقد خرج على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة، واستعمل عليها سعد بن عبادة، وسار إلى الأبواء حتى بلغ ودان، يريد قريشاً وبني ضمرة. فلم يلق قريشاً، وحالفته بنو ضمرة. وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط يريد قافلة يقودها أمية بن خلف، عدتها ألفان وخمسمائة بعير، يحميها مائة محارب، فلم يدركها إذ اتخذت طريقاً غير طريق القوافل (المعبّد) وأنه بعد ثلاثة أشهر من عودته من بواط من ناحية رضوى استعمل على المدينة أبا سلمة ابن عبد الأسد، وخرج في أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العُشَيرة من بطن ينبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها، أبو سفيان، ففاتته، وكسب من رحلته هذه أن وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة. وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار كرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكة وبقريش على إبل المدينة وأغنامها، فخرج النبي في طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة،

وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه، وهذه هي بدر الأولى.

وهكذا بدأ ﷺ بجيوشه يتحدى قريشاً ويتجول في الجزيرة يقوم بالغزوات. ومع أنه ﷺ لم يلق حرباً في هذه الغزوات، إلا أنه وصل فيها إلى نتائج عظيمة هيأت لبدء الحروب الكبيرة. فقد هيأ ﷺ بهذه الغزوات الجيش الذي يلقى به العدو؛ إذ نقلت هذه الغزوات المسلمين إلى الاستعداد للقتال. وألقى الرعب بسبب هذه الغزوات في نفوس اليهود والمنافقين في المدينة وما حولها، مما يمنعهم أن تحدثهم نفسهم بالشغب عليه. وكسر نفسية قريش بتحديه إياها. وقوّى هيبة المسلمين في نفوس أعدائهم، وأخذ الطرق على قوافل قريش في رحلتها إلى الشام، بعقد المعاهدات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر، مثل بني ضمرة وبني مدلج وغيرهم.

بدء القتال:

استقر ﷺ في المدينة، فأخذ يطبق الإسلام، وصار الوحي ينزل بالتشريع. فأقام صرح الدولة الإسلامية، وبناء المجتمع الإسلامي، على دعائم الإسلام وأنظمته. وآخى بين المسلمين، وحينئذ أصبح الإسلام- حكماً وشريعة- حياً في مجتمع يحتضنه ويحمل دعوته، وازداد المسلمون عدداً وشوكة وقوة ومنعة، وأقبل الناس على الإسلام فرادى وجماعات، من المشركين واليهود. وبعد أن اطمأن عليه السلام إلى الإسلام، وإلى الدعوة له في المدينة، فكر في الدعوة إلى الإسلام خارج المدينة في جزيرة العرب، ولكنه كان يعلم أن قريشاً تقف حاجزاً منيعاً دون هذه الدعوة، وهي حاجز مادي في طريق الإسلام، لم تنفع فيه الدعوة بالحجة والبرهان، وإذن لا بد من قوى مادية لإزالة هذه الحواجز المادية، وأنه عليه الصلاة والسلام إذا كان لم يستطع إزالة هذا

الحاجز المادي يوم كان في مكة، لعدم وجود دولة إسلامية تحمل القوة المادية الكافية لدحض تلك القوة، فإنه- وقد أسس دولة إسلامية- يستطيع أن يعمل لإزالة هذا الحاجز المادي بالقوى المادية، بعد أن تيسرت له هذه القوى. ولذلك فما عليه إلا أن يعد هذه القوة، وأن يعد أجواء الحرب، وأن يبدأ سياسة جديدة للدعوة، بعد أن تهيأت أسباب هذه السياسة الجديدة ووسائلها.

ولهذا بدأ سراياه ومناوشاته الأولى، التي كان يرسل بعضها، ويذهب مع البعض الآخر، ليتحدى قريشاً، ويُفهِمها قوّته. وكانت آخر هذه السرايا سرية عبد الله ابن جحش التي كانت مقدمة لغزوة بدر. وحديث هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث في رجب من السنة الثانية للهجرة، عبد الله بن جحش ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة- مكان بين مكة والطائف- فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبار هم» وأعلم أصحابه بالأمر، وبأنه لا يستكره أحداً منهم، فساروا معه حتى نزلوا نخلة، ولم يتخلف منهم أحد سوى سعد بن أبي وقاص الزهري، وعتبة بن غزوان؛ فإنهما قد ضل لهما بعير فذهبا يطلبانه، فأسرتهما قريش، وأقام عبد الله بن جحش في نخلة يترصد قريشاً وأثناء مقامه مرت بهم عير لقريش، تحمل تجارة، وكان ذلك في آخر رجب وهو من الأشهر الحرم، فتشاور عبد الله وأصحابه ماذا يصنع بهم، ولم يؤمروا من قبل النبي بشيء، وقال بعضهم لبعض (والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فَلَيَمْتَنِعَنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهم في الشهر الحرام) وترددوا في قتالهم ولكنهم جزموا أخيراً، فرمى أحد المسلمين رئيس القافلة عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسر المسلمون رجلين من قريش، وأخذوا العير

ورجعوا حتى قدموا المدينة، فلما رآهم النبي قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

هذه خلاصة سرية عبد الله الذي أرسله الرسول ﷺ ليرصد أخبار قريش، ولكنه قاتلها، وقتل منها، وأسر من رجالها، وأخذ أموالها وفعل ذلك بالشهر الحرام. فماذا يكون موقف الإسلام من عمله هذا؟ فكَّر رسول الله ﷺ في ذلك وتوقف عن أخذ الأسيرين والمال، منتظراً حكم الله في ذلك، منتظراً آيات الله تنزل في هذا الأمر. وانتهزت قريش الفرصة واتخذت هذا العمل وسيلة للدعاية ضد محمد عليه السلام بين العرب، ونادت في كل مكان، أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وكانت بينهم وبين المسلمين في مكة مجادلات حول ذلك، يهاجمون المسلمين في هذا العمل، ويهاجمون نبيهم وأصحابه، فرد مسلمو مكة بأن إخوانهم المسلمين إنما فعلوا ذلك في شعبان وليس في رجب، ولكن هذا الجواب لم يكن كافياً ليقف في وجه الدعاية، ودخلت اليهود في هذه الدعاية، وصارت تشنع على ما فعله عبد الله بن جحش، واشتد الحال على المسلمين من هذه الدعاية ضدهم، والرسول عليه السلام ساكت ينتظر الوحي وينتظر حكم الله في هذا العمل، وإذ ذاك نزل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ ولما نزلت هذه الآية، سُرِّيَ عن المسلمين، وأخذ النبي العير والأسيرين. وكان في هذه الآيات رد مفحم على دعاية قريش؛ فالقرآن الكريم يجيب قريشاً عن تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه إثم كبير، ولكن الصد عن المسجد

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، والقتل فيه. وما فعلته قريش وتفعله من فتنة المسلمين عن دينهم، بالوعد والوعيد، والإغراء والتعذيب، أكبر من القتل والقتال في الشهر الحرام، وفي غير الشهر الحرام وأن قريشاً هذه التي تحاول الإرجاف والدعاية ضد المسلمين، لقتالهم في الشهر الحرام، لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. وإذن فقتال المسلمين لقريش في الشهر الحرام ليس فيه شيء ضدهم؛ لأن قريشاً التي ترتكب هذه الكبائر من الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، والصد عن سبيل الله، والكفر بالله، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، وفتنة المسلمين عن دينهم، أن قريشاً هذه، جدير أن تُقاتل في الشهر الحرام، وفي غير الشهر الحرام. وإذن فقتال عبد الله بن جحش في الشهر الحرام ليس فيه ما يضيره، ولا ما يضير المسلمين.

وبهذا كانت سرية عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، وسياسة الدعوة إلى الإسلام، فيها رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي رئيس القافلة فقتله، فكان أول دم أراقه المسلمون في سبيل الله.

وقد ظل القتال في الأشهر الحرم ممنوعاً إلى أن نزلت آيات القتال التي تأمر بالقتال في كل زمان ومكان، فنسخ منع القتال في الأشهر الحرم بعموم آيات القتال.

الحياة في المدينة:

للإسلام طريقة معينة في الحياة تنتج عن مجموع مفاهيمه عن الحياة، وهذه هي الحضارة الإسلامية وهي غير حضارات الدنيا، وتتناقض مع غيرها من الحضارات، وتجمل طريقة الإسلام في الحياة بثلاثة أمور: أحدها: أن الأساس الذي بنيت عليه هو العقيدة الإسلامية، وثانيها: أن مقياس الأعمال في الحياة هو أوامر الله ونواهيه، وبعبارة أخرى، إن تصوير الحياة في نظرها هو الحلال والحرام، وثالثها: أن معنى

السعادة في نظرها هو نوال رضوان الله. وبعبارة أخرى هو الطمأنينة الدائمة، وهي لا تحصل إلا بنوال رضوان الله. هذه هي طريقة الإسلام في الحياة، وهذه هي الحياة التي يأنس فيها المسلمون ويسعون إليها ويسيرون في منهجها. ولأجل أن يتمكنوا من هذه الحياة لا بد أن تكون لهم دولة تطبق الإسلام وتنفذ أحكامه، والمسلمون حين انتقلوا للمدينة بدأوا يعيشون على طراز معين من الحياة، أساسها العقيدة الإسلامية. وبدأت الآيات الكريمة تنزل مبينة حكم الله في المعاملات والعقوبات، وتنزل فيما لم ينزل بعد من العبادات. فقد فرضت الزكاة، وفرض الصيام في السنة الثانية من الهجرة (وشرع الأذان) وصار أهل المدينة جميعاً يسمعون كل يوم خمس مرات دعوة الناس للصلاة، مرتلة ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل، يوجهها بلال بن رباح مع كل ريح إلى كل النواحي، فيلبي المسلمون النداء للصلاة. وما إن مكث الرسول في المدينة سبعة عشر شهراً حتى تحولت القبلة إلى الكعبة. وهكذا صارت تنزل آيات الأحكام تترى في العبادات والمطعومات، والأخلاق والمعاملات، والعقوبات، فنزلت آيات تحريم الخمر، ولحم الخنزير، كما نزلت آيات الحدود، والجنايات، والبيع، وتحريم الربا، وغير ذلك، وتتابع نزول آيات الأحكام تعالج مشاكل الحياة، والرسول ﷺ يفصلها ويبينها، ويقضي مصالح الناس، ويفصل خصوماتهم، ويدبر شؤونهم، ويدير أمورهم، ويعالج مشاكلهم، بأقواله في التحدث إليهم، وبأفعاله التي يقوم بها، وبسكوته عما يقع أمامه من أعمال، لأن قوله وفعله وسكوته شريعة، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وسارت الحياة في المدينة في طريقتها وحسب وجهة نظر معينة، هي وجهة نظر الإسلام، ووجد المجتمع الإسلامي المتميز في كل شيء الذي تسوده الأفكار الإسلامية، والمشاعر الإسلامية، وتطبق فيه أنظمة الإسلام على الناس في معاملاتهم وسائر علاقاتهم، وقد طاب الرسول نفساً بما وصلت إليه

الدعوة، وسكن المسلمون إلى دينهم، وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين، ويقيمونها فرادى، لا يخافون أذى، ولا يخشون فتنة، وطفقوا يعالجون أمورهم بأحكام الله، ويرجعون فيما لم يعرفوه إلى رسول الله. ولا يقومون بعمل صغير أو كبير إلا حسب أوامر الله، وينتهون عن كل ما نهى الله، وشعروا بالسعادة، فصارت نفوسهم مطمئنة. وكان الكثير منهم يلازمون رسول الله ليتعلموا أحكام الله، ويحفظوا آيات الله ويتلقون عنه القرآن، ويثقفون على يديه، وأخذ الإسلام يزداد انتشاراً، والمسلمون يزدادون كل يوم قوة ومنعة.

جدال اليهود والنصارى:

أصبح غير المسلمين يشعرون بقوة المسلمين، ويشعرون بأن هذه القوة هي قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الإسلام، وذاقت الأذى بسببه ألواناً، وكانت لا تنتظر عند الصباح مساء ولا عند المساء صباحاً، وها هي ذي اليوم تستمتع برؤية الدين يعلن أمره، وتنفذ أحكامه، وتعلو كلمته، وتستمتع بالسعادة. غير أن أعداء الإسلام ساءهم ذلك، وظهرت آثار هذا على جيرانهم اليهود، فقد بدأت مخاوفهم وأخذوا يفكرون من جديد في موقفهم من محمد وأصحابه بعد أن رأوا ازدياد المسلمين في المدينة شوكة وقوة، وازدياد إقبال الناس على الإسلام، وزادهم غيظاً إقبال بعض اليهود على الإسلام، وخافوا أن يمتد الإسلام إلى صفوفهم، وأن يفشو في جماهيرهم. ولذلك بدأوا يهاجمون الإسلام، عقائده وأحكامه، وبدأت حرب جدل بين المسلمين واليهود أشد لدداً وأكبر مكراً من حرب الجدل التي كانت بينهم وبين قريش بمكة، وفي هذه الحرب الفكرية كانت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين سلاحاً بيد اليهود يهاجمون به محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار، فقد دسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه، ومن

استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثم ما يلبث بعد حين أن يبدي من الشكوك والريب، ويلقي على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به، وبرسالة الحق التي يدعو إليها. وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً أيضاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين. وبلغ الجدال بين اليهود المسلمين حداً كان يصل أحياناً إلى الاعتداء بالأيدي مع ما كان بينهم من عهد، ويكفي لتصوير تعنت اليهود وشدة خصومتهم في الجدل أنهم أخرجوا أبا بكر عن حلمه وهدوئه، مع ما كان عليه من دماثة الخلق، وطول الأناة، ولين الطباع. فقد رُوِيَ أنه تحدث إلى يهودي يدعى فنحاص يدعوه إلى الإسلام فرد فنحاص بقوله: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وأنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغني، ولو كان غنياً عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا» وفنحاص يشير إلى قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ لكن أبا بكر لم يطق هذا الجواب صبراً فغضب وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله. وهكذا اشتد الجدل بين المسلمين واليهود وأخذ أدواراً متعددة. وفي هذا الوقت وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكباً، ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى المدينة حين علم بما بين المسلمين واليهود من خلاف طمعاً في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ العداوة، وبذلك تنتصر النصرانية ويزول الدين القديم والدين الجديد اللذان يزاحمان النصرانية على زعمهم، وقد اتصل هذا الوفد بالنبي ﷺ، وباليهود، وكان النبي ينظر إليهم وإلى اليهود بأنهم أهل كتاب فيدعوهم جميعاً للإسلام، ويتلو عليهم قوله تعالى ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا

﴿ ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. ويسأله اليهود والنصارى عمن يؤمن بهم من الرسل، فيتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فلا يجدون ما يقولونه له وتدفع الحجة نفوسهم ويظهر الحق، لكنهم لم يؤمنوا حرصاً على مكانتهم، حتى إن بعضهم صرح بذلك. فقد رُوِيَ أن أبا حارثة وكان من وفد نجران، وكان أكثر نصارى نجران علماً ومعرفة قد أدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد، فلما سأله رفيقه فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى. مما يدل على أن عدم إيمانهم كان مكابرة وتعنتاً. ثم إن الرسول ﷺ دعا النصارى إلى المباهلة وتلا عليهم قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فتشاوروا ثم أعلنوا أنهم رأوا ألا يباهلوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم، ولكنهم طلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقضي بينهم بالإسلام فيما اختلفوا فيه.

وهكذا قضت قوة الدعوة الإسلامية، وقوة الفكر الإسلامي، والحجة البالغة التي ظهرت على جميع المجادلات الكلامية التي أثارها اليهود والمنافقون والنصارى، واختفت تلك الأفكار غير الإسلامية جميعها، ولم يبق إلا الإسلام يناقش في فهم أحكامه، وفي الدعوة إليه، فتركز الإسلام وَنُشِرَ لواؤه من ناحية الفكر ومن ناحية الحكم. إلا أن نفوس المنافقين واليهود ظلت منطوية على كراهة المسلمين، وظلت

تحمل الحقد عليهم والبغض لهم، غير أن تركز سلطان الإسلام في المدينة، وتركز المجتمع فيها طغى على كل شيء. وكان للسرايا المتلاحقة وللقوة التي ظهرت أثر في إسكات هذه النفوس المريضة، فعلت كلمة الله واضطر خصوم الإسلام في المدينة وما حولها لأن يلزموا جانب الصمت ويخضعوا لسطان المسلمين.

غزوة بدر:

خرج النبي عليه الصلاة والسلام في أصحابه من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس، واستعمل على المدينة أبا لبابة، وكانوا ثلاثمائة وخمسة رجال معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً. وانطلقوا يريدون قافلة أبي سفيان، وظلوا سائرين يتنطسون أخبار القافلة حتى أتوا وادياً يقال له (دفران) نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. وحينئذ تغير وجه الأمر، وأصبح الموضوع لقاء قريش أو عدم لقائهم، وليس موضوع قافلة أبي سفيان. فاستشار الرسول المسلمين وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون». وسكت المسلمون. فقال الرسول: أشيروا علي أيها الناس، وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، ولم يبايعوه على قتال خارج مدينتهم. فلما أحس الأنصار أنه يريدهم، وكان سعد بن معاذ صاحب رايتهم، التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال سعد: «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق،

وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله» ولم يكد سعد يتم كلامه، حتى أشرق وجهه ﷺ بالمسرة، وقال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم، وارتحلوا جميعاً، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر عرفوا أن عير قريش قريبة منهم، فبعث الرسول علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من الصحابة إلى ماء بدر يتلمسون له الخبر، وعادوا ومعهم غلامان عرف منهما ما يدل على أن عدد قريش بين التسعمائة والألف، وأن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه، فعرف أنه أمام قوم يزيدون عليه في العدد ثلاثة أضعاف، وأنه ينتظر معركة حامية الوطيس. فأخبر المسلمين بأن مكة ألقت إليهم بأفلاذ أكبادها، ولا بد أن يوطدوا أنفسهم على الشدة. وأجمع المسلمون أن يثبتوا للعدو، وأقاموا بماء بدر وبنوا حوضاً وملأوه ماء، عطلوا ما وراءه من الآبار ليشربوا هم ولا يشرب عدوهم، وبنوا للرسول عريشاً يقيم فيه. وأما قريش فنزلت منازل القتال في مواجهة المسلمين. ثم بدأت مناوشات القتال، فقد اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوه، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دماً، ثم أتبعه حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض، فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، فلم يمهل حمزة شيبة ولا أمهل علي الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عتبة، ثم تزاحف الناس والتقى الجمعان صبيحة يوم الجمعة لسبعة عشر خلت من شهر رمضان من السنة الثانية

للهجرة، وقام الرسول على رأس المسلمين يعدل صفوفهم ويحرضهم على القتال، فازداد المسلمون قوة بتحريض الرسول إياهم ووقوفه بينهم، فاندفع المسلمون وثار النقع، وامتلأ الجو وحمي وطيس المعركة، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون: أحد، أحد، ووقف الرسول وسط المعمعة وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها قريشاً وقال شاهت الوجوه، وقال لأصحابه شدوا، وشد المسلمون إلى أن انجلت المعركة عن نصرة المسلمين، وفرت فريش وقتل منها من قتل وأسر من أسر، وكان نصراً موزراً للمسلمين وعادوا إلى المدينة وقد ازدادت قوتهم.

إجلاء بني قينقاع:

كان اليهود قد بدأ تذمرهم قبل بدر، فلما انتصر المسلمون في بدر ازداد تذمرهم وازداد حقدهم، وصاروا يأتمرون بالمسلمين ويتغامزون عليهم، ونقضوا عهدهم مع المسلمين حينئذ، فاشتد عليهم المسلمون وصاروا يضربونهم كلما بدرت منهم بادرة. فتخوف اليهود من بطش المسلمين، ولكنهم بدل أن يرتدعوا ازدادوا أذى، ومن أذاهم أنه قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية، وجلست إلى صائغ منهم بها، فجاء يهودي من خلفها في سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها. فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فهاجموهم ووقع النزاع بين المسلمين واليهود. وقد طلب الرسول من اليهود أن يكفوا الأذى فاظهروا التنمر. فخرج الرسول ﷺ مع المسلمين وحاصروا بني قينقاع محاصرة شديدة، وقرر الرسول بعد مشورة كبار المسلمين قتلهم جميعاً، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، وكان

لليهود كما كان للمسلمين حليفاً. فقال يا محمد أحسن في موالي، فأبطأ عليه النبي، فكرر الطلب فأعرض النبي عنه فألح إلحاحاً شديداً، فرأى النبي أن يسدي إليه هذه اليد حتى يصبح مديناً لإحسانه ورحمته، فأجاب طلبه وقرر عدم قتل بني قينقاع، على أن يجلوا عن المدينة جزاء لهم على صنيعهم، فأذعنوا وجلوا عن المدينة صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات بالشام.

القضاء على الاضطرابات الداخلية:

دخل المسلمون في الحرب مع قريش، واشتبكوا معهم في أول معركة وهي معركة بدر، فانتصر بها المسلمون انتصاراً مؤزراً، وكان من أثر هذا النصر زلزلة قريش زلزلة كبرى أطارت صوابها، وتطهير المدينة من وساوس اليهود وفتنتها، وإجلاء بعضهم ومهادنة البعض الآخر، وازدياد قوة المسلمين ومنعتهم. إلا أن قريشاً لم يهدأ لها بال، فمنذ بدر وهي تعد العدة لغزو المسلمين والانتقام منهم، وليكون لها يوم بيوم بدر، فكانت موقعة أحد، وانتصرت فيها قريش بسبب مخالفة الرماة لأوامر القيادة. وانكسر فيها المسلمون. وعادت قريش ممتلئة النفس غبطة وسروراً بما زال عنها من عار بدر، ورجع المسلمون إلى المدينة مهزومين، وكانت تظهر عليهم آثار الهزيمة، رغم مطاردتهم للعدو بعد المعركة حتى حمراء الأسد. وكان من جراء انكسار المسلمين، أن تنكر لهم الكثير ممن في المدينة، كما تنكرت لهم بعض قبائل العرب. فإن اليهود والمنافقين في المدينة كانوا بعد بدر وشدة المسلمين معهم قد خضعوا لسلطان المسلمين ودانوا لهم، وكذلك كانت قبائل العرب خارج المدينة، قد داخل نفوسها الرعب من قوة المسلمين، ولكن كل ذلك تغير بعد أحد، فالعرب الذين يقطنون خارج المدينة صاروا يفكرون في معارضة محمد ومناوأته، واليهود في المدينة والمنافقون أيضاً صاروا يتحرشون في المسلمين ويناوؤونهم، لذلك كله حرص رسول الله ﷺ

على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار القبائل العربية خارجها، على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وهيبتهم في النفوس، وأخذ يعمل جاهداً لإزالة آثار هذه الهزيمة، بالبطش في كل من تحدثه نفسه باستصغار المسلمين، أو النيل منهم.

فقد بلغه بعد شهر من أحد، أن بني أسد يريدون مهاجمة المدينة، ليغنموا من غنم المسلمين التي ترعى حول المدينة، فأراد أن يهاجمهم في عقر دارهم قبل أن يهاجموه، ولذلك دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد، وعقد له لواء سرية، تبلغ عدتها مائة وخمسين، فيهم من خيرة أبطال المسلمين عدد كبير، وكان من بينهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير، وغيرهم وأمرهم بأن يسيروا ليلاً، وأن يستخفوا نهاراً، وأن يسلكوا الطريق غير المطروق، حتى لا يطلع أحد على خبرهم، ليفاجئوا العدو على غرة منه، وسار أبو سلمة حتى جاء بني أسد، وأحاط بهم في عماية الصبح، وحمل عليهم وحض رجاله على الجهاد فأوقعوا بهم حتى هزموهم وانتصروا عليهم وأخذوا أموالهم غنائم ورجعوا إلى المدينة ظافرين، وقد أعادوا إلى النفوس هيبة المسلمين وسطوتهم.

ثم بلغ الرسول ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي مقيم بعرنة أو نخلة يجمع الناس ليغزو المدينة، فدعا إليه عبد الله بن أنيس وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر، فسار عبد الله والتقى بخالد، فسأله من الرجل؟ فقال عبد الله: أنا رجل من العرب سمع بجمعك لمحمد فجاءك لذلك، فلم يخف خالد أنه يجمع الجموع ليغزو المدينة، فما كان من عبد الله إلا أن اغتنم فرصة عزلته عن الناس، فاستدرجه في السير حتى إذا مكنته الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، وعاد إلى المدينة وأخبر الرسول الخبر. وبقتله هدأت بنو لحيان من هذيل، وأمن الرسول شر غزوه وجمعه العرب لقتاله. وهكذا عالج القبائل العربية خارج المدينة. إلا أن هذه المعالجة وإن

كانت أفادت في منع العرب من مهاجمة المدينة، إلا أنها لم تقض على استهانة العرب بسلطان المسلمين بعد أحد، فقد وفد على الرسول رهط من قبيلة تجاور هذيلا، وقالوا له: إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن، فبعث معهم ستة من كبار الصحابة، وساروا معهم حتى بلغوا ماء لهذيل بناحية تدعى الرجيع، فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً، وفوجئ المسلمون الستة بالرجال في أيديهم السيوف يغشونهم، فأخذ المسلمون سيوفهم، فقاتلوا حتى قتل ثلاثة منهم واستسلم ثلاثة فأخذتهم هذيل أسرى، وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها، وبينما هم في الطريق اغتنم أحد الثلاثة وهو عبد الله بن طارق فرصة غفلة القوم، وانتزع يده من غل الأسر وأخذ سيفه ليقاتل، ولكنهم لم يمكنوه بل قتلوه، وأخذوا الأسيرين وباعوهما من أهل مكة. أما أحدهما وهو زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، فلما قُدِّمَ زيد لِيُقْتَل سأله أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تُضْرَب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال زيد والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فعجب أبو سفيان وقال ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتل زيد. وأما الثاني وهو خبيب فقد حبس حتى خرجوا به ليصلبوه، فقال لهم إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، فسمحوا له حتى صلى ركعتين وأتمهما وأحسنهما، ثم أقبل عليهم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، فرفعوه إلى خشبة. فلما أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مغضبة وصاح «اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً» فارتجفوا من صيحته ثم قتلوه. فحزن الرسولﷺ على هؤلاء الستة، وحزن المسلمون عليهم، وزاد في حزنهم استهانة

هذيل بالمسلمين واستخفافهم بشأنهم، ففكر ﷺ بهذا الأمر كثيراً، وأثناء تفكيره بذلك قدم عليه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، فعرض الرسول ﷺ الإسلام فلم يقبل ولكنه لم يظهر عداوة الإسلام وقال للرسول: لو بعثت إلى أهل نجد من يدعوهم للإسلام لأجابوا دعوتك، ولكن الرسول خاف على أصحابه من أهل نجد أن يغدروا بهم كما غدرت هذيل، فلم يجب طلب أبي براء. لكن أبا براء أقنعه حين أجار الذين يذهبون للدعوة، وقال للرسول: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا إلى أمرك، وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة، لا يخاف على من يجيره أن يغدر به أحد. فبعث حينئذ رسول الله ﷺ المنذر بن عمر في أربعين رجلاً من خيار المسلمين، وساروا حتى نزلوا بئر معونة، ومن هناك بعثوا إلى عامر بن الطفيل بكتاب مع رسول منهم، فلم ينظر عامر في الكتاب، بل قتل الرسول واستصرخ بني عامر كي يقتلوا المسلمين، فأبوا عليه ذلك، ووفوا بذمتهم، وبجوار أبي براء، ولكن عامراً استصرخ قبائل أخرى، وأحاط بالمسلمين وهم في رحالهم، فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، ولم ينج منهم سوى رجلين اثنين، فحزن رسول الله والمسلمون على هؤلاء الشهداء، وتأثروا لذلك أشد التأثر. ففكر رسول الله ﷺ بذلك وبالطريقة التي يعالج بها هؤلاء العرب لإعادة هيبة المسلمين في نفوسهم، ولكنه وقد رأى أن هذه الأعمال أثرت على داخل المدينة، رأى أن يعالج الأحوال الداخلية أولاً، ثم بعد أن يطمئن إلى معالجتها يعالج شؤون العرب والأمور الخارجية. أما ما حصل في الداخل فإن المنافقين واليهود قد أضعفت أحد، وحوادث الرجيع، وبير معونة، هيبة المسلمين في نفوسهم، وصاروا يتربصون بالرسول الدوائر، وكشف الرسول نياتهم باستدراجهم حتى ظهرت مؤامرتهم ضده، فبعث محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إنّ رسول الله أرسلني إليكم أن

اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، فقد أَجَّلْتُكُم عشراً فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه» وكاد بنو النضير يخرجون لولا أن حرضهم عبد الله بن أبي، على البقاء، وشجعهم حيي بن أخطب على أن يبقوا في حصونهم. وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، فقاتلهم الرسول حتى ضيق عليهم، فسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا. فصالحهم الرسول على أن يخرجوا منها، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من طعام وشراب، ليس لهم غيره فخرجوا وتركوا وراءهم جميع ما يملكون من أراضٍ ونخيل وغلال وسلاح غنائم للمسلمين، وزعها رسول الله على المهاجرين، فقط ولم يعط الأنصار شيئاً سوى رجلين اثنين هما أبو دجانة وسهل بن حنيف؛ لأنهما كانا فقيرين كالمهاجرين.

وبإجلاء بني النضير وتأديبهم حسم الرسول أمر السياسة الداخلية، وعادت هيبة المسلمين. فالتفت إلى السياسة الخارجية، فكان أن تحدى قريشاً في غزوة بدر الآخرة، فلم تجرؤ على مقابلته، وذلك حين استدار العام منذ أحد، ذكر الرسول قولة أبي سفيان «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل» وذكر ضرورة مقابلة أبي سفيان فجهز المسلمين، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن سلول، وسار بالمسلمين حتى نزلوا بدراً ينتظرون قريشاً، مستعدين لقتالها، وخرجت قريش مع أبي سفيان، من مكة في أكثر من ألفي رجل، ولكنه ما لبث أن رجع ورجع الناس معه، وأقام الرسول في بدر ثمانية أيام متتابعة، ينتظر قريشاً، فلم تأت وبلغه نبأ رجوعها، فعاد بالمسلمين بعد أن ربحوا في تجارتهم أثناء إقامتهم في بدر، وعادوا منصورين وإن لم يقاتلوا، ثم حمل الرسول ﷺ على غطفان بنجد، ففروا من وجهه وتركوا أموالهم ونساءهم فغنمها المسلمون وعادوا للمدينة، ثم خرج إلى دومة الجندل على الحدود ما

بين الحجاز والشام، ليؤدب القبائل التي كانت تغير على القوافل، ولكنها لم تقابله وأخذها الفزع وولت من وجهه، وتركت أموالها فأخذها المسلمون وعادوا ظافرين.

وبهذه الغزوات الخارجية، والتأديبات الداخلية في المدينة، استطاع الرسول عليه السلام أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية إلى نفوس العرب واليهود، وأن يمحو آثار هزيمة أحد محواً تاماً.

غزوة الأحزاب:

كان للغزاوت والتأديبات التي قام بها رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد أثر كبير في نشر هيبة المسلمين، وفي تركيز الدولة الإسلامية، فقد اتسع بها نفوذ المسلمين، وعظم سلطانهم، وخافتهم شبه الجزيرة، وصار العرب حين يسمعون باسم الرسول يغزوهم يأخذهم الفزع ويولّون مدبرين، كما حصل في غطفان، ودومة الجندل، وصارت قريش تجبن عن لقاء المسلمين كما حصل في بدر الآخرة، وهذا كله جعل المسلمين يركنون إلى شيء من الطمأنينة إلى الحياة في المدينة، ويأخذون في تنظيم عيشهم على ضوء الوضع الجديد الذي صار للمهاجرين بعد غنائم بني النضير، وتوزيع الأراضي والنخيل والمساكن والأثاث عليهم، غير أن هذا لم يجعلهم يركنون إلى الحياة إركاناً يصرفهم عن مواصلة الجهاد، لأن الجهاد فرض إلى قيام الساعة، وإنما صاروا في حال من العيش أحسن من قبل، وفي حالة من الاستقرار أكثر أماناً من قبل، وكان رسول الله ﷺ على طمأنينته حذراً دائماً غدرة العدو، باثاً دائماً عيونه وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة، ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ما يمهد له فرصة الأهبة لملاقاة العدو وهو على علم بخططه وأساليبه، وعلى استعداد لمواجهته، لا سيما وأعداء المسلمين أصبحوا كثيرين في الجزيرة، بعد أن أصبح له سلطان مرهوب الجانب من جميع العرب، وبعد أن أجلى يهود بني قينقاع ويهود بني النضير عن المدينة، وضرب

قبائل العرب كغطفان وهذيل وغيرها ضربات قاصمة، ولذلك ظل الرسول حذراً بتتبع أخبار العرب إلى أن بلغه تجمع قريش وبعض القبائل لغزو المدينة فأخذ يستعد للقائهم. ذلك أن بني النضير بعد أن أجلاهم الرسول عن المدينة، اختمرت في نفوسهم فكرة تأليب العرب على الرسول، ليأخذوا بالثأر منه، وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر من يهود بني النضير، ومن بينهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ومعهم من بني وائل هوذة بن قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش مكة، فسأل أهلها حيياً عن قومه فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه، وسألوه عن قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم. وترددت قريش أتقدم أم تحجم فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعو إلى الله. أليس من الممكن أن يكون على حق؟ ولذلك قالت قريش لليهود: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالت اليهود بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وكان اليهود أهل توحيد وكانوا يعلمون أن دين محمد هو الحق، ولكن حرصهم على تأليب العرب جعلهم يتورطون في هذا الخطأ الفاحش، وهذه السبة الأبدية، أن يصرحوا بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد، ولكنهم فعلوها ويفعلون أمثالها. وبعد أن اطمأنوا إلى اقتناع قريش برأيهم خرجوا إلى غطفان من قيس غيلان ومن بني مرة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بني سعد ومن أسد ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم، ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد، ويحمدون لهم وثنيتهم، ويعدونهم النصر. وهكذا استطاعوا أن يؤلبوا العرب على حرب الرسول. فاجتمع عدد من قبائل العرب وخرجوا مع قريش لغزو المدينة.

خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان في أربعة آلاف مجند، وثلاثمائة جواد، وخمسمائة وألف ممتط بعيره. وخرجت بنو فزارة، وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة في رجال كثيرين، وألف بعير. وخرجت أشجع في أربعمائة محارب، وعلى رأسها مسعر بن رخيلة، وخرجت مُرَّة في أربعمائة محارب، يتزعمها الحارث بن عوف، وجاءت سليم وأصحاب بئر معونة في سبعمائة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنو سعد وبنو أسد فصاروا في عشرة آلاف أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة. ولما اتصل نبأ هذه الجموع بالرسول قرر التحصن بالمدينة، وأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة والتحصن داخلها، فحفر الخندق، وعمل فيه النبي بيديه، فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد، فتم حفر الخندق في ستة أيام، وحصنت جدران المنازل التي تواجه العدو، وأخليت المساكن الذي ظلت وراء الخندق، وجيء بالنساء والأطفال إلى المنازل التي حصنت، وخرج الرسول في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعل ظهره إلى هضبة سلع، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه، وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء.

وأقبلت قريش وأحزابها، وهي ترجو أن تلقى محمداً بأحد فلم تجد فجاوزته إلى المدينة ففاجأها الخندق، فدهشت لأنها لا تعرف هذا النوع من وسائل الدفاع، وعسكرت قريش والأحزاب خارج المدينة وراء الخندق. وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام الخندق طويلاً دون أن يستطيعوا اقتحام الخندق، وكان الوقت شتاء، والرياح عاصفة، والبرد قارساً، فأخذ يدب إليهم الوهن وأخذوا يفضلون أن يعودوا أدراجهم. وكان حيي بن أخطب قد لاحظ ذلك عليهم، فتحدث إليهم أنه يقنع بني قريظة بنقض عهد موادعتهم محمداً والمسلمين، وبالانضمام إليهم، وأن

قريظة متى فعلت ذلك انقطع المدد عن المسلمين، وفتحت الطريق لدخول المدينة، فسرت قريش وغطفان بذلك، وسارع حيي إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة، فلما أحس به كعب أغلق دونه باب حصنه، غير أن حيياً ما زال به حتى فتح له باب الحصن فقال له «ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. وتردد كعب، وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده، وخشي مغبة ما يدعوه إليه. لكن حيياً ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد، ويصف له قوة الأحزاب، حتى لان كعب وقبل ما طلب حيي، ونقض عهده مع محمد والمسلمين، وانضمت قريظة إلى الأحزاب دون أن يخبر الرسول بذلك. فاتصل هذا النبأ بالرسول ﷺ وبأصحابه فاهتزوا له، وخافوا مغبته، فبعث الرسول سعد ابن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير ليقفوا على جلية الأمر، وأوصاهم إذا كانت قريظة قد نقضت العهد أن يكتموا ذلك، حتى لا يفت في أعضاد الناس، وأن يكتفوا بالاشارة إليه والتعريض به. فلما أتى هؤلاء الرسل أَلْفَوْا قريظة على أخبث ما بلغهم عنهم، فلما حاولوا ردهم إلى عهدهم طلب كعب إليهم أن يردوا إخوانهم يهود بني النضير إلى ديارهم، وأراد سعد بن معاذ وكان حليف قريظة أن يقنعها فصاروا يوقعون في محمد ﷺ، ويقول كعب: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد. فرجع الرسل وأخبروا بما رأوا فاشتد الخوف. وأخذت الأحزاب تعد نفسها للقتال. أما قريظة فإنها استمهلت الأحزاب عشرة أيام تعد فيها عدتها، على أن تقاتل الأحزاب المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال، وذلك ما فعلوا، فقد أَلَّفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي فأتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب،

ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق، وبلغ الفزع بالمسلمين مبلغاً عظيماً، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، واشتد ساعد الأحزاب، وظهرت قوتهم، وارتفعت نفوسهم، فهاجموا الخندق واقتحموه، فقد اندفع بعض فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، ورأوا مكاناً ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته، وجالت بين سَلْعْ والخندق. فخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحمت منها خيلهم، وتقدم عمرو بن عبد ود ينادي من يبارز. ولما دعاه علي بن أبي طالب إلى النزال قال في صلف لم يا ابن اخي. فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علي: لكني أحب والله أن أقتلك، فتنازلا فقتله علي وفرت خيل الأحزاب منهزمة حتى اقتحمت الخندق من جديد مولية الأدبار لا تلوي على شيء. لكن ذلك لم يوهن من نفوس الأحزاب، بل أعظمت نيرانها مبالغة في تخويف المسلمين، وبدأ المتحمسون من قريظة ينزلون من حصونهم إلى منازل المدينة القريبة منهم، يريدون إرهاب أهلها. فاشتد الكرب وعظم الهول وعم الفزع، وكان الرسول ﷺ على أعظم الثقة بنصر الله له، فجاء نعيم بن مسعود وكان قد أسلم، وعرض على رسول الله أن يقوم بما يثبط الكفار، وذهب بأمر الرسول إلى بني قريظة وكانت لا تعرف أنه أسلم، وكان لها نديماً في الجاهلية، فذكرهم بما بينه وبينهم من مودة، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد، وقريش وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلاً فترتحلان فتخليان ما بينهم وبين محمد فينكل بهم، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رهناً يكونون بأيديهم، حتى لا تتنحى قريش وغطفان عنهم، واقتنعت قريظة بما قال ثم إنه ذهب إلى قريش فأسَرَّ لهم أن قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد، وأنهم عاملون لاسترضائه وكسب مودته، بأن يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم، ولذلك نصح

لهم إن بعثت إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً، وصنع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش، ودبت الشبهة في نفوس العرب من اليهود، فأرسل أبو سفيان إلى كعب يخبره: إن طالت إقامتنا وحصارنا لهذا الرجل، وقد رأيت أن تعمدوا إليه في الغداة ونحن من ورائكم، فأجاب كعب أن غداً السبت وأنّا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت، فغضب أبو سفيان وَصَدَّقَ حديث نعيم، وأعاد الرسول إلى قريظة يقول لهم اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت فإنه لا بد من قتال محمد غداً، وإن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأن من حلفكم، ولنبدأن بكم قبل محمد، فلما سمعت قريظة كلام أبي سفيان كررت أنها لا تتعدى السبت، ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم. فلما سمع ذلك أبو سفيان لم يبق لديه في كلام نعيم ريبة. وبات يفكر ماذا يصنع، وتحدث إلى غطفان فإذا هي تتردد في الإقدام على قتال محمد. فلما كان الليل أرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً ورعداً قاصفاً، ومطراً غزيراً، فاقتلعت الخيام، وكفأت القدور، وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخيل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم ويوقعوا فيهم، فقام طليحة فنادى أن محمداً قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة. وقال أبو سفيان يا معشر قريش ارتحلوا فإني مرتحل، فاستخف القوم ما استطاعوا حمله وفروا، وتبعتهم غطفان والأحزاب، وأصبح الصبح ولم يبق منهم أحد، فلما رأى الرسول ذلك انصرف راجعاً إلى منازل المدينة والمسلمون معه وكفى الله المؤمنين القتال.

غير أن الرسول وقد استراح من قريش وكفاه الله قتالها، رأى أنه لا بد أن ينهي أمر بني قريظة، وقد نقضوا عهدهم وتآمروا على القضاء على المسلمين، لذلك أمر ﷺ مؤذناً فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، وقدم علياً برايته إليها، وخف المسلمون للقتال فرحين مسرورين وراء علي

ﷺ حتى أتوا بني قريظة وحاصروهم حصاراً شديداً ظل مدة خمس وعشرين ليلة، فبعثوا إلى الرسول وفاوضوه ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فنفذ الحكم وقضي على هذه القبيلة وطهرت المدينة منها.

وبهزيمة الأحزاب انتهت آخر محاولة جدية قامت بها قريش لمواجهة الرسول وحربه، وبالقضاء على بني قريظة قضي على القبائل اليهودية الثلاث التي كانت حول المدينة وعاهدته ونقضت عهودها؛ فاستتب الأمر بذلك للرسول وللمسلمين في المدينة وما حولها استتباباً جعل العرب تخافهم وترهب جانبهم.

معاهدة الحديبية:

بعد أن انقضت ست سنوات على هجرته ﷺ من مكة، وبعد أن اطمأن إلى جيشه، وإلى المجتمع الإسلامي. وبعد أن أصبحت دولة المسلمين مرهوبة الجانب عند جميع العرب، فكر في خطوة أخرى يخطوها في سبيل الدعوة وفي سبيل تقوية الدولة الإسلامية. وإضعاف أعدائه، وقد بلغه أن مواطأة كانت بين أهل خيبر ومكة على غزو المسلمين. فرسم خطة يصل بها إلى موادعة مع أهل مكة ينتج عنها أن يخلى بينه وبين العرب لتسهيل نشر الدعوة في الجزيرة، وأن يعزل بها خيبر عن قريش. ورأى أن هذه الخطة إنما هي زيارة بيت الله الحرام ملتزماً بها خطة السلم حتى يصل إلى مقصوده. ورأى أن عدم محاربة العرب في الأشهر الحرم تسهل له هذه الخطة، وكان يعلم أن قريشاً قد تفككت وحدتها، وصار يساورها الخوف من المسلمين. وأنها تحسب له ألف حساب، فأراد أن يذهب إلى البيت الحرام حاجاً. وأنه إذا منعته قريش، كان هذا المنع وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية في العرب ومن وسائل

الدعاية ضد قريش. ولهذا أذن الرسول بالحج في شهر ذي القعدة الحرام، وأرسل إلى القبائل العربية من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك معه في الخروج إلى بيت الله، آمنين غير مقاتلين، وكان يقصد من ذلك أن يعلم العرب أنه خرج حاجاً ولم يخرج غازياً، وأنه أشرك معه العرب من غير المسلمين وهم ليسوا على دينه؛ لأنه لا يريد قتالاً. وذلك ليكسب الرأي العام معه فيما لو منعته قريش من الحج. وقد قرر خطة السلم؛ ولذلك لم يأذن للمسلمين أن يحملوا سلاحاً إلا السيوف في أغمادها، وأعلمهم أنه خارج للحج لا للقتال. وغادر الرسول ﷺ المدينة ومعه ألف وأربعمائة رجل، وهو يتقدم الناس على ناقته القصواء، وقد ساق معه سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً، وإنما خرج زائراً لبيت الله الحرام، ولما جاوز المدينة وقطع مسافة ستة أميال أو سبعة أميال وصلوا إلى ذي الحليفة، ولبوا بالعمرة هناك. وساروا نحو مكة فبلغ خبرهم قريشاً بأنهم قدموا للحج لا للقتال، فخافت أن يكون ذلك حيلة احتالها محمد لدخول مكة على أهلها، وحسبت لهذا الأمر ألف حساب، وقررت أن تحول بين محمد ودخول مكة مهما كلفها ذلك تضحيات، فجهزت جيشاً للقاء المسلمين وصدهم عن مكة، إذ عقدوا لخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، على جيش كبير كان فيه من الفرسان فقط مائتا فارس، وخرج جيش المشركين من مكة، وتقدم نحو القادمين إلى الحج ليمنعهم، ووصل إلى ذي طوى وعسكر هناك. وقد بلغ محمداً ما فعلته قريش، وأنهم جهزوا له جيشاً لمنعه من الحج. ولما وصل ﷺ إلى قرية عسفان على بعد مرحلتين من مكة لقيه رجل من بني كعب فسأله النبي عن أخبار قريش فقال له: «قد سمعت قريش بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم

أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم- وهو مكان يبعد عن معسكر المسلمين لعسفان بثمانية أميال- فلما سمع الرسول ذلك قال: «يا ويح قريش، لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) يعني سيظل يجاهد حتى ينتصر أو يموت. وهنا وقف عليه الصلاة والسلام يفكر في الأمر ويعيد النظر في الخطة التي اختطها، لقد قرر خطة السلم ولم يُهَيّء للقتال، ولكن قريشاً أرسلت إليه جيشاً لتقاتله، وهو لا يريد قتالاً، ولكن أيرجع أم يغير خطة السلم إلى خطة القتال. إنه يعلم أن المسلمين في إيمانهم قادرون على مواجهة خصمهم، ودخول معركة مع عدوهم إن لم يكن من الحرب بد، ولكنه لم يحضر لحرب ولم يقرر القتال، وأنه إنما جاء ليحج، وجاء مسالماً، ولو فرض ومنع من الحج، وكان مقدراً هذا المنع، فإنه يريده منعاً سلمياً أيضاً لا منعاً حربياً، ولا دخولاً حربياً. إن خطة السلم هذه التي اختطها يريد بها إيجاد رأي عام عند العرب كافة عن الدعوة الإسلامية، وسموها، وإيجاد رأي عام عند قريش، وفي مكة كذلك، عن سمو هذه الدعوة، وإيجاد رأي عام عند العرب وعند قريش وفي مكة عن خطأ قريش وضلالها، وفجورها، وعدوانها، إنه يريد هذا الرأي العام لإيجاد أجواء الدعوة، لأن هذه الأجواء من أكبر العوامل المساعدة للدعوة على الانتشار، وعلى النصر، ولذلك قرر خطة السلم، ولم يقرر الحرب، فإذا هو حارب فقد خالف هذه الخطة، وفوت عليه هذه الناحية التي خرج من أجلها. لذلك فكر كثيراً فيما يصنع، وكان في تفكيره أبعد نظراً وأكثر حنكة،

وأدق سياسة، من تفكير أي إنسان. لذلك قرر مواصلة خطة السلم، حتى لا يفوت عليه قصده الذي خرج من أجله، وحتى لا تنعكس خطته، فيكون لقريش عند العرب حجة عليه، ويكون الرأي العام لقريش بدل أن يكون له، ولهذا نادى في الناس، من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها. فخرج بهم رجل يدلهم على الطريق، فساروا في طريق وعرة بين شعاب الجبال، في دروب ضيقة يتنقلون بها في مشقة أي مشقة، حتى قطعوها بعد جهود متعبة، وخرجوا إلى سهل انتهوا منه إلى أسفل مكة، في مكان يسمى الحديبية، وعسكروا هناك. فلما رآهم جيش خالد وعكرمة، فزعوا وكروا راجعين إلى مكة ليدافعوا عنها، وداخلهم الرعب والفزع من تجاوز المسلمين جيشهم واقتحامهم حدود مكة. ورابط جيش المشركين داخل مكة، ورابط جيش النبي ومن معه في الحديبية. ووقف المعسكران مقابل بعضهما، قريش داخل مكة والمسلمون في الحديبية وكل يفكر في الخطة التي يسلكها تجاه الآخر، وكان بعض المسلمين يفكر في أن قريشاً لا يمكن أن تمكنهم من الحج، وهي تعد لهم عدة الحرب، فلا سبيل إلا أن يحاربوها لينتصروا عليها، ويحجوا، وبذلك يقضون على قريش القضاء الأخير. وفكرت قريش في أن تعد لحرب المسلمين كل عدة تقدر عليها وتحارب المسلمين حتى تردهم ولو أدى ذلك إلى فنائها كلها، لكن قريشاً كانت تحسب للمسلمين ألف حساب فلبثت تنتظر ما سيفعل المسلمون. أما رسول الله فقد ظل على خطته التي اختطها، منذ أن أحرم بالعمرة في المدينة، وهي خطة السلم، حتى يصل للغرض الذي جاء من أجله، فظل معسكراً في الحديبية، منتظراً أن يرى ما ستفعل قريش، وكان يعلم أنها ترتجف خوفاً منه، وأنها سترسل له لتفاوضه في شأن مجيئه للحج، وآثر التريث حتى ترسل رسلها، وبالفعل

أرسلت قريش بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة وفد مفاوضة، ليسألوا الرسول ما الذي جاء به، وما لبثوا بعد مفاوضة قصيرة، حتى اقتنعوا بأن المسلمين لم يأتوا يريدون حرباً، وإنما أتوا زائرين للبيت، معظمين لحرماته، فعادوا لإقناع قريش بذلك، وحاولوا إقناعها، حتى اتهمتهم قريش بمالأتهم لمحمد، ولم تثق بكلامهم، فأرسلت وفداً آخر، فكان كالوفد الأول. ثم أرسلت الحليس سيد الأحابيش لمفاوضة محمد، وكانت تعتمد عليه وعلى قومه في صد محمد، وقصدت إثارته على المسلمين، إذا رجع ولم تنجح مفاوضته، فيزداد حقده، ويشتد في الدفاع عن مكة، غير أن النبي حين علم بخروجه أمر بالهدي أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلاً محسوساً على أن نية المسلمين الحج، وليس الحرب. فخرج الحليس، ولما أقبل على معسكر المسلمين، رأى الإبل في عرض الوادي، ورأى مناظر المسلمين وهديهم مناظر معتمرين لا محاربين، تظهر في معسكرهم أجواء العبادة، فتأثر لهذه المناظر، وأيقن بأن هؤلاء الناس يبغون العبادة لا القتال. وما لبث أن اقتنع بوجهة نظر المسلمين وانقلب إلى مكة قبل أن يلقى الرسول ﷺ، وأخبر قريشاً وطلب إليها أن تسمح للمسلمين بالحج، وغضب عليها واشتد في غضبه، وهددهم بأنه إذا لم يخلوا بين محمد والكعبة تركهم ونفر بالأحابيش عن مكة، ولكنهم استرضوه وطلبوا إليه أن يمهلهم حتى يفكروا في أمرهم، فسكت عنهم ثم إنهم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي بعد أن أكدوا له أنهم يطمئنون إلى رأيه ويثقون به، فخرج إلى الرسول ﷺ، وأخذ يفاوضه أن يرجع عن مكة، واستعمل في مفاوضته كافة الأساليب ولكنه لم ينجح في ذلك ورجع مقتنعاً بوجهة نظر الرسول، وقال لقريش «يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد

في أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وأنهم لن يسلموه لشيء أبداً، فروا رأيكم» فزاد ذلك قريشاً عناداً وخصومة، وطالت المحادثات دون أن تصل إلى رأي. ففكر الرسول في أن يرسل هو وفداً للمفاوضة، فلعل رسل قريش تخاف منها، ولعل رسوله يقنعهم. فأرسل رسولاً إليهم، ولكنهم عقروا جمل الرسول وأرادوا قتله لولا حماية الأحابيش له. واشتدت قريش في خصومتها، وكانت ترسل سفهاءها في الليل يرمون معسكر المسلمين بالحجارة، فغضب لذلك المسلمون، وفكروا في قتال قريش، ولكن الرسول كان يخفف من غضبهم ويهدئهم. وحدث أن خرج خمسون رجلاً من قريش إلى معسكر المسلمين ليضربوهم، فألقي القبض عليهم وأحضروا لرسول الله فعفا عنهم وخلى سبيلهم، فكان لهذا العمل الأثر الأكبر في مكة والدلالة القاطعة على صدق محمد فيما يقوله من أنه إنما جاء للحج لا للحرب، ووجد بذلك رأي عام في مكة في جانب الرسول، حتى لو دخلها في ذلك الحين وحاولت قريش منعه لكانت الدائرة عليها، وكان أهل مكة والعرب ضدها، ولهذا سكتت قريش عن تحرشاتها وصارت تفكر في أمرها، وظهرت في أجوائها أمارات السلم. فأراد الرسول أن يرسل إليها من يفاوضها من المسلمين، وطلب إلى عمر بن الخطاب أن يذهب فقال له: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عدواتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان. فدعا النبي عثمان وأرسله إلى أبي سفيان فانطلق عثمان إلى قريش وأبلغهم رسالته، فقالوا إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل. فأجابهم ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله، وفاوضهم في مهمته، فرفضت قريش، وطال بينهم الحديث، واستمرت

المفاوضات، وانتقلت من قبل قريش من الرفض إلى وضع خطة مقابلة توفق بين مطالب قريش ومطالب المسلمين، وبحثوا معه في إيجاد علاقات بينهم وبين محمد، وأنسوا بعثمان أن يجد لهم طريقاً يخلصون به من مأزقهم هذا، ومن استمرار العداوة مع محمد. ولما طال مكث عثمان ولم تظهر له آثار في مكة سارت إشاعة بين المسلمين بأن قريشاً غدرت بعثمان وقتلته، واشتد القلق بالمسلمين، ودخل في روع النبي أن قريشاً قتلت عثمان، وهاج المسلمون واضطربوا، ووضع كل منهم يده على قبضة سيفه، واستعدوا للحرب والقتال وحينئذ أعاد الرسول ﷺ النظر في خطته التي اختطها وهي خطة السلم، ورأى أن الأمر يحتاج إلى إعادة النظر في تلك الخطة بعد أن غدرت قريش بعثمان في الشهر الحرام، وهو رسول مفاوضة- ولذلك قال «لا نبرح حتى نناجز القوم «ودعا أصحابه إليه ووقف تحت شجرة وطلب مبايعة أصحابه له، فبايعوه جميعاً على أن لا يفروا حتى الموت، وكانوا أشد ما يكونون حماسة، وقوة عزيمة، وصدق إيمان. ولما تمت البيعة ضرب ﷺ بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان، كأنه حاضر معهم، وكانت هذه البيعة بيعة الرضوان، ونزل فيها قوله تعالى ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وما إن تمت البيعة واستعد المسلمون لخوض المعارك والدخول في الحرب، حتى بلغهم أن عثمان لم يقتل. وما لبث أن عاد عثمان وأخبر الرسول بما قالته قريش، وتجددت المفاوضات السلمية بين الرسول وبين قريش، حتى أوفدت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول مفاوضة أوسع من مسألة الحج والعمرة؛ ليفاوضه على صلح يعقد بينه وبينهم، على أن يكون أساس الصلح أن يرجع عن مكة هذا العام. وقبل الرسول مفاوضات الصلح على

هذا الأساس، لأنها حققت الغرض الذي يقصده من موضوع زيارة البيت، ولا يضيره أن يزور البيت هذا العام أو يزوره العام القادم. إنه يريد أن يعزل خيبر عن قريش وأن يخلى بينه وبين العرب لنشر الدعوة الإسلامية، ولذلك يرغب في وضع معاهدة بينه وبين قريش توقف القتال الناشب بينها وبينه والحرب المتلاحقة بينهما، أما موضوع الحج والعمرة فلا يؤثر أكان اليوم أو غداً. ودخل في مفاوضات مع سهيل بن عمرو، وجرت بينهما محادثات طويلة بشأن الهدنة وشروطها، وكانت تتعرض في كثير من الأحيان للانقطاع، لولا حكمة الرسول وحنكته ودقة سياسته. وكان المسلمون حول رسول الله يسمعون هذه المحادثات ويعتبرونها محادثات في شأن العمرة، في حين الرسول يعتبرها محادثات لوقف القتال. ولذلك ضاق المسلمون بها ذرعاً، في حين إن رسول الله استبشر بها وأدارها على الغاية التي يريدها بغض النظر عن التفاصيل الموقتة والفوائد المعجلة، حتى تم الاتفاق بين الفريقين على شروط معينة. غير أن هذه الشروط أثارت المسلمين وحركت غضبهم، وحاولوا إقناع رسول الله برفضها وبالحرب والقتال فقد ذهب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر وقال له: إنا لا نعطى الدنية في ديننا، وحاول أن يجعله معه ليذهبا لإقناع رسول الله بعدم الموافقة على هذه الشروط. ولكن أبا بكر حاول إقناعه أن يرضى بما رضيه رسول الله فلم يقتنع، وذهب عمر إلى النبي وتحدث إليه وهو مغيظ محنق، لكن حديثه هذا لم يغير من صبر النبي ولا من عزمه، وقال لعمر «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» ثم دعا علي بن أبي طالب وقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: امسك، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم. قال رسول الله: اكتب باسمك اللهم، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن

عمرو، فقال سهيل: امسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال رسول الله: اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. ثم كتب المعاهدة بين الطرفين وهي تنص على البنود الآتية:

أ- أن تكون المعاهدة معاهدة هدنة يتهادن الفريقان فيما بينهما فلا يكون فيها حرب أو قتال.

ب- أن من أسلم من قريش وجاء محمداً بغير إذن وليه رده عليهم، ومن ارتد من المسلمين وجاء قريشاً لم يردوه عليه.

ج- وأن من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فله ذلك.

د- أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قُرُبها ولا سلاح غيرها.

هـ- أن تكون المعاهدة مؤقتة بأجل معين، وجعلت مدتها عشر سنين من تاريخ توقيعها.

ووقع الرسول وسهيل المعاهدة في وسط هياج جيش المسلمين وغضبهم، وقام سهيل ورجع إلى مكة، وأقام رسول الله مضطرباً مما رأى مغيظاً محنقاً مما عليه المسلمون من الحماس والشدة والرغبة في القتال؛ ودخل على زوجته أم سلمة- وكان قد صحبها معه-، وأفضى إليها بما عليه الناس. قالت له: يا رسول الله إن المسلمين لا يخالفونك، وإنهم يتحمسون لدينهم وإيمانهم بالله وبرسالتك، فاحلق وتحلل تجد المسلمين اتبعوك، ثم سر بهم راجعاً إلى المدينة، فخرج الرسول على

المسلمين وحلق إيذاناً بالعمرة، وامتلأت نفسه بالسكينة والرضا. ولما رآه المسلمون ورأوا سكينته، تواثبوا ينحرون ويحلقون ويقصرون. وعاد النبي والمسلمون إلى المدينة. وبينما هم في الطريق نزلت على الرسول سورة الفتح، فتلاها عليهم من أولها إلى آخرها، فأيقن الجميع أن هذه المعاهدة هي فتح مبين للمسلمين. ووصل المسلمون إلى المدينة، وأقام رسول الله ينفذ خطته في القضاء على كيان خيبر، وفي نشر الدعوة خارج الجزيرة، وتثبيتها داخل الجزيرة، ويتفرغ في هذه الفترة من الهدنة مع قريش للقضاء على بعض الجيوب، وللاتصال الخارجي، فتم له ذلك بفضل هذه المعاهدة. وبهذا استطاع ﷺ أن ينفذ خطته التي وضعها حين عزم على الحج تنفيذاً دقيقاً رغم ما اعترضها من صعاب، وما قام في وجهها من عقبات، ووصل إلى الأغراض السياسية التي أرادها، وكانت الحديبية فتحاً مبيناً لا ريب فيه، وكان من نتائجها:

١- توصل الرسول إلى إيجاد رأي عام مؤيد للدعوة الإسلامية عند العرب عامة، وفي مكة وبين قريش خاصة، مما قوى هيبة المسلمين وأضعف هيبة قريش.

٢- كشفت عن ثقة المسلمين بالرسول، ودلت على قوة إيمان المسلمين وشدة إقدامهم على المخاطر، وأنهم لا يخافون الموت.

٣- عَلَّمت المسلمين أن المناورات السياسية هي من وسائل الدعوة الإسلاميّة.

٤- جعلت المسلمين الذين ظلوا في مكة بين المشركين يشكلون جيباً داخل معسكر العدو.

٥- بينت الطريقة في السياسة بأنها من جنس الفكرة، صدق ووفاء عهد.

لكن الوسيلة، لا بد أن يتمثل فيها الدهاء، وهو إخفاء الوسائل والغايات الحقيقية عن العدو.

غزوة خيبر:

لم يقم الرسول بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر، على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية، وقد بلغه قبل مسيره إلى الحديبية أن يهود خيبر يأتمرون مع قريش على غزو المدينة والقضاء على المسلمين، وكانت هذه المؤامرة بينهم سرية، فأراد الرسول ﷺ أن يسلك خطة السلم مع قريش ليصل إلى موادعات بينه وبينها، ثم يتفرغ للقضاء على اليهود، فلما أتم خطة السلم كاملة في الحديبية، وعزل بها خيبر عن قريش، باشر بإتمام باقي خطته بالقضاء على اليهود في خيبر، فأمر بتجهيز الجيش حال رجوعه من الحديبية، وسار في ألف وستمائة من المسلمين، ومعهم مائة فارس وكلهم واثق بنصر الله، وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثة أيام. لم تكد خيبر تحسهم أثناءها، حتى لقد باتوا أمام حصونهم وأصبح الصباح، وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا جيش المسلمين ولوا الأدبار يتصايحون، هذا محمد والجيش معه، وقال الرسول حين سمع قولهم: خربت خيبر إنه إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين. وكان اليهود يتوقعون أن يغزوهم الرسول. ذلك أنهم حين بلغهم صلح الحديبية، وأن قريشاً عاهدت الرسول، اعتبروا ذلك نكوصاً من قريش، فنصح بعضهم لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب، دون اعتماد على البطون العربية في الغزو، ولا سيما بعد أن عاهدت قريش الرسول. وأما آخرون فكانوا يرون أن يدخلوا في حلف مع الرسول، لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين، وكانوا يتذاكرون بذلك، لأنهم كانوا يحسون بالخطر يقترب منهم، وكانوا يعرفون أن الرسول قد كشف أمر مواطأتهم مع قريش فلا بد أن يغزوهم، ولكنهم لم يكونوا يتوقعون أن يكون غزوه

لهم بهذه السرعة، لـذلك تحـيروا لمـا فاجـأهم الرسـول بجيشـه، فاسـتعانوا بغطفـان، وحاولوا أن يثبتوا أمام الرسول، وتحصنوا بحصونهم، ولكن جيوش المسـلمين كانـت سريعة الضربة، فلم تنفع مقاومتهم، ودكت جميـع حصـونهم، حتـى اسـتولى علـيهم اليأس فطلبوا الصلح من الرسول على أن يحقن دماءهم، فقبل الرسول مـنهم ذلـك وأبقاهم في بلادهم، ولما كانت أرضهم وكرومهم قد آلت إليـه بحكـم الفـتح أبقـاهم عليها على أن يعملوا بها مقابل أن يكون لهم النصف، وله النصف، فقبلوا ذلك، ثم رجع الرسول إلى المدينة وأقام بها حتى ذهب لعمرة القضاء.

وبالقضاء على سلطان خيـبر السياسـي وإخضـاعهم لسـلطان المسـلمين أَمَّـنَ الرسول ناحية الشمال إلى الشام، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية، وفتحت الطريق أمام الدعوة في داخل جزيـرة العـرب، كمـا فتحـت الطريق أمامها في الخارج.

الرسل إلى الدول المجاورة:

بعد أن اطمأن الرسول إلى الدعوة الإسلامية في الحجاز كله، أخذ يعمل لحمل الدعوة إلى خارج الحجاز؛ لأن الإسلام دين الناس كافـة، ولأن الرسـول ﷺ أرسـل للعالم كله، قال تعـالى في سـورة الأنبيـاء ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقـال تعالى في سورة سبأ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وقال تعالى في سـورة التوبـة ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ ولذلك كان على الرسول بعد أن اطمأن على تركيز الدولـة والـدعوة، أن يبدأ بالاتصال الخارجي بإبلاغ دعوته مع السفراء. والمراد بالاتصال الخارجي بالنسبة للرسول ﷺ إنما هو الاتصال بمن يكونون خارج حدود حكمه من الكفـار، فالرسـول حين كان سلطانه بالمدينة فقط كان الاتصال بقريش وغيرها ممـن هـو خـارج المدينـة

وحدودها يعتبر اتصالاً خارجياً، وحين كان سلطان الرسول في الحجاز كله يعتبر اتصاله خارج الحجاز اتصالاً خارجياً، وحين كان سلطانه شاملاً جزيرة العرب كلها كان اتصاله بمن هو خارج الجزيرة كالفرس والروم مثلاً يعتبر اتصالاً خارجياً، والرسول بعد معاهدة الحديبية والقضاء على خيبر، صار الحجاز كله تحت سلطانه تقريباً، لأنه لم يعد لقريش من القوة ما تستطيع أن تقف في وجه الرسول. فبعث الرسول رسله إلى الخارج، ولم يبدأ بإرسال هؤلاء السفراء إلا بعد أن اطمأن إلى تركيز السياسة الداخلية، وهيأ القوة الكافية لسند السياسة الخارجية، فإنه ﷺ بعد رجوعه من خيبر، خرج يوماً على أصحابه فقال: «أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة إلى الناس كافة، فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم» قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله. قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلَّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل» وذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميري ملك اليمن، وإلى نجاشي الحبشة، يدعوهم إلى الإسلام فأجابه أصحابه إلى ما أراد. وَصُنِعَ له خاتم من فضة نقش عليه محمد رسول الله، وبعث بكتبه مع الرسل يدعو هؤلاء إلى الإسلام، فقد دفع بكتاب هرقل إلى دحية بن خليفة الكلبي، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حذافة السهمي، وبكتاب النجاشي إلى عمر ابن أمية الضمري، وبكتاب المقوقس إلى حاطب بن أبي بلتعة، وبكتاب ملكي عُمان إلى عمر بن العاص السهمي، وبكتاب ملكي اليمامة إلى سليط بن عمرو، وبكتاب ملك البحرين إلى العلاء بن الحضرمي، وبكتاب الحارث الغساني ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب الأسدي، وبكتاب الحارث الحميري ملك اليمن إلى المهاجر بن أمية المخزومي، وانطلق هؤلاء الرسل جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي، انطلقوا في

وقت واحد، وبلّغوا كتب النبي إلى من أرسلت إليهم، ثم رجعوا وقد رد أكثر الـذين أرسلت إليهم الكتب رداً رقيقاً فيه لين، ومنهم مَنْ ردّ رداً سـيئاً. أمـا أمـراء العـرب فقد رد ملك اليمن وملك عمان على رسالة النبي رداً سيئاً، ورد ملـك البحـرين رداً حسناً وأسلم، ورد ملك اليمامة مظهراً استعداده للإسلام إذا هو نُصّبَ حاكماً فلعنه النبي لمطامعه، وأما غير العرب فإن كسرى عاهل الفرس ما لبث حين تلي عليه كتاب الرسول يدعوه إلى الإسلام أن استشاط غضباً، وشق الكتاب، وكتب إلى باذان عامله على اليمن بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز، فلما بلغـت الـنبي مقالـة كسرى، وما فعل بكتابه قال: مزق الله ملكه، ولما وصل كتاب كسرى إلى باذان عامله على اليمن بحث في الإسلام وأعلن إسلامه، وقد بقي عامل النبي على الـيمن، وهـو غير ملك اليمن الحارث الحميري، وأما المقـوقس عظـيم القـبط فقـد رد رداً جمـيلاً، وأرسل هدية للنبي ﷺ. وأما النجاشي فكان رده جميلاً وقيل إنه أسلم. وأما هرقل فإنه لم يعبأ بهذا الداعي ولم يفكر في إرسال جـيش ولم يقـل شـيئاً، ولمـا اسـتأذنه الحـارث الغساني في أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدعي النبوة لم يجبه إلى طلبه، ودعا الحارث إليه لبيت المقدس، وكان من أثر هذه الكتب أن العرب قد بدأوا يدخلون في دين الله أفواجاً، ثم بدأت وفودهم تتتابع على الرسول ﷺ تعلن إسلامها. وأمـا غـير العرب فقد بدأ الرسول ﷺ يهيء القوة لجهادها.

غزوة مؤتة:

كان من أثر رد الملوك خارج جزيرة العرب أن الرسول بعد أن رجـع السـفراء من تبليغ الدعوة هيأ الجيش للجهاد خارج جزيرة العرب، وأخذ يترقب أخبار الروم والفرس، وكان الروم متلاصقين في حدودهم لحدوده، ولذلك كان يتسقط أخبارهم، وكان يرى أن الدعوة الإسلامية ستنتشر انتشـاراً كـبيراً حـال خروجهـا مـن جزيـرة

العرب لعلم الناس بها. ولـذلك كـان يـرى أن بـلاد الشـام هـي المنفـذ الأول لهـذه الدعوة. ولما أمن من جانب اليمن باذان عامل كسرى عليها لدعوته، فكر في إرسـال جيش إلى بلاد الشام لقتالهم، وفي شهر جمادى الأولى من السنة السـابعة للـهجرة، أي بعد صلح الحديبية ببضعة أشهر، جهز ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة أبطـال المسـلمين، ووضع عليهم زيد بن حارثة قائداً لهم وقال: إن أصيب زيد فجعفر بـن أبـي طالـب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

وخرج الجيش ومعه خالد بن الوليد، وكان قد أسـلم بعـد معاهـدة الحديبيـة، وسار معهم الرسول ﷺ حتى ظاهر المدينة، وأوصاهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألا يهـدموا المنـازل ولا يقطعـوا الأشـجار، ودعـا هـو والمسلمون معه للجيش قائلين: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سـالمين. وسـار الجيش ووضع امراؤه الخطة بأن تكون حرباً خاطفة، بأن يأخذوا القوم من أهل الشام على غرة منهم كما هي عادة النبي في غزواته، فينتصرون ويرجعون وساروا على هذه الخطة، ولكنهم لما بلغوا معان علموا أن شرحبيل الغساني عامل هرقل على الشام قد جمع لهم مائة ألف مقاتل من قبائل العرب، وأن هرقـل جـاء علـى رأس مائـة ألـف مقاتل، فراعهم هذا النبأ وأقاموا بمعان ليلتين يفكرون في أمرهم، وفيما هم صـانعون أمام هذا العدد الهائل من الجنود، وأمام هذه القوة الكبيرة، وكان الرأي السائد بيـنهم أن يكتبوا لرسول الله يخبرونه بعدد العدو. فإما أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بما يرى، غير أن عبد الله بن رواحة قـال لهـم: يـا قـوم والله إن الـتي تكرهـون للـتي خـرجتم تطلبون، الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحـدى الحسـنيين، إمـا ظهـور، وإمـا شـهادة. وامتدت حماسة الإيمان إلى الجيش، ومضوا حتى وصلوا إلى قريـة مشـارف، فلقيـتهم

هناك جموع الروم فانحازوا عن مشارف إلى مؤتة، وتحصنوا بها، وهناك بدأت بينهم وبين الروم معركة من أشد المعارك رهبة، فيها الموت الأحمر يفغر فاه، فإنها كانت بين ثلاثة آلاف فقط من المؤمنين الذين يطلبون الموت والشهادة. وبين مائة ألف أو مائتي ألف من الكافرين الذين جمعوا أنفسهم للقضاء على جيش المسلمين. وبدأت رحى الحرب بين الفريقين حامية الوطيس، فحمل زيد بن حارثة راية النبي واندفع بها في صدر العدو، وهو يرى الموت أمامه ولكنه لا يخافه، لأنه استشهاد في سبيل الله؛ ولذلك تقدم بجرأة تفوق حد التصور، إذ أخذ يحارب حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو. فتناول الراية جعفر بن أبي طالب، وكان شاباً جميلاً شجاعاً لا يزال في الثالثة والثلاثين من عمره، فقاتل قتال المستميت، ولما رأى العدو قد أحاط بفرسه عقرها واندفع وسط القوم يضرب بسيفه، فهاجمه رجل من الروم وضربه ضربة قطعته نصفين فقتل. فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم تقدم بها وهو على فرسه وتردد بعض التردد، ولكنه مضى وقاتل حتى قتل. فأخذ الراية ثابت ابن أرقم، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية وداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ووقف من العدو عند حد المناوشات البسيطة حتى أقبل الليل، وتحاجز الجيشان حتى الصباح. وأثناء الليل وضع خالد خطة محكمة ينسحب بموجبها دون قتال بعد أن رأى ضخامة عدد العدو وضآلة عدد جيشه، وبموجب هذه الخطة وزع عدداً غير قليل من الجيش في المؤخرة وأمرهم أن يحدثوا من الجلبة والضوضاء عند الصباح ما يوهمون به عدوهم أنهم مدد جاء الجيش من عند النبي، ولما فعلوا ذلك ارتاع العدو وتقاعس عن مهاجمة المسلمين، وفرح لعدم مهاجمة خالد لهم، ثم ما لبثوا أن رجع جيش المسلمين إلى

المدينة منسحباً من الميدان بموجب الخطة التي وضعها خالد، وبهذا رجعوا غير منصورين وغير مهزومين، ولكنهم أبلوا في الحرب بلاء حسناً.

لقد كان يعلم قواد هذه المعركة وجنودها الأبطال أن كلاً منهم مقدم على الموت. بل كان يرى الموت أمامه مقبلاً عليه، ولكنهم خاضوا المعارك وقتلوا، لأن الإسلام يأمر المسلم أن يقاتل في سبيله حتى يقتل ويقتل، وأن هذا القتال هو التجارة الرابحة لأنه الجهاد في سبيل الله، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ولذلك قاتل هؤلاء رغم تحققهم من الموت، ولأن المسلم إنما يقاتل إذا كان لا بد من القتال، بغض النظر عما إذا كان الموت محققاً أو غير محقق، وأن الأمور لا تقاس في القتال والجهاد بعدد العدو وعدته، ولا بكثرته وقلته، وإنما تقاس بالنتائج التي تحصل منها بغض النظر عما تتطلبه من تضحيات، وما يرجى فيها من نجاح. فحرب المسلمين للروم في مؤتة كانت تفرض على المسلمين القتال، وكانت تفرض على قواد الجيش أن يخوضوا المعركة التي جاءوا من أجلها، ولو كان الموت الأحمر جاثماً أمامهم، فما ينبغي للمسلم أن يخاف الموت، وما ينبغي للمسلم أن يحسب الحساب لشيء في سبيل الله. وكان الرسول يعلم أن إرسال هذا الجيش لدولة الروم يهاجمها به على حدودها مخاطرة أيما مخاطرة، ولكنها مخاطرة لا بد منها لإرهاب الروم حين يروا قتال المؤمنين واستماتتهم، مهما يكن عددهم قليلاً. وكانت مخاطرة لا بد منها ليرسم للمسلمين طريق الجهاد لنشر الإسلام وتطبيقه فيما يليهم من البلاد، وكانت مخاطرة ناجحة لأنها كانت طليعة لغزوة تبوك وضربة للروم أرهبتهم أن يواجهوا المسلمين بعدها، حتى كان فتح الشام.

فتح مكة:

ما كاد عهد الحديبية يوقع بين الرسول وقريش حتى حالفت خزاعة محمداً، وحالفت بنو بكر قريشاً، واطمأنت العلاقات بين قريش ومحمد، وأمن كل جانب صاحبه، واتجهت قريش إلى التوسع في تجارتها لتستعيد ما فقدته أيام اتصال الحرب بينها وبين المسلمين، واتجه الرسول إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً، وإلى تركيز الدولة في شبه الجزيرة العربية وتوفير أسباب الطمأنينة في هذه الدولة فقضى على كيان خيبر، وأرسل الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، واتصل بالخارج، وأخذ يركز الدولة ليجعلها تعم جميع أنحاء الجزيرة، وما إن استدار العام بعد الحديبية حتى نادى الرسول في الناس كي يتجهزوا إلى عمرة القضاء بعد أن منعوا من قبل منها، وسار الركب في ألفين من المسلمين، وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا سيفاً في قرابه، لكن الرسول كان يخشى الغدر دائماً فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة وبعثهم طليعة له على ألا يتخطوا حرم مكة، وذهب المسلمون فقضوا العمرة، ثم رجعوا إلى المدينة، وبرجوعهم بدأ أهل مكة يدخلون في الإسلام، فأسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وحارس الكعبة، عثمان بن طلحة وأسلم بإسلام هؤلاء الكثيرون من أهل مكة، وبذلك قويت شوكة الإسلام بمكة، ودب الوهن في صفوف قريش. ولما رجع المسلون من مؤتة وقد قتل منهم خلق كثير، خُيِّل لقريش أن المسلمين قد قضي عليهم، فحرضوا بني بكر على خزاعة وأمدوهم بالسلاح فأغار بنو بكر على خزاعة وقتلوا منهم، ففرت خزاعة إلى مكة، وسارع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، وجعل يقص على الرسول ما حدث لهم ويستنصره، فقال له رسول الله «نصرت يا عمرو بن سالم» ورأى الرسول أن ما قامت به قريش من نقض العهد لا مقابل له إلا فتح مكة، أما قريش فقد خافوا من

نقض العهد، فأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد ويزيد في المدة، فذهب أبو سفيان ولم يشأ أن يلقى الرسول بل جعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فدخل عليها وأراد أن يجلس على فراش النبي، فطوته، فلما سألها أبوها أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها. كان جوابها هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه، قال أبو سفيان والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، وخرج مغضباً ثم كلم محمداً في العهد وإطالة مدته فلم يرد عليه بشيء، فكلم أبا بكر ليكلم له النبي فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد، وقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ودخل أبو سفيان على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه، واستشفعه إلى الرسول، فأنبأه علي في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه، واستشفع أبو سفيان فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس، فقالت ما يجير أحد على رسول الله. واشتدت الأمور على أبي سفيان فرجع إلى مكة وقص على قومه ما لقيه في المدينة. أما الرسول ﷺ فقد أسرع وأمر الناس بالتجهز وسار بهم إلى مكة. وكان يرجو أن يبغت القوم في غِرَّةٍ منهم فلا يجدوا له دفعاً فيسلموا من غير أن تراق الدماء، وتحرك جيش المسلمين من المدينة إلى مكة، وبلغ الجيش مَرّ الظهران على أربعة فراسخ من مكة، وقد كملت عدته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، وكانت قريش تتحسب لغزو محمد لهم وتتجادل فيما تصنع للقاء محمد، ثم إن أبا سفيان خرج يستطلع مبلغ الخطر الذي تحس به، فلقيه العباس- وكان قد أسلم- وقد ركب بغلة النبي وذهب إلى مكة ليخبر قريشاً بأن يستأمنوا الرسول؛ لأنه لا قبل لهم به، فلما لقي العباس أبا سفيان قال له هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة، فقال أبو سفيان فما الحيلة. فأركبه العباس في عجز البغلة

وسار به، فلما مر بنار عمر بن الخطاب رأى عمر بغلة النبي وعرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يجيره، فأسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه، قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرته، وحصلت مناقشة عنيفة بين العباس وعمر. فقال النبي اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأْتني به، فلما كان الصباح جيء بأبي سفيان فأسلم، وتوجه العباس إلى النبي وقال له يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال رسول الله «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن» وأمر الرسول أن يحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة حتى تمر به جنود المسلمين فيراها فيحدث قومه عن بينة، ولكي لا يكون في إسراعه إليهم خيفة مقاومة أيّا كان نوعها، واتخذ الرسول لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر، وبعد أن مرت القبائل بأبي سفيان انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتوقفت قريش عن المقاومة، وسار الرسول ودخل مكة وظل متخذاً حذره، وأمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعاً أن لا تقاتل، وألا تسفك دماً، إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت اضطراراً، ودخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد، فقد لاقى بعض المقاومة وتغلب عليها، ونزل النبي بأعلى مكة فأقام قليلاً ثم سار حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعاً، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة فوقف على بابها فتكاثر الناس فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم سألهم: يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم «قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم»

قال «فاذهبوا فأنتم الطلقاء»، وبهذه الكلمة صدر العفو عن قريش وعن أهل مكة. ودخل الرسول الكعبة فرأى جدرانها صورت عليها الملائكة والنبيون فأمر بتلك الصور فطمست، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها على الأرض ثم جعل يشير إلى الأصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ وكبت الأصنام، وطهر البيت الحرام منها، وأقام بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شؤون مكة، ويفقه أهلها في الدين، وتم فتح مكة وقضي بفتحها على أساس المقاومة للدعوة الإسلامية، فتم بذلك النصر المبين، ولم تبق من المقاومة الداخلية إلا جيوب في حنين والطائف يسهل إنهاؤها.

غزوة حنين:

لما علمت هوازن بما تم للمسلمين من فتح مكة خشيت أن يغزوها وأن يقتحموا عليها ديارها، ففكرت في أن تصد المسلمين وتهيأت لذلك. فجمع مالك ابن عوف النضري هوازن وثقيف، وسار بها حتى نزلت سهل أوطاس، فبلغ المسلمين هذا النبأ بعد خمسة عشر يوماً من فتحهم مكة واستعدوا للقاء هوازن وثقيف. غير أن مالكاً لم يقم في سهل أوطاس بل أمر الناس أن ينحازوا إلى قمم حنين، وعند مضيق الوادي، ورتبهم هناك ترتيباً محكماً وأعطى أوامره بأنه إذا نزل المسلمون الوادي فليشدوا عليهم شدة رجل واحد، حتى تتضعضع صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً ويهزمون شر هزيمة. وأحكم هذه الخطة وانتظر مجيء المسلمين. وما هي إلا أيام حتى قدم جيش المسلمين. فقد سار رسول الله ﷺ في عشرة الآلاف الذين غزوا مكة وانضم إليهم ألفان ممن أسلم من قريش في مكة، وسار هذا الجيش الجرار والعدد الوفير من الناس للحرب، وبلغوا حنيناً مساء، وأقاموا بها حتى قبيل الفجر. وفي هذا الوقت المتأخر من الليل تحرك الجيش وركب

الرسول بغلته البيضاء في مؤخرة الجيش، وساروا منحدرين إلى الوادي، وما شعروا إلا والقبائل المعادية قد هاجمتهم. ذلك أن مالكاً بن عوف أمر رجاله بمهاجمة المسلمين، فشدوا شدة رجل واحد وأصلوهم وابلاً من النبال، وما شعر المسلمون في عماية الفجر إلا والسهام تتساقط عليهم من كل صوب، فدهشوا من هذه المفاجأة، وتحيروا فاختلط أمرهم واضطربوا، وعادوا منهزمين لا يلوون على شيء، وقد استولى عليهم الفزع وملك قلوبهم الرعب، وأخذ منهم الخوف من عدوهم كل مأخذ. وكانوا يمرون على الرسول ﷺ وهو في مؤخرة الجيش دون أن يقفوا أو يتريثوا، وظلوا منهزمين يتراجعون ولم يبق إلا رسول الله ﷺ ومعه العباس في ميدان المعركة، وأما باقي الجيش فقد انهزم لا يلوى على شيء، فوقف رسول الله وقد أحاط به جماعة قليلة جداً من الأنصار والمهاجرين وأهل بيته، وجعل ينادي الناس وهم منهزمون قائلاً لهم: إلى أين أيها الناس إلى أين؟ ولكن الناس لم يكونوا يسمعون هذا النداء، ولم يكونوا يلتفتون إليه لما أصابهم من هول الفزع وخوف الموت، إذ كانت هوازن وثقيف تطاردانهم مطاردة شديدة، وتطعنهم كلما أدركتهم وترميهم بالنبال، وهم يولون الأدبار، ولذلك لم يسمعوا نداء الرسول، ولم يستجيبوا له، فوقف الرسول ﷺ في هذه اللحظة الفاصلة أعظم موقف وأروعه، فقد كانت لحظة رهيبة وساعة من أحرج الساعات، فقد كان الجيش يفر كله، أصحابه ومن أسلموا حديثاً، لا فرق بينهم، يدعوهم ليرجعوا فلا يسمعون له قولاً. ويتحدث الذين أسلموا أحاديث الشماتة بهزيمته، حتى يقول كلده بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم. ويقول شيبة بن عثمان بن طلحة: اليوم أُدْرِكُ ثأري من محمد. ويقول أبو سفيان: لا تنتهي هزيمة المسلمين دون البحر. وهؤلاء ومثلهم ممن كانوا يقولون هذا القول كانوا في جيش المسلمين ممن أسلموا في مكة وجاءوا يحاربون مع رسول الله، ولكن الهزيمة

أظهرت مكنون نفوسهم. ومقابل هؤلاء الذين ظهرت نياتهم كان المخلصون من الصحابة يفرون، ولذلك لم يكن هنالك أي أمل في كسب المعركة. ومن أجل ذلك كان موقف الرسول حرجاً، وكانت تلك الساعة من أحرج الساعات وأشدها. وفي هذه اللحظة الحرجة قرر الرسول البقاء في ميدان المعركة، وتقدم إلى الميدان واندفع ببغلته البيضاء نحو العدو وكان معه عمه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فأما أبو سفيان بن الحارث فقد أمسك بخطام بغلته وحال دون تقدمها، وأما عمه العباس فقد نادى بصوته الجهوري بما أَسْمَعَ الناس من كل فج يدعوهم للرجوع فقال: يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، إن محمداً حي فهلموا. وكرر العباس النداء، حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه، وحتى سمعه المسلمون المنهزمون فتذكروا رسول الله وتذكروا جهادهم، وسبق إلى تصورهم ما يترتب على هزيمتهم من تغلب المشركين وانتصار الشرك، وأدركوا ما في هذه الهزيمة من قضاء على الدين وعلى المسلمين فتصايحوا من كل صوب يلبون نداء العباس، ورجعوا إلى المعركة يخوضون غمارها ويصطلون بنارها في بسالة نادرة وشجاعة فائقة. وأخذوا يجتمعون حول رسول الله، وأخذ عددهم يزداد، ودخلوا في المعركة وتناجزوا مع العدو، وحمي وطيس القتال، والرسول ﷺ يزداد طمأنينة وقد أخذ حفنة من الحصى وألقى بها في وجه العدو قائلاً: شاهت الوجوه. واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، واشتد القتال وأيقنت هوازن وثقيف أنهما معرضتان للفناء ففروا منهزمين لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم أموالهم ونساءهم غنيمة للمسلمين. ولاحقهم المسلمون وأسروا منهم عدداً كبيراً كما قتلوا عدداً ضخماً، وطاردوهم حتى بلغوا سهل أوطاس، وهناك أوقعوا قتلاً وهزموهم شر هزيمة، وفرّ قائدهم مالك بن عوف إلى

الطائف واحتمى بها. وبهذا نصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً، ونزل في ذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة، وقد أحصوها يومئذ فكانت اثنين وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الشاء، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وقتل من المشركين خلق كثير، كما أسر عدد كبير، وقد أحصي عدد الأسرى فكان ستة آلاف أسير نقلوا محروسين إلى وادي الجعرانة، وأما قتلى المسلمين فلم يحص عددهم. إلا أنهم كانوا كثيرين، فقد ذكرت كتب السيرة أن قبيلتين من المسلمين فنيتا، وأن النبي ﷺ صلى عليهم. وقد ترك الرسول هذه الغنائم وهؤلاء الأسرى في الجعرانة وحاصر الطائف حيث احتمى مالك بن عوف بعد هزيمته، وطبق الحصار عليها، لكن الطائف كانت لثقيف وكانت مدينة محصنة، وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار، وذوي ثروة طائلة، وكانت ثقيف على دراية برمي النبال، فرمت المسلمين بالنبال، وقتلت منهم جماعة، ولم يكن من اليسير على المسلمين أن يقتحموا هذه الحصون، ولذلك عسكروا بعيدين عن حصون العدو، وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدوهم، وقد استعان النبي ببني دوس لرماية الطائف بالمنجنيق، فجاءوه بعد أربعة أيام من حصاره ومعهم أدواتهم، وهاجم المسلمون مدينة الطائف ورموها بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليحرقوه، غير أنهم ما شعروا إلا وقطع من الحديد المحمى بالنار تنزل عليهم تحرق دباباتهم، ففروا: ذلك أن ثقيفاً قد أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، مما

اضطر المسلمين أن يفروا فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلت جماعة منهم، وبذلك أخفق المسلمون في دخول الطائف، فبدأوا يقطعون الكروم ويحرقونها حتى تُسَلِّم ثقيف، ولكنها لم تُسَلِّم. وكانت الأشهر الحرم قد بدأت إذ قد هَلَّ ذو القعدة، فرجع الرسول عن الطائف إلى مكة، ونزلوا الجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم. فجاءه مالك بن عوف بناء على وعد الرسول إياه، إنه إن أتاه مسلماً رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل، جاء مالك فأعلن إسلامه وأخذ ما وعده الرسول به. فخاف الناس أن تنقص قسمتهم من الغنائم إن ظل الرسول، يعطي من يأتيه من هوازن فطلبوا أن تقسم الغنائم بينهم وألحّوا أن يأخذ كل فيئه، وتهامسوا فيما بينهم في أمر الغنائم حتى بلغ همسهم رسول الله، فوقف إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها وقال «أيها الناس والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم» وأمر أن يرد كل واحد ما أخذه مما غنم. حتى تقسم الغنائم بالعدل، وقال «فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة، ثم خمس الغنيمة وفصل الخمس لنفسه ووزع الباقي على أصحابه، وأعطى من خمسه الذين كانوا إلى أيام أَشَدَّ الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم، فأعطى كل واحد من أبي سفيان، وابنه معاوية، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، وسائر رؤساء العشائر مائة من الإبل زيادة على نصيبهم، تألفاً لقلوبهم وأعطى من كان دون هؤلاء شأناً خمسين من الإبل زيادة على نصيبهم، وقضى لهؤلاء المؤلفة قلوبهم جميع حاجاتهم. وكان عليه الصلاة والسلام في توزيع المال يومئذ في غاية السماحة والكرم، وفي منتهى الحنكة والسياسة، ولكن بعض المسلمين لم يدركوا حكمته ﷺ من هذا الكرم وهذا التوزيع للغنائم، فقد جعل عمله هذا الأنصار يتحدث بعضهم

إلى بعض فيما صنع رسول الله ويقول بعضهم لبعض «لقي والله رسول الله قومه» وأثر ذلك على نفوسهم، فما كان من سعد بن عبادة إلا أن بلغ النبي هذا القول، فقال له الرسول: وأين أنت منهم يا سعد. فقال: إنما أنا رجل من قومي. وأيد قومه فيما يقولونه: فقال له النبي: اجمع لي قومك، فجمعهم سعد، فقال لهم الرسول: ما قالة بلغتني عنكم، وَجِدةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم، فقالوا له: بلى. الله ورسوله أَمنُّ وأفضل فقال الرسول: ألا تجيبون يا معشر الأنصار فقالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله. لله وللرسول المن والفضل. فقال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار). وما أن انتهى من كلامه حتى بكى الأنصار بكاء شديداً حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسْماً وحظاً، ثم عادوا إلى رحالهم. وبعد ذلك خرج الرسول ﷺ من الجعرانة إلى مكة محرماً بالعمرة هو والجيش، وبعد أن قضى عمرته جعل على مكة عتاب بن أسيد والياً، وجعل معاذ بن جبل فيها يثقف الناس ويفقههم بالإسلام، وعاد هو والأنصار والمهاجرين إلى المدينة.

غزوة تبوك:

اتصل برسول الله نبأ من بلاد الروم بأنها تهيء جيشاً لغزو بلاد العرب الشمالية غزواً ينسي الناس انسحاب المسلمين الماهر في مؤتة، اتصل هذا النبأ مجسماً

أيما تجسيم، فقرر أن يواجه هذه القوة بنفسه، وهيأ خطة للقضاء عليها قضاءً يمحو في نفوس سادتها كل أمل في غـزو المسـلمين، أو التعـرض لهـم، وكـان الوقـت أواخـر الصيف وأوائل الخريف، والقيظ قد اشتدت حرارتـه، والشـقة مـن المدينـة إلى بـلاد الشام طويلة شاقة، تحتاج إلى الجلد وإلى المؤنـة، وإلى المـاء. وإذن لا بـد مـن مطالعـة الناس بهذا الأمر وعدم كتمانه عنهم، ولا بد أن يعلمهم بصراحة أنه يعتزم السير إلى الروم لقتالهم، وهذا يخالف خطته ﷺ التي كان يرسمهـا في سـابق غزواتـه، فإنـه كـان يخفي خطته، ويخفي الجهة التي يسير إليها، وكان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي يقصد إليها تضليلاً للعدو، حتى لا يفشو خبر مسيرته. أما هذه المرة فإنه أعلن من أول يوم أنه يريد أن يـذهب لقتـال الـروم في حـدود بلادهـم، لـذلك أرسل في القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ، كيما يعد أكبر جيش يمكن إعداده، وأرسل إلى أغنياء المسلمين بأمرهم بالإنفاق مما آتاهم الله من فضله، لتجهيز جـيش كـثير العـدد والعدة، وأخذ يحرض المسلمين على الانضمام لهذا الجيش. فاستقبل المسـلمون هـذه الدعوة استقبالاً متبايناً. أما الذين أقبلوا على الإسلام بقلوب ممتلئة هدى ونوراً فقـد أقبلوا يلبون دعوة رسول الله خفافاً مسرعين، ومنهم الفقير الذي لا يجد الدابة يحمل نفسه عليها، ومنهم الغني يضع ماله بين يديه يقدمه في سبيل الله. عن رضا واطمئنان، ويقدم نفسه بشوق طامعاً في الاستشهاد في سبيل الله وأما الـذين دخلـوا في ديـن الله رغباً ورهباً، رغباً في مغانم الحـرب ورهبـاً مـن قـوة المسـلمين، فقـد تثـاقلوا وبـدأوا يلتمسون الأعذار وجعلوا يتهامسون فيما بينهم، ويهزأون بدعوة الرسول إياهم لهـذا الغزو النائي، في ذلك الجو المحرق. هؤلاء هـم المنـافقون. وقـد كـان يقـول بعضـهم لبعض لا تنفروا في الحر، فنزل قوله تعـالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ وقد قال الرسول للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد هل لك

في جهاد بني الأصفر، فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله. وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ولم يقف المنافقون عند حد تباطئهم عن الخروج للقتال بل صاروا يحرضون الناس على التخلف عن القتال، فرأى الرسول أن يأخذهم بالشدة، وأن يضرب على أيديهم بكل قسوة، فقد بلغه أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس، ويلقون في نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، فحرق عليهم بيت سويلم، ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم الباقون النار وفروا. فكان ذلك درساً لغيرهم لم يجرؤ أحد بعدها على مثل فعلهم. وقد كان للحزم والشدة اللذين سلكهما الرسول ﷺ أثر في تجهيز الجيش، حتى اجتمع جيش عظيم بلغت عدته ثلاثين ألفاً من المسلمين، وقد سمي هذا الجيش جيش العسرة، لأنه كلف في شدة القيظ لملاقاة عدو كبير، ولخوض معركة بعيدة عن المدينة، والنفقات الكبيرة التي كان يتطلبها تجهيز مثل هذا الجيش. وقد اجتمع هذا الجيش وقام أبو بكر يؤم الناس للصلاة في انتظار عودة الرسول من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته، وقد استخلف الرسول على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر، ودبر ما ينبغي تدبيره من الأمور. ثم عاد إلى الجيش يتولى قيادته وأمر فتحرك الجيش وثار النقع وصهلت الخيل واستعرض الجيش أمام أهل المدينة وارتقت النساء سقف البيوت يشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقاً الصحراء صوب الشام، مستهيناً في

سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة. فحرك منظر الجيش وهو يتحرك صوب بلاد العدو يتقدمهم عشرة آلاف فارس حرك منظره بهذه القوة الهائلة بعض نفوس كانت تقاعست عن الانضمام إلى الجيش، فالتحقت بالجيش وانضمت إليه، وسار الجيش قاصداً تبوك، وكانت جيوش الروم معسكرة فيها تستعد لغزو المسلمين، فلما بلغها أمر جيش المسلمين وقوته، وكثرة عدده، وتذكرت حرب المسلمين في مؤتة، وما كانوا عليه من استبسال، ولم يكن جيشهم في هذا العدد الضخم وهذه العدة الهائلة، وزادهم خوفاً أن الرسول ﷺ كان على رأس الجيش، فخافوا من ذلك كثيراً فآثروا الانسحاب بجيوشهم إلى داخل بلاد الشام ليحتموا بحصونهم، وتركوا تبوك كما تركوا جميع حدود الشام من جهة الصحراء، وأمعنوا في انسحابهم إلى داخل البلاد. فلما عرف الرسول ﷺ أمر انسحاب الروم ونمي إليه ما أصابهم من خوف سار حتى وصل تبوك، واحتلها وعسكر فيها، ولم ير محلاً لتتبع الروم داخل بلاد الشام في ذلك الوقت. فأقام في تبوك مدة تقرب من شهر يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه من أهل تلك المنطقة، ووجه رسالة إلى أمراء القبائل والبلدان التابعين للروم، فأرسل رسالة إلى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة، وإلى أهل الجرباء، وأهل اذرح أن يذعنوا أو يغزوهم، فقبلوا الخضوع، وقدموا الطاعة، وصالحوا الرسول ﷺ، وأعطوه الجزية ثم عاد إلى المدينة فوجد المنافقين قد استغلوا غياب الرسول عن المدينة، وأخذوا ينفثون سمومهم، ويركزون قوتهم ليغدروا بالمسلمين، وكان قد بنى جماعة منهم مسجداً بذي أوان بينه وبين المدينة نحو ساعة وإلى هذا والمسجد كان يأوي المنافقون ويحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً، وكانت هذه الجماعة التي بنت المسجد قد طلبت من الرسول قبل غزوة تبوك أن يصلي في المسجد فاستمهلهم حتى يعود، فلما عاد وعرف أعمال المنافقين، وأوحي إليه أمر

المسجد، وحقيقة ما قصد إليه من إقامته، أمر بإحراق المسجد. واشتد على المنافقين. فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائصهم، فخافوا وانزووا ولم تقم لهم بعدها قائمة.

وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه جزيرة العرب كلها، وأمن الرسول كل عادية عليها، وأقبلت وفود العرب على الرسول تقدم الطاعة وتعلن لله الإسلام.

سيطرة الدولة الإسلامية على جزيرة العرب:

بغزوة تبوك ركز النبي ﷺ الناحية الخارجية بتأمين حدود الدولة من جهة، وبإلقاء الرعب في قلوب أعدائه من جهة أخرى، ووضع الخطة للمسلمين من بعده ليحملوا دعوة الإسلام للعالم خارج جزيرة العرب. وما إن انتهى من غزوة تبوك حتى كان جنوب الجزيرة من اليمن وحضرموت وعمان قد أقبل على إعلان إسلامه ودخل في طاعة الدولة الإسلامية وما إن جاءت السنة التاسعة حتى كانت الوفود المتتابعة تعلن إسلامها وإسلام قومها، وبذلك تمت سيطرة الدولة الإسلامية على جميع جزيرة العرب، وتم تأمين ثغورها من جهة الرومان، ولم يبق فيها إلا المشركون الذين لا يزالون على شركهم، والذين يستطيعون أن يحجوا إلى بيت الله الحرام ويعبدوا فيه الأصنام بسبب العهد الذي قطعه الرسول ﷺ للناس ألا يصد عن البيت أحداً جاءه ولا يخاف أحدٌ في الشهر الحرام، وإذا كانت الجزيرة كلها قدمت الطاعة لمحمد ﷺ وخضعت لأحكام الدولة الإسلامية ولكن بقي فيها من يعبد غير الله من المشركين، فهل يتركون على حالهم، وهل يترك بيت الله الحرام يجتمع فيه الناس هذا الاجتماع المتناقض الذي يضم الثائرين على الوثنية والشرك من المسلمين، والمقيمين على الوثنية والشرك من المشركين. وهل يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين متناقضتين حول بيت الله، إحداهما تحطم فيها الأصنام والأخرى تعبد فيها الأصنام التي حطمت، وإذن لا بد أن يقضى على هذا الشرك في كافة أنحاء الجزيرة، ولا بد أن

يحال بين المشركين وبين هذا البيت. فنزلت سورة براءة «التوبة» على النبي ﷺ بعد غزوة تبوك وبعد ذهاب أبي بكر على رأس الحج إلى مكة، فأوفد النبي ﷺ علياً بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر ويخطب الناس ويتلو عليهم سورة التوبة، فذهب علي، ولما اجتمع الناس بمنى وقف علي وإلى جانبه أبو هريرة، فنادى علي في الناس ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى أن وصل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فلما أتم تلاوة هذه الآيات وقف هنيهة ثم صاح بالناس «أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته» صاح علي بالناس بهذه الأوامر الأربعة، ثم أجل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم. ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، وبهذا تم أمر ربك في جزيرة العرب، بإقامة كيان الدولة الناشئة على أساس العقيدة الإسلامية. وبنزول براءة وهي آخر سورة نزلت، ويوضع حد للمشركين في جزيرة العرب، تم تكوين الدولة الإسلامية بالقضاء على كل فكر غير الإسلام، وكل كيان غير كيان الدولة، وبالاستعداد لحمل هذه الدعوة إلى العالم.

جهاز الدولة الإسلامية:

منذ وصل الرسول ﷺ المدينة حكم المسلمين ورعى شؤونهم وأدار أمورهم، وأوجد المجتمع الإسلامي، وعقد معاهدة مع اليهود، ثم مع بني ضمرة وبني مدلج، ثم مع قريش، ومع أهل أيلة والجرباء وأذرح، وأعطى الناس عهداً أن لا يمنع من البيت حاج، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وأرسل حمزة بن عبد المطلب ومحمد بن عبيدة بن الحارث وسعد بن أبي وقاص في سرايا لمحاربة قريش، وأرسل زيد بن

حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة لمحاربة الروم، وأرسل خالد بن الوليد لمحاربة دومة الجندل، وقاد بنفسه الجيوش في غزوات عديدة خاض بها معارك طاحنة. وعين للمقاطعات ولاة، وللبلدان عمالاً، فولى عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها، وبعد أن أسلم باذان بن ساسان ولاه على اليمن، وولى معاذ بن جبل الخزرجي على الجند، وولى خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على صنعاء، وزياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري على حضرموت، وولى أبا موسى الأشعري على زبيد وعدن، وولى عمرو بن العاص على عمان. وكان أبو دجانة عاملاً للرسول على المدينة، وكان ﷺ حين يولي الولاة يتخيرهم ممن يحسنون العمل فيما يتولونه، ويشربون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان، وكان يسألهم عن الطريقة التي سيسيرون عليها في حكمهم فقد روى عنه ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل الخزرجي حين بعثه إلى اليمن «بم تحكم قال بكتاب الله، قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي. فقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله» وروي عنه ﷺ أنه ولى أبان بن سعيد على البحرين وقال له: «استوص بعبد قيس خيراً وأكرم سراتهم».

وكان ﷺ يرسل الولاة من أمثل من دخلوا في الإسلام، وكان يأمرهم بتلقين الذين أسلموا الدين، وأخذ الصدقات منهم، ويسند إلى الوالي في كثير من الأحيان جباية الأموال، ويأمره أن يبشر الناس بالخير، ويعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم، وأن ينهاهم إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقات. وأن من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين، له

مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها. ومما قاله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. وكان ﷺ يرسل في بعض الأحيان رجلاً مخصوصاً للأموال، فقد كان يبعث كل عام عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر يخرص عليهم ثمرهم، وقد شكوا إلى الرسول شدة خرصه وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفف عنا، وتجاوز في القسم. فقال عبد الله: يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلي، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، وأما ما عرضتم من الرشوة فإنها السحت وإنا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. وكان ﷺ يكشف عن حال الولاة والعمال، ويسمع ما ينقل إليه من أخبارهم، وقد عزل العلاء ابن الحضرمي عامله على البحرين لأن وفد عبد قيس شكاه. وكان عليه الصلاة والسلام يستوفي الحساب على العمال ويحاسبهم على المستخرج والمصروف. وقد استعمل رجلاً على الصدقات (الزكاة) فلما رجع حاسبه فقال هذا لكم وهذا أهدي لي، فقال النبي: ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فننظر أيهدى إليه أم لا، وقال من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»، وشكا أهل اليمن من تطويل معاذ في الصلاة فزجره وقال: من أَمَّ في الناس فليخفف. وكان ﷺ يولي قضاة يقضون بين الناس فقد عين علي بن أبي طالب قاضياً على اليمن، وعين عبد الله بن نوفل قاضياً على المدينة، وأنفذ معاذ بن جبل وأبا

موسى الأشعري قاضيين إلى اليمن، وقال لهما: بم تحكمان فقالا: إن لم نجد الحكم في الكتاب ولا السنة قسنا الأمر بالأمر، فما كان أقرب إلى الحق عملنا به. وقد أقرهما النبي ﷺ على ذلك، مما يدل على أنه كان يتخير القضاة ويتثبت من طريقتهم في القضاء. ولم يكتف بتعيين القضاة بل كان يعنى بالمظالم، فقد وجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم وجعل له صلاحية النظر في قضايا المظالم.

وكان ﷺ يدير مصالح الناس ويعين كتّاباً لإدارة هذه المصالح، وكانوا بمقام مديري الدوائر، فكان علي بن أبي طالب كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح، وكان الحارث بن عوف المري على خاتمه، وكان معيقيب بن أبي فاطمة كاتباً على الغنائم، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص ثمار الحجاز، وكان الزبير بن العوام يكتب أموال الصدقات، وكان المغيرة بن شعبة يكتب المداينات والمعاملات، وكان شرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك، وكان يعين لكل مصلحة من المصالح كاتباً أي مديراً مهما تعددت هذه المصالح، وكان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه، وما انفك عن استشارة أهل الرأى والبصيرة، ومن شهد لهم بالعقل والفضل، وأبانوا عن قوة إيمان، وتفان في بث دعوة الإسلام، وكانوا سبعة عن الأنصار وسبعة عن المهاجرين، منهم حمزة، وأبو بكر، وجعفر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وسليمان، وعمار، وحذيفة، وأبو ذر والمقداد، وبلال، وكان يستشير أيضاً غير هؤلاء، إلا أن هؤلاء كانوا أكثر من يرجع إليهم في الرأي، فكانوا بمثابة مجلس الشورى، وكان ﷺ قد وضع على المسلمين وعلى غيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً، هي الزكاة، والعشر، والفيء، والخراج، والجزية، وكانت الأنفال والغنائم من الأموال التي لبيت المال، وكان يوزع الزكاة على الأشخاص الثمانية الذين ذكروا في القرآن ولا يعطي غيرهم منها شيئاً، ولا يدير شؤون الدولة بشيء منها، وكانت إدارة شؤون

الناس ينفق عليها من الفيء والخراج والجزية والغنائم، وكانت تكفي لإدارة الدولة وتجهيز الجيش، ولم تكن الدولة تشعر أنها بحاجة إلى مال، وهكذا أقام الرسول، ﷺ، جهاز الدولة الإسلامية بنفسه، وأتمه في حياته، فقد كان للدولة رئيس، وكان له معاونون، وولاة، وقضاة، وجيش، ومديرو دوائر، ومجلس شورى، وهذا الجهاز في شكله وصلاحياته طريقة واجبة الاتباع، وهو إجمالاً ثابت بالتواتر. وقد كان، ﷺ، يقوم بأعمال رئيس الدولة منذ أن وصل المدينة حتى وفاته، ﷺ، وكان أبو بكر وعمر معاونين له، وأجمع الصحابة من بعده على إقامة رئيس للدولة يكون خليفة للرسول في رئاسة الدولة فقط، لا في الرسالة ولا في النبوة، لأنها ختمت به ، ﷺ. وهكذا أقام الرسول جهاز الدولة كاملاً في حياته وترك شكل الحكم وجهاز الدولة معروفين وظاهرين كل الظهور.

موقف اليهود من الدولة الإسلامية:

لم يكن اليهود شيئاً يعتد به أمام الرسول، وإنما كان الشيء الذي يعتد بمقاومته هم العرب بوجه عام، وقريش بوجه خاص، ولذلك عاهد الرسول اليهود معاهدات تنص على خضوعهم له، وعلى وجوب ابتعادهم عن كل من يقف ضده، إلا أنهم وقد رأوا دولة الإسلام تنمو وسلطان المسلمين يمتد أخذوا يهاجمون المسلمين بالجدل والطعن، فلما كانت معركة بدر وكان النصر فيها للمسلمين شعر اليهود بالخطر عليهم فصاروا يطعنون بالمسلمين ويأتمرون بالرسول، وكانت أخبار اليهود تصل للرسول وللمسلمين وصارت النفوس تمتلئ بالغل والضغينة وصار كل من اليهود والمسلمين يتربص بصاحبه الدوائر، وقد ازدادت وقاحة اليهود فكان أبو عفك أحد بني عمر بن عوف يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين وكانت عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وكان كعب بن

الأشرف يشبب بنساء المسلمين، ويذهب إلى مكة ينشد الأشعار ويحرض على محمد، فلم يطق المسلمون صبراً على ذلك فقتلوهم حتى ينزجر اليهود، ولكنهم مع خوفهم زاد أذاهم، فطلب إليهم الرسول أن يكفوا عن أذى المسلمين، وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش، فاستخفوا بوعيده وأجابوه «لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» فلم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم، فخرج المسلمون وحاصروا بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه. ثم كان أن سمح لهم أن يجلوا عن المدينة فأجلوا عنها، حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا هناك زمناً ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام، فضعفت بإجلائهم شوكة اليهود وصاروا يظهرون الخضوع للمسلمين، إلا أن ذلك كان خوفاً من القوة والبطش، ولما حانت لهم الفرصة تحركوا ثانية، فإنهم لما غلب المسلمون بأحد تحركت الأحقاد في نفوسهم وائتمروا بالرسول ليقتلوه وقد أحس الرسول بنياتهم، فرأى أن يستدرجهم ليعرف نواياهم، فذهب هو وعشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلي إلى بني النضير فأظهروا البشر والغبطة، ولكن الرسول ما لبث أثناء تبسط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون، ويذهب أحدهم إلى ناحية، ويدخل أحدهم البيت الذي كان الرسول مستنداً إلى جداره، إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده ريبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به؛ لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره. وحينئذ سقط في يد اليهود واختلط عليهم الأمر وصاروا يحاولون استرضاء المسلمين، لكن أصحاب الرسول استبطؤوه فقاموا في طلبه فوجدوه قد ذهب إلى المسجد، فذهبوا

إليه فذكر لهم ما رابه من أمر اليهود، وبعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يأمرهم أن يخرجوا من بلاده، وأجّلهم عشرة أيام، ثم حاصرهم وأخرجهم فخرجوا ونزل منهم بخيبر من نزل وسار آخرون إلى أذرعات بالشام وبذلك تم تطهير المدينة من فتنة اليهود، ولم يبق إلا بنو قريظة، فإنهم لم ينقضوا العهد فلم يتعرض لهم النبي، ولكنهم حين رأوا ما حل ببني قينقاع وبني النضير أظهروا المودة، غير أن ذلك كان مؤقتاً حين رأوا البطش وخافوا من قوة المسلمين، حتى إذا سنحت لهم الفرصة ورأوا الأحزاب قد جاءت للقضاء على المسلمين سمع بنو قريظة كلام حيي بن أخطب، ونقضوا عهدهم، واستعدوا لاستئصال المسلمين، وأظهروا من الخبث والغدر ما يعد أخبث نقض للعهد، ولذلك بادأهم الرسول بعد ذهاب الأحزاب فذهب إليهم هو والمسلمون وحاصرهم مدة خمس وعشرين ليلة، ولم يجرؤ اليهود أن يخرجوا طول مدة الحصار، ولما أيقنوا أن لن تغني عنهم حصونهم بعثوا للرسول أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا، وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وأجهش النساء والصبيان بالبكاء حتى رق لهم. فقالوا له: أترى يا أبا لبابة أن ننزل على حكم محمد، قال نعم وأشار بيده إلى حلقه، أنه الذبح إن لم تفعلوا، فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد عليهم آراء لم يقبلوها، فقال لهم لم يبق إلا أن تنزلوا على حكم محمد، فبعثوا إلى محمد يعرضون عليه الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون، فأبى ذلك عليهم إلا أن ينزلوا على الحكم، فاستشفعوا بالأوس فجاءوا يشفعون لهم، فقال الرسول يا معشر الأوس ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم قالوا: بلى. قال: فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا، فاختار اليهود سعد بن معاذ. وأخذ المواثيق على الفريقين أن يُسَلِّمَ كلاهما لقضائه وأن يرضى به. فلما أعطوه المواثيق أمر بني قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا،

فحكم سعد فيهم أن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء، فلما سمع الرسول هذا الحكم قال: والذي نفس محمد بيده لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت. ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحفرت بها خنادق ثم جيء باليهود أرسالاً فضربت أعناقهم وفي هذه الخنادق دفنوا. وقسم النبي أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس وأبقى من الغنائم ما أرسل به سعد بن زيد الأنصاري إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة في قوى المسلمين الحربية.

وبذلك قضى على بني قريظة، إلا أنه لم يقض على جميع اليهود وكانت هناك خيبر وكانت أقوى قبائل اليهود ولم تكن قد دخلت مع الرسول في حلف وكانت قد تواطأت مع قريش على الرسول قبل صلح الحديبية وكان وجودها أيضاً شوكة في جانب الدولة وما إن أتم الرسول معاهدة الحديبية حتى استعد لأن يضرب خيبر ضربة قاضية، فأمر الناس بالتجهز لغزو خيبر، وانطلق المسلمون في ألف وستمائة رجل، ومعهم مائة فارس، كلهم واثق بنصر الله، وذهبوا إلى خيبر ووقفوا أمام حصون خيبر متأهبين كاملي العدة، وتشاور اليهود فيما بينهم، فأشار عليهم سلام ابن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصني الوطيح والسلالم، وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حصن نطاة، ودخل سلام بن مشكم معهم يحرضهم على الحرب، والتقى الجمعان حول حصن نطاة حيث المقاتلة وأهل الحرب، واقتتلوا اقتتالاً شديداً حتى قيل إن عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين. وتوفي سلام بن مشكم، فتولى الحارث بن أبي زينب قيادة اليهود، وخرج من حصن ناعم حيث الذخائر يريد منازلة المسلمون الحصار على حصون خيبر، واليهود يستميتون في الدفاع، وتتابعت الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن ناعم

كي يفتحه فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن، وبعث عمر بن الخطاب في الغداة فكان حظه كحظ أبي بكر، فدعا إليه علي بن أبي طالب ثم قال له: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك، ومضى علي بالراية فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند حصن فتترس به، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية الحصن. وبعد حصن ناعم فتح المسلمون الحصون واحداً واحداً حتى انتهوا إلى الوطيح والسلالم وكانا آخر حصنين منيعين، هنالك استولى اليأس على نفوس اليهود فطلبوا الصلح على أن يحقن محمد دماءهم فقبل الرسول ذلك وأبقاهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم. وبذلك خضعت خيبر، ثم سمع اليهود من أهل فدك بخيبر فدب الرعب في قلوبهم فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال، وتجهز الرسول للعودة إلى المدينة عن طريق وادي القرى، وفي طريقه قبل يهود تيماء الجزية من غير حرب ولا قتال، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي وانتهى كل ما كان لهم من سلطان، فصار الرسول بمأمن في جزيرة العرب. واستقر سلطانه فاطمأن إلى الداخل كل الاطمئنان.

استمرار الدولة الإسلامية:

توفي الرسول ﷺ فأجمع الصحابة على بيعة خليفة له في رئاسة الدولة وظل المسلمون يقيمون رئيساً للدولة حتى سنة ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م، وكانوا يسمونه خليفة، أو أمير المؤمنين، أو الإمام، ولا يكون أي شخص خليفة إلا بالبيعة وسارت الدولة الإسلامية طوال أيامها حتى آخر خليفة، أي حتى نهاية الدولة الإسلامية في هذا السبيل، لا يكون الشخص خليفة إلا بالبيعة، وقد تنوع تطبيق البيعة. فبويع الخليفة

مباشرة، وعهد إلى غيره من غير أقاربه، وعهد إلى ابنه أو أحد أقاربه، وعهد إلى أكثر من واحد من الموجودين من أهله، لكن هذا العهد لم يكن وحده الذي يجعله خلفة بل كان يأخذ البيعة حين يتولى الخلافة، ولا يوجد خليفة تولى رئاسة الدولة دون بيعة، وقد تنوع أخذ البيعة فأخذت من أهل الحل والعقد، وأخذت من الناس، وأخذت من شيخ الإسلام، وكان يساء أخذها أحياناً، ولكنها كانت بيعة، ولم تكن ولاية عهد يستحق بها الخلافة، وكان كل خليفة يعين معه معاونين أطلق عليهم في بعض العصور أنهم وزراء، أي معانون، وكان الخليفة يعين الولاة، وقاضي القضاة، وقواد الجيش، ومن يتولون دوائر الدولة، وهكذا استمر شكل الحكم في جميع العصور، كما هو لم يتغير بالنسبة لوضعه أي شيء منه فتكون الدولة الإسلامية قد استمر قيامها حتى هدمها الكافر المستعمر حين قضى على الدولة العثمانية وقسم العالم الإسلامي إلى دويلات.

لقد حصلت في الدولة الإسلامية عدة حوادث داخلية في مختلفة العصور، ولم يكن حدوثها ناجماً عن دوافع غير إسلامية، وإنما كان عن فهم إسلامي للوضع الذي كان قائماً حين حدوثها، فقام هؤلاء الفاهمون للوضع القائم يعملون حسب فهمهم لتصحيحه تصحيحاً يتفق مع ما يفهمون، وكلهم مجتهد يفهم معالجة الوضع بطريقة غير الطريقة القائمة، وكلاهما فهم إسلامي ورأي إسلامي، ولهذا نجد الخلاف دائراً على شخص الخليفة، لا على مركز الخلافة، وعلى من يكون في الحكم، لا على شكل الحكم، والخلاف محصور في الفروع والتفاصيل لا في الأصول ولا في الخطوط العريضة، ولم يختلف أحد من المسلمين في الكتاب والسنة، وإنما اختلفوا في فهمهما، ولم يختلفوا في نصب خليفة، وإما اختلفوا فيمن يكون خليفة، ولم يختلفوا في وجوب تطبيق الإسلام كله وحمله إلى العالم وساروا كلهم على هذا الأساس ينفذون أحكام

الله، ويدعون الناس إلى دين الله، نعم إن بعضهم أساء تطبيق بعض أحكام الإسلام عن سوء فهم، وبعضهم أساءه عن سوء قصد، ولكنهم جميعاً كانوا يطبقون الإسلام ليس غير، وكانوا جميعاً يقيمون علاقاتهم مع غيرهم من الدول والشعوب والأمم على أساس الإسلام وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، ولذلك لم تحل الخلافات الداخلية دون امتداد الفتوحات، ولم تقف دون نشر الإسلام، طوال أيامها حتى القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي ففتحت فارس والهند. والقفقاس إلى أن وصلت حدود الدولة الإسلامية إلى الصين وروسيا حتى ما وراء بحر قزين شرقاً، وفتحت الشام شمالاً ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا غرباً، كما فتحت الأناضول والبلقان وجنوب أوروبا وشرقيها حتى شمال البحر الأسود بما في ذلك القرم وجنوب أوكرانيا، وتقدمت جيوش الدولة حتى وصلت إلى أسوار فينا في النمسا. ولم تقعد عن الفتوحات وعن حمل الدعوة الإسلامية إلا حين بدأ يدب الوهن إليها، وظهر عليها سوء فهم الإسلام، وقد وصل ضعفها في فهم الإسلام حداً كبيراً أدى إلى اضطراب تطبيقها للإسلام، وإلى استعانتها في استعارة ما تعتقد أنه لا يخالفه من الأنظمة الأخرى فقضي عليها.

ولقد كان سير الدولة متمشياً مع قوتها الفكرية، وتوفر قوة الإبداع والاجتهاد فيها، فهي في القرن الأول امتدت فتوحاتها، وتوسع الاجتهاد فيها، وواجهت مشاكل جديدة في البلاد المفتوحة استنبطت لها حلولاً، وأدى تطبيق الأحكام الشرعية على المسائل الجديدة التي حدثت في فارس والعراق والشام ومصر وإسبانيا والهند والقفقاس وغيرها إلى أن يدخل أهل هذه البلاد جميعها في جملتهم في حظيرة الإسلام، مما يدل على صدق الاستنباط وقوى الإبداع والاجتهاد. إذ الإسلام مقطوع بصحته. وفهمه فهما صحيحاً هو الذي يؤدي إلى رؤية الناس له مشرقاً في تطبيقه وفي تعليم

أحكامه. وقد استمر هذا الإبداع والاجتهاد والاستنباط حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فأخذ الإبداع يضعف والاجتهاد يقل، فأدى ذلك إلى ضعف كيان الدولة، ثم كانت الحروب الصليبية فشغل المسلمون بها إلى أن انتهت بانتصار المسلمين، فجاء المماليك وحكموا وهم لا يقدرون الاجتهاد، ولا يعنون بالأفكار، فزاد الضعف الفكري واستتبعه الضعف السياسي. وزاد الطين بلة غزو التتار وطرحهم كتب الإسلام في دجلة وقضاؤهم على ثروة فكرية هائلة، فكان هذا الضعف الفكري الذي أوقف الاجتهاد. واقتصر بحث المسائل المستجدة على إصدار الفتاوى، وتأويل النصوص، فهبط المستوى الفكري في الدولة، وأدى إلى هبوط المستوى السياسي. ثم جاء العثمانيون وتسلموا الحكم في الدولة الإسلامية، وشغلوا بالقوة العسكرية وبالفتوحات، ففتحوا استانبول والبلقان واندفعوا في أوروبا اندفاعاً قوياً جعلهم الدولة الأولى في العالم. ولكن المستوى الفكري لم يرتفع، فلم تزد هذه القوى العسكرية عن وثبة ليس لها سند فكري، ما لبثت أن انحسرت قواها عن البلدان الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت. ولكنها كانت على أي حال تحمل الدعوة الإسلامية، وتنشر الإسلام، وقد دخل من أهل البلدان المفتوحة الملايين من الناس في الإسلام ولا يزالون مسلمين.

نعم لقد كان تعدد فهم الإسلام وعدم تبني الخليفة أحكاماً معينة في نظام الحكم مع أنه تبنى في الاقتصاد وغيره أحكاماً معينة. لقد كان لذلك أثر في تمكين بعض الحكام من الخلفاء والولاة من تسيير الحكم وجهة تؤثر على وحدة الدولة وعلى قوتها، ولكن ذلك لم يؤثر على وجودها، فقد كانت الولاية العامة للولاة وإعطاؤهم صلاحيات واسعة نيابة عن الخليفة سبباً في تحرك أحاسيس السيادة فيهم، فصاروا شبه مستقلين في الولاية، واكتفوا ببيعة الخليفة، والدعاء له على المنابر،

وضرب النقد باسمه، وما شاكل ذلك من الأمور الشكلية. وبقي أمر الحكم في أيديهم مما جعل هذه الولايات شبه دول مستقلة، مثل الحمدانيين والسلجوقيين وغيرهم. والولاية العامة لم تؤثر على وحدة الدولة باعتبارها ولاية عامة، فقد كانت ولاية عمرو بن العاص في مصر ولاية عامة، وولاية معاوية بن أبي سفيان في الشام ولاية عامة، ومع ذلك لم ينفرد الوالي عن الخليفة لشيء، وظلت وحدة الدولة محفوظة لقوى الخلفاء، ولكن لما ضعف الخلفاء وقبلوا من الولاة هذا الوضع، حصل هذه المظهر في الولايات، وهو مظهر الدولة في الولاية مع كونها ولاية تابعة وجزءاً من كيان الدولة.

وبالرغم من كل ذلك فقد ظلت الدولة وحدة واحدة، فالخليفة هو الذي يعين الوالي ويعزله، ومهما بلغت قوة الوالي ما كان يجرؤ على عدم الاعتراف بالخليفة ولم تكن الدولة الإسلامية في يوم من الأيام اتحاد ولايات، حتى في أشد عهود استقلال الولاة، وإنما كانت دولة واحدة لها خليفة واحد، هو وحده صاحب الصلاحية في كل ناحية من نواحي الدولة، في المركز، والولايات، والمدن، والقرى، والدساكر على السواء.

أما ما حصل من وجود خلافة في الأندلس، ونشوء خلافة الفاطميين في مصر، فإن أمره يختلف عن موضوع الولاة، ذلك أن الأندلس قد استولى عليها الولاة واستقلوا بها ولم يبايع الوالي خليفة للمسلمين وإنما سمي فيما بعد بالخليفة لأهل تلك الولاية لا للمسلمين عامة، وظل خليفة المسلمين واحداً وظل الحكم له، وبقيت ولاية الأندلس ينظر إليها كولاية غير داخلة في حكم الخليفة كما كانت الحال في إيران أيام الدولة العثمانية، فلم يكن فيها خليفة ثان وإنما كانت ولاية غير داخلة في حكم الخليفة. وأما نشوء خلافة الفاطميين في مصر فلم تكن خلافة ثانية في الدولة

الإسلامية وإنما كانت محاولة لنقل الخلافة إلى آل البيت بناء على فهم إسلامي بأن الخليفة ثم قضوا على خلافة الأمويين، وكذلك الحال مع الفاطميين بايعوا خليفة ليتموا توحيد الدولة بنقل الخلافة لهم، وجعلها فيهم فقط، إلى أن انتهت خلافتهم، وبقيت خلافة العباسيين، ولهذا لا نسمي تغيير الحكم من الأمويين إلى العباسيين انقلاباً، وإنما هو تغيير في الحكام كذلك لا نسمي قيام خلافة فاطمية في مصر مع وجود خلافة عباسية في بغداد تعدداً للخلافة، وإنما هو محاولة لنقل الخلافة من فئة إلى فئة، وعليه فإن الدولة الإسلامية استمرت في الحكم دولة واحدة ووحدة واحدة، لم تتجزأ، ولم تكن دولاً، وإنما كانت محاولات للوصول إلى الحكم رغبة في تنفيذ فهم معين للإسلام في شؤون الحكم، ثم انتهت وظلت الخلافة واحدة وظلت الدولة الإسلامية وحدة واحدة. ومما يدل كذلك على وحدة الدولة الإسلامية رغم تعدد أوضاع الحكم أن المسلم كان ينتقل من بلد إلى بلد من مشارق الأرض إلى مغاربها، في البقاع التي يسود فيها الإسلام، ولم يكن يسأل عن بلده، ولا عن السماح له بالتجول؛ لأن بلاد الإسلام واحدة. وهكذا ظلت الدولة الإسلامية تجمع المسلمين في وحدة واحدة، وظلت دولة إسلامية. واستمرت هذه الدولة قوية مندفعة في مختلف العصور، حتى قضى عليها الكافر المستعمر بوصفها دولة إسلامية سنة ١٩٢٤ حين أزال الخلافة الإسلامية من الوجود على يد كمال أتاتورك.

السياسة الداخلية للدولة الإسلامية:

السياسة الداخلية الإسلامية هي تنفيذ أحكام الإسلام في الداخل، وقد كانت للدولة الإسلامية تنفذ أحكام الإسلام في البلاد التي تخضع لسلطانها، فتنظم المعاملات، وتقيم الحدود، وتنفذ العقوبات، وتحرس الأخلاق، وتضمن القيام بالشعائر والعبادات، وترعى جميع شؤون الرعية حسب أحكام الإسلام، وقد بين

الإسلام الكيفية التي تنفذ بها أحكامه على الناس الذين يخضعون لسلطانه، ممن يعتنقونه، وممن لا يعتقدون به، فكانت الدولة الإسلامية تطبق أحكام الإسلام حسب هذه الكيفية، لأن طريقة التنفيذ حكم شرعي، كما أن معالجات المشاكل حكم شرعي. والمخاطبون بالإسلام هم جميع الناس؛ لأن الله قد خاطب بالإسلام جميع بني الإنسان بوصف الإنسانية فقط لا بأي وصف آخر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾، وقد اعتبر علماء أصول الفقه أن المخاطب بالأحكام الشرعية هو كل عاقل يفهم الخطاب، سواء أكان مسلماً أو غير مسلم، وقد قال الإمام الغزالي في كتاب المستصفى في الأصول "إن المحكوم عليه هو المكلف، وشرطه أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب، وأن أهلية ثبوت الأحكام في الذمة تستفاد من الإنسانية التي بها يستعد لقبول قوة العقل الذي به فهم التكليف". وعلى ذلك كان المخاطب بالإسلام جميع بني الإنسان خطاب دعوة وخطاب تكليف، أما خطاب الدعوة فالمقصود به دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام، وأما خطاب التكليف فالمقصود به إلزام الناس بالعمل بأحكام الإسلام. هذا بالنسبة للناس عامة، أما بالنسبة للذين تحكمهم الدولة الإسلامية فإن الإسلام يعتبر الجماعة التي تحكم بموجب هذا النظام وحدة إنسانية، بغض النظر عن طائفتها وجنسها ولا يشترط فيها إلا التابعية (وهي الولاء للدولة والنظام) ولا توجد فيه الأقليات، بل جميع الناس باعتبار إنساني فقط هم رعايا في الدولة الإسلامية، ما داموا يحملون التابعية. فكل من يحمل تابعية الدولة يتمتع بالحقوق التي قررها الشرع له، سواء أكان مسلماً أو غير مسلم، وكل من لا يحمل التابعية يحرم من هذه الحقوق ولو كان مسلماً، فلو أن رجلاً مسلماً له أم نصرانية تحمل التابعية الإسلامية، وله أب مسلم لا يحمل التابعية الإسلامية، فإن أمه تستحق

النفقة منه ولا يستحقها أبوه فلو طلبت أمه نفقة منه حكم لها القاضي بالنفقة لأنها تحمل التابعية أما لو طلب أبوه منه نفقة لا يحكم له القاضي بالنفقة ويرد دعواه؛ لأنه لا يحمل التابعية. فهو قد اعتبر الجماعة التي تحكم بالإسلام رعية، وجعل التابعية هي الجامعة بينهم في استحقاقهم رعاية شؤونهم بالإسلام، ويصبحون يعيشون في دار الإسلام. هذا بالنسبة للنظرة إليهم من ناحية الحكم ورعاية الشؤون، أما من ناحية تطبيق أحكام الإسلام فإنها تأخذ الناحية التشريعية القانونية لا الناحية الروحية، وذلك أن الإسلام ينظر للنظام المطبق عليهم باعتبار تشريعي لا قانوني ديني روحي، أي باعتبار الأحكام الشرعية لا باعتبار ناحية التدين، وذلك لأن النصوص الشرعية تلاحظ فيها الناحية التشريعية، لأن النص قد جاء لمعالجة المشكلة، والشارع قصد اتباع المعاني لا الوقوف على النصوص، ولذلك يراعى في استنباط الأحكام وجه العلة من الحكم، أي تراعى في النص حين استنباط الحكم الناحية التشريعية، وهذا التشريع حين يأمر به خليفة المسلمين يصبح قانوناً يجب تنفيذه على الجميع. ومن هنا كان خضوع الناس جميعاً في الدولة الإسلامية للأحكام الشرعية أمراً حتمياً: فالذين يعتقدون الإسلام- أي المسلمين- يكون اعتناقهم له واعتقادهم به هو الذي يلزمهم بجميع أحكامه؛ لأن التسليم بالعقيدة تسليم بجميع الأحكام المنبثقة عنها، فكان اعتقادهم ملزماً لهم بجميع ما أتت به هذه العقيدة إلزاماً حتمياً، ولذلك كان الإسلام بالنسبة للمسلمين شريعة منها التشريع، أي ديناً منه القانون، وهم مجبرون على القيام بجميع أحكامه، سواء المتعلقة بعلاقتهم بالله وهي العبادات، أو المتعلقة بعلاقتهم بأنفسهم وهي الأخلاق والمطعومات، أو المتعلقة بغيرهم وهي المعاملات والعقوبات. والمسلمون متفقون في العقيدة الإسلامية، وفي أن الكتاب والسنة هما مصدرا الأدلة الشرعية والقواعد الشرعية، والأحكام الشرعية، ولا يختلف أحد منهم في ذلك

مطلقاً، ولكنهم بحكم الاجتهاد مختلفون في فهم الكتاب والسنة، فكانوا من جرّاء هذا لاختلاف في الفهم مذاهب مختلفة، وفرقاً متعددة، وذلك أن الإسلام جعل المسلمين يجتهدون في استنباط الأحكام، وبطبيعة تفاوت الأفهام حصل الاختلاف في فهم الأفكار المتعلقة بالعقائد، وفي كيفية الاستنباط، وفي الأحكام والآراء المستنبطة. فأدى ذلك إلى وجود الفرق والمذاهب، وقد حث الرسول على الاجتهاد وبين أن الحاكم إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران اثنان، وفتح الإسلام باب الاجتهاد؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يكون هنالك أهل السنة والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية، ولم يكن غريباً أن يكون هنالك الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة والجعفرية والزيدية وغيرهم من المذاهب الإسلامية، وجميع الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية تعتنق عقيدة واحدة هي العقيدة الإسلامية، وجميعهم مخاطبون باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، ومأمورون باتباع الحكم الشرعي لا اتباع مذهب معين، وما المذهب إلا فهم معين للحكم الشرعي يقلده غير المجتهد حين لا يستطيع الاجتهاد، فالمسلم مأمور بالحكم الشرعي لا بالمذهب، يأخذ هذا الحكم بالاجتهاد إن كان قادراً عليه، ويأخذه بالاتباع أو التقليد ان كان غير قادر على الاجتهاد. وعلى ذلك فإن جميع الفرق والمذاهب التي تعتقد العقيدة الإسلامية وتعتقد بالكتاب والسنة وأنهما وحدهما مصدرا الأدلة الشرعية والقواعد الشرعية والأحكام الشرعية، هذه الفرق والمذاهب كلها مسلمة، وهؤلاء جميعهم يعتبرون مسلمين، وتنفذ عليهم أحكام الإسلام، وعلى الدولة ألا تتعرض لهذه الإسلامية، ولا لأتباع المذاهب الفقهية، ما دامت لا تخرج عن عقيدة الإسلام، أما إذا خرجت عن عقيدة الإسلام أفراداً أو جماعات فإنها تعتبر ذلك ارتداداً عن الإسلام وتطبق عليهم أحكام المرتدين. والمسلمون مطالبون بجميع أحكام الإسلام، إلا أن هذه الأحكام منها ما هو

قطعي ليس فيه إلا رأي واحد كقطع يد السارق، وتحريم الربا، ووجوب الزكاة، وكون الصلوات المفروضة خمساً، وما شاكل ذلك، فإن هذه الأحكام تنفذ على جميع المسلمين في فهم واحد لأنها قطعية.

وهناك أحكام وأفكار وآراء قد اختلف المسلمون في فَهْمِها، وَفِهمَهَا كل مجتهد خلاف فهم الآخر، مثل صفات الخليفة، وأخذ العشر على الأرض الخراجية، وإجارة الأرض، وغير ذلك، فهذه الأحكام المختلف فيها يتبنى الخليفة رأياً منها فتصبح طاعته واجبة على الجميع، وحينئذٍ على كل من يفهم رأياً غير الرأي الذي أمر به الإمام أن يترك رأيه ويعمل برأي الإمام فقط، لأن أمر الإمام يرفع الخلاف، وطاعة الإمام في ذلك واجبة، ويجب أن ينفذ المسلمون جميعاً أمر الخليفة فيما يتبناه من أحكام، لأن أمره نافذ ظاهراً وباطناً أي في السر والعلانية، ويأثم كل من عمل بحكم شرعي غير الحكم الذي تبناه الإمام وأمر به، لأنه بعد أمر الخليفة يعتبر الحكم الشرعي في حق المسلمين هو ما أمر به الإمام، وما عداه لا يعتبر حكماً شرعياً بحق المسلمين. لأن الحكم الشرعي في المسألة الواحدة لا يتعدد بحق الشخص الواحد. إلا أن الخليفة لا يتبنى شيئاً في العقائد، لأن هذا التبني يجعل الحرج على المسلمين فيما يعتقدون. إلا أنه إذا ظهر أهل بدع وأهواء بعقائد غير صحيحة فإن الدولة تتولى تأديبهم بعقوبات زاجرة إذا كانت هذه العقائد لا يكفر معتقدها، أما إذا كانت مما يكفر معتقدها فيعاملون حينئذ معاملة المرتدين. وكذلك لا يتبنى الخليفة شيئاً في العبادات لأن هذا التبنى يجعل المشقة على المسلمين في عباداتهم؛ ولذلك لا يأمر برأي معين في العقائد مطلقاً ما دامت العقيدة إسلامية، ولا يأمر بحكم معين في العبادات ما عدا الزكاة، ما دامت هذه العبادات أحكاماً شرعية، ويتبنى فيما عدا

ذلك في المعاملات جميعها، من بيع وإجارة وزواج وطلاق ونفقة وشراكة وكفالة إلخ... وفي العقوبات جميعها من حدود وتعزير، وفي المطعومات والملبوسات والأخلاق، وعلى المسلمين أن يطيعوه فيما تبناه.

نعم إن الخليفة ينفذ أحكام العبادات فيعاقب تارك الصلاة والمفطر في رمضان، وينفذ جميع أحكام العبادات، كما ينفذ سائر الأحكام سواء بسواء، وهذا التنفيذ هو واجب الدولة، لأن وجوب الصلاة ليس مجال اجتهاد ولا يعتبر تبنياً في العبادات، وإنما هو تنفيذ لحكم شرعي مقطوع به عند الجميع، ويتبنى لتنفيذ العقوبات على العبادات رأياً شرعياً يلزم الناس بالعمل به، كما يتبنى لتنفيذ العقوبات على أي حكم من سائر الأحكام. هذا بالنسبة للمسلمين. وأما غير المسلمين فهم يعتنقون عقيدة غير العقيدة الإسلامية وهم:

١- الذين يدّعون أنهم مسلمون ويعتقدون عقيدة تناقض عقيدة الإسلام.

٢- الذين هم من أهل الكتاب.

٣- المشركون ويشمل الصابئة والمجوس والهندوك وجميع من ليسوا من أهل الكتاب.

وهؤلاء جميعاً يتركون وما يعتقدون وما يعبدون، ويسيرون في أمور الزواج والطلاق حسب أديانهم، وتعين الدولة لهم قاضياً منهم ينظر في خصوماتهم هذه في محاكم الدولة، وأما المطعومات والملبوسات فإنهم يعامون بشأنها حسب أحكام دينهم ضمن النظام العام، ويعامل غير أهل الكتاب كمعاملة أهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام في حق المجوس "سنوا بهم سنة أهل الكتاب".

أما المعاملات والعقوبات فإنها تنفذ على غير المسلمين كما تنفذ على المسلمين سواء بسواء، فتقام العقوبات على غير المسلمين كما تقام على المسلمين، وتنفذ وتفسخ معاملات غير المسلمين كما تنفذ وتفسخ معاملات المسلمين سواء بسواء، من غير تفريق أو تمييز بين شخص وآخر لأن جميع من يحملون التابعية على اختلاف أديانهم وأجناسهم ومذاهبهم، مخاطبون بأحكام الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات والعقوبات، ومكلفون باتباع الأحكام والعمل بها، إلا أن تكليفهم بذلك إنما هو من ناحية تشريعية قانونية لا من ناحية دينية روحية، فلا يجبرون على الاعتقاد بها لأنهم لا يجبرون على الإسلام، قال تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ ونهى رسول الله ﷺ عن أن يفتن أهل الكتاب في دينهم، ولكن يجبرون على الخضوع لأحكام الإسلام من ناحية كونها تشريعاً وقانوناً واجب التنفيذ.

والخلاصة هي أن الدولة في سياستها الداخلية تنفذ الشرع الإسلامي على جميع الذين يحملون التابعية سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ويكون تنفيذها على الوجه الآتي:

أ- تنفذ على المسلمين أحكام الإسلام جميعها.

ب- يترك غير المسلمين وما يعتقدون وما يعبدون.

ج- يعامل غير المسلمين في أمور المطعومات والملبوسات حسب أديانهم ضمن النظام العام.

د- تفصل أمور الزواج والطلاق بين غير المسلمين حسب أديانهم من قضاة منهم في محاكم الدولة لا في محاكم خاصة، وتفصل هذه الأمور بينهم وبين المسلمين

حسب أحكام الإسلام من قضاة مسلمين.

هـ- تنفذ الدولة باقي أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات ونظم حكم واقتصاد وغيرها على الجميع، ويكون تنفيذها على المسلمين وعلى غير المسلمين على السواء.

و- جميع الذين يحملون التابعية الإسلامية هم رعايا الدولة تجب رعايتهم جميعهم على السواء دون تفريق بين المسلمين وغير المسلمين.

السياسية الخارجية للدولة الإسلامية:

السياسة الخراجية هي علاقة الدولة بغيرها من الدول والشعوب والأمم، وهذه العلاقة هي رعاية شؤون الأمة خارجياً. والسياسة الخارجية للدولة الإسلامية هي علاقتها بغيرها من الدول والشعوب والأمم، وتقوم هذه السياسة الخارجية على فكرة ثابتة لا تتغير. هذه الفكرة الثابتة هي نشر الإسلام في العالم في كل أمة وكل شعب. وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وهذا الأساس لا يتغير أبداً، ولا يختلف مهما اختلف الأشخاص القائمون على الحكم، وقد كان هذا الأساس موجوداً وثابتاً في جميع العصور منذ أن استقر الرسول ﷺ حتى انتهت الدولة العثمانية بوصفها آخر الدولة الإسلامية، ولم يتغير هذا الأساس مطلقاً. فمنذ أن أقام الرسول ﷺ في المدينة بدأ يقيم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها على أساس نشر الإسلام، فعقد مع اليهود معاهدات ليتفرغ لنشر الدعوة في الحجاز، ثم عقد معاهدة الحديبية مع قريش ليتمكن من نشر الدعوة في جزيرة العرب، ثم أرسل الكتب للدول الموجودة خارج الجزيرة العربية ليقيم معها علاقات على أساس نشر الإسلام بدعوتهم للدخول فيه، ثم جاء خلفاؤه من بعده فأقاموا علاقاتهم مع الدول

جميعها على أساس نشر الإسلام، وأخذوا يحملون الدعوة الإسلامية إلى العالم، وقد كان الحكام الذين يتولون الحكم يتفاوتون في نشر الإسلام، فالأمويون كانوا أكثر فتحاً للبلدان وأكثر نشراً للإسلام في الخارج من العباسيين، والعثمانيون كانون أكثر فتحاً للبلدان وأكثر نشراً للإسلام في الخارج من المماليك، ولكن هذا التفاوت كان حسب تفاوت عناية الدولة بسياستها الخارجية، أما نشر الإسلام فقد ظل الأساس الذين تقوم عليه علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والشعوب والأمم، ولم يتغير لدى أي خليفة من الخلفاء. ووجود الدولة إنما هو من أجل تطبيق الإسلام في الداخل، وحمل دعوته في الخارج إلى العالم؛ ولذلك كانت مهمة الدولة الإسلامية في الخارج إنما هي حمل الدعوة الإسلامية. والذي يجعل نشر الإسلام أساساً للسياسة الخارجية هو أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام للناس كافة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وقال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ... ﴾ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ وأوحي إلي هذا القرآن لأنركم به ومن بلغ" وقال ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ وقد قام الرسول بتبليغ الرسالة للناس، ولما التحق بالرفيق الأعلى استمرت رسالته للناس يبلغهم إياها المسلمون، فكان حمل الدعوة الإسلامية للعالم استمراراً لعمل الرسول ﷺ، وقد سار المسلمون على ذلك واستمروا في حمل الدعوة الإسلامية، وقد قال ﷺ في خطبة الوداع: "ألا فليبلّغ الشاهد الغائب، فرب مبلَّغ أوعى من سامع" وقال: "نضّر الله أمراً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها". وهكذا كان حمل الدعوة الإسلامية أساساً لعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والشعوب والأمم في أيام الرسول، وفي أيام خلفائه من

بعده، وهذا هو الحكم الشرعي، وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ولذلك فإن السياسة الخارجية للدولة الإسلامية هي حمل الدعوة الإسلامية للعالم. وتنفذ هذه السياسة الخارجية بطريقة ثابتة لا تتغير، هي الجهاد مهما اختلف الأشخاص القائمون على الحكم، وقد كانت هذه الطريقة ثابتة في جميع العصور الوسطى منذ أن استقر الرسول ﷺ حتى انتهت آخر دولة إسلامية، ولم تتغير هذه الطريقة مطلقاً، فإن الرسول ﷺ منذ أن أقام الدولة في المدينة هيأ الجيش، وبدأ الجهاد لإزالة الحواجز المادية التي تقف دونها، فكانت قريش حاجزاً مادياً يقف في سبيل الدعوة الإسلامية، فصمم على إزالته، ثم أزال قريشاً ككيان يقف في وجه الدعوة، كما أزال غيره من الكيانات التي تقف في سبيلها، إلى أن عمّ الإسلام جميع جزيرة العرب، ثم بدأت الدولة الإسلامية تطرق أبواب الأمم الأخرى لنشر الإسلام بينهم، فوجدت كيان الحكم القائم على هذه الأمم حاجزاً مادياً يحول دون الدعوة، فكان لا بد من إزالة هذا الكيان من وجه الدعوة، والوصول إلى الشعب نفسه ليدعى إلى الإسلام بحكمه به، حتى يرى ويلمس عدل الإسلام والرفاهية والهناء في العيش تحت رايته، ويدعون إليه بالتي هي أحسن دون إكراه ولا إجبار. وهكذا استمر الجهاد طريقه لنشر الإسلام، ففتحت بالجهاد البلدان والأقطار، وأزيلت بالجهاد الممالك والدول، وحكم الإسلام الشعوب والأمم، ونشر الإسلام فاعتنقته مئات الملايين من البشر بعد أن حكموا به فكانت الطريقة التي اتبعت في تنفيذ السياسة الخارجية هي الجهاد، وكانت ثابتة لا تتغير ولن تتغير أبداً. والجهاد هو الدعوة إلى الإسلام والقتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال أو رأي أو تكثير سواد. وهو فرض بنص القرآن والحديث، وكان المسلمون لا يبدأون العدو بالقتال حتى يعرضوا عليه الإسلام أو الجزية، والحكم الشرعي في الجهاد هو أنه إذا حاصرنا الأعداء من الكفار دعوناهم إلى

الإسلام فإن أسلموا صاروا جزءاً من الأمة الإسلامية وحرم قتالهم، وإن أبوا الإسلام طلبت منهم الجزية، فإن دفعوها عصموا بها دماءهم وأموالهم، وصارت بلادهم دار إسلام تحكم بالإسلام، وصار لهم ما للمسلمين من العدل والإنصاف، ومن الحماية والرعاية والدفاع عنهم، ورعاية شؤونهم كرعاية شؤون المسلمين، بتأمين سائر الأمور التي تلزمهم في حياتهم، وعليهم ما على المسلمين من الولاء للدولة والنظام، فإن امتنع العدو عن الإسلام وعن دفع الجزية حل حينئذٍ قتاله، ولذلك لا يحل القتال إلا بعد عرض الدعوة الإسلامية على أهل البلد. وقد نص الفقهاء على أنه لا يحل لنا أن نقاتل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، وعلى ذلك فلا بد أن يسبق القتال إيجاد رأي عام عن الإسلام، وإعطاء فكرة صحيحة عن الدعوة الإسلامية، ومحاولات لإيصال أحكام الإسلام للناس، حتى يتسنى لهم إدراك ما فيه من إنقاذ لهم ولو بشكل إجمالي، وعلى الدولة الإسلامية أن تقوم بأعمال سياسية منها ما يتعلق بإعطاء معلومات واضحة عن الإسلام، وبث أفكار الإسلام، والقيام بالدعوة والدعاية للإسلام، ومنها ما يتعلق بإظهار قوة الدولة الإسلامية ومقدرتها، وإظهار صلابة المسلمين وجرأتهم، وقد كان الرسول ﷺ يقوم بأعمال عديدة في ذلك، منها إرسال الدعاة للإسلام في قلب بلاد الشرك، كما أرسل الأربعين رجلاً إلى أهل نجد ليبلغوا الإسلام، وكان يقوم بإظهار قوة الدولة كما حصل في استعراضه جيش المسلمين في المدينة يوم غزوة تبوك قبل خروجه لها ولذلك يقول الرسول عليه السلام: "نصرت بالرعب من مسيرة شهر". وكان جيش المسلمين في الدولة الإسلامية في مختلف العصور مرهوب الجانب، ولذلك كانت أوروبا تحمل فكرة عن الجيش الإسلامي هي أنه لا يغلب أبداً، وظلت تحمل هذه الفكرة عدة قرون، ولهذا لا بد من القيام بأعمال سياسية تتعلق ببث الأفكار الإسلامية، وبإظهار قوة الدولة، ثم المباشرة بالقتال.

والجهاد وإن كان الطريقة الثابتة التي لا تتغير لنشر الإسلام، ولكن الأعمال السياسية والحركات المقصودة لا بد منها قبل البدء بالقتال، وهي أمر أساسي في تركيز العلاقة بين الدولة وغيرها من الدول والشعوب والأمم على وجه معين، من حيث حسن الجوار، ومن حيث العلاقات الاقتصادية، أو غير ذلك مما يسهل أمر نشر الإسلام.

وعلى ذلك فإن الفكرة السياسية التي تقوم عليها علاقة الدولة الإسلامية مع الدول والشعوب والأمم هي نشر الإسلام بينهم وحمل الدعوة إليهم، وطريقة ذلك هي الجهاد. غير أن هناك خططاً وأساليب تضعها الدولة وسائل وأدوات للتنفيذ. فهي مثلاً تعقد معاهدات حسن الجوار لأجل مع بعض الأعداء وتحارب الآخرين كما فعل رسول الله ﷺ في أول نزوله المدينة. أو تعلن الحرب على أعدائها جميعاً، كما فعل أبو بكر حين وجه الجيوش للعراق والشام في آن واحد أو تعقد معاهدات لأَجَلٍ، حتى تتمكن من إيجاد رأي عام للدعوة، كما فعل الرسول في معاهدة الحديبية. وقد تتخذ المناوشات المحلية وسائل للإرهاب، كما حصل في السرايا التي كان يرسلها الرسول ﷺ قبل غزوة بدر، وكما حصل في أيام الأمويين على حدود الروم من فرق الصوائف والشواتي. وقد تعقد الدولة معاهدات تجارية مع بعض الدول ولا تعقدها مع دول أخرى، على أساس مصلحة الدعوة، وقد تنشئ علاقات مع دول لا تنشئها مع أخرى، حسب خطة مرسومة للدعوة، وقد تتبع أساليب الدعوة والدعاية مع بعض الدول في حين تتبع أساليب كشف الخطط والحرب الباردة مع دول أخرى، وهكذا تضع الدولة خططاً وتنفذ أساليب حسب ما يقرره نوع العمل وتقتضيه مصلحة الدعوة وكانت هذه الخطط والأساليب تسهل أمر نشر الإسلام كما تسهل أمر الجهاد. ولذلك كانت الخطط والأساليب ضرورية في السياسة

الخارجية، وكان إيجاد الرأي العام عن الإسلام وعن الدولة لدى العالم ضرورياً أيضاً، ولكن ذلك كله إنما هو لنشر الإسلام بواسطة طريقة نشره وهي الجهاد في سبيل الله.

الفتوحات الإسلامية هي لنشر الإسلام:

لما كانت الأمة الإسلامية مكلفة بحمل الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة كان لزاماً على المسلمين أن يتصلوا بالعالم، وكان لزاماً على الدولة الإسلامية أن تقوم بهذا الاتصال فتبلغ الدعوة وتتخذ الطريقة التي قررها الإسلام لنشر هذه الدعوة، ولذلك كان من المحتم أن تقوم الدولة الإسلامية بفتح البلدان، وأن تكون لها تلك الفتوحات الكبيرة. وما هذه الفتوحات إلا تنفيذ لما على المسلمين من واجب، هو تبليغ الإسلام للناس على وجه يلفت النظر، بإقامة أحكامه عليهم، ونشر أفكاره بينهم، ولذلك لم تكن الفتوحات الإسلامية من أجل استغلال الشعوب واستعمارها، ولا من أجل ما في بلادها من خيرات، وإنما كانت من أجل شيء واحد هو حمل الدعوة الإسلامية إليها، لإنقاذها مما هي فيه من حياة شقية ومن نظام فاسد، ويظهر ذلك في نشأة الدولة الإسلامية وفي سر الفتوحات الإسلامية وفي فرضية الجهاد.

وقد نشأت الدولة الإسلامية نشأة قوية متركزة، نشأة اتساع ونمو، نشأة انتشار وفتح، فكانت بذرة إنشائها بذرة إنشاء دولة عالمية لا دولة محلية؛ لأن عقيدتها عقيدة عالمية، إذ هي عقيدة للإنسان، ولأن نظامها نظام عالمي، إذ هو نظام للإنسان، فكان طبيعياً أن تنتشر، وكان طبيعياً أن تفتح البلاد، لأن طبيعة إنشائها توجب ذلك وتحتمه. وها هو ذا الرسول ﷺ يبايعه المسلمون بيعة العقبة الثانية، يبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، ولو أدى ذلك إلى فناء الأموال وقتل الأشراف، يبايعونه على السمع والطاعة في عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرههم، وأن يقولوا

الحق أينما كان لا يخافون في الله لومة لائم، يبايعونه على الموت في سبيل حماية الدعوة الإسلامية، وليس لهم مقابل ذلك كله إلا الجنة. وهؤلاء هم نواة جيش الدولة الإسلامية التي حملت الإسلام، فكيف يكون هذا الجيش الذي بايع هذه البيعة، ولماذا أنشئ هذا الجيش، وما هي مهمته الحربية التي تبدو في هذه البيعة. أليست هي مهمة حمل دعوة الإسلام، وهي وحدها التي جاءوا من أجلها وبايعوا عليها واستعدوا للموت في سبيلها.

وقد وضع ﷺ خطة الفتوحات قبل وفاته، فإنه عليه الصلاة والسلام بعد أن قامت الدولة الإسلامية في الجزيرة وضع خطة نشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة بإرساله الكتب في السنة السابعة للهجرة إلى كسرى وقيصر وإلى غيرهما من الملوك والأمراء يدعوهم جميعاً للإسلام، وبغزوتي مؤتة وتبوك، وبإعداده جيش أسامة، وقد قام خلفاؤه من بعده بتنفيذ هذه الخطة حين أخذوا يفتحون البلدان التي خاطبها الرسول ﷺ بالإسلام، ثم تتالت الفتوحات الإسلامية على هذا الأساس، ولذلك لم تفرق الدولة الإسلامية في فتحها للعالم بين أن تفتح مصر بخيراتها وسهولة فتحها، وبين أن تفتح شمال أفريقيا على صحراويتها ووعورتها وفقرها وصعوبة فتحها ومشقة نشر الإسلام فيها، لأنها إنما تفتح لنشر الإسلام وحمل دعوته، وذلك يقتضيها أن تدخل كل بلد مهما يكن فقره أو غناه، وأن تواجه كل شعب مهما يكن استسلامه أو مقاومته؛ لأن نشر الإسلام وحمل دعوته للناس لا يعرف فقر بلد أو غناه، ولا قبول أهله أو رفضهم، وإنما يعرف شيئاً واحداً هو حمل الدعوة الإسلامية قيادة فكرية تنبثق عنها أنظمة الحياة، وأن يكون هذا الحمل لجميع الناس في جميع البلاد.

وقد بين القرآن الكريم للمسلمين أسباب القتال وفريضة الجهاد بأنها لا تكون إلا في سبيل الإسلام وحمل رسالته للعالمين. وهناك آيات مستفيضة الكثرة تأمرهم بالقتال من أجل الإسلام، قال تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقال في سورة التوبة ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فهذه الآيات وغيرها هي التي أمرت بالجهاد وهي عينت للمسلمين الغاية من الفتوحات وهي التي كانت تدفعهم إلى هذه الفتوحات.

وعلى ذلك فإن حمل الدعوة الإسلامية هو الذي أقيمت الدولة الإسلامية على أساسه، وأنشئ الجيش الإسلامي من أجله، وفرض الجهاد في سبيله، وكانت الفتوحات سائرة بحسبه. وحمل الدعوة الإسلامية هو الذي يعيد للمسلمين دولة الإسلام.

تركيز الفتوحات الإسلامية:

لقد فتح المسلمون البلدان وحكموها بالإسلام، وقد فرض عليهم الإسلام تولي الحكم والقيادة، ولا يجوز لهم أن يحكموا من قبل غير المسلمين، قال تعالى في سورة النساء ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ وجعل العزة للمؤمنين، قال تعالى في سورة المنافقين: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ولكن الله لم يعطهم العزة ولم يولهم الحكم والقيادة إلا لما تحقق فيهم من نفسية إسلامية تجعل الحكم لتطبيق الإسلام وحمل دعوته لا شهوة حكم وسلطان، ولما وجد لديهم من عقلية إسلامية تفهم معنى الحكم وتدرك حقيقة مسؤوليته عند

الله، وقد ظهر نور الإسلام في أعمال هؤلاء الحكام وأقوالهم كما ظهر هذا النور في تطبيق الأحكام على الناس الذي يحكمونهم، وقد كان من جرّاء تطبيق أحكام الإسلام على الناس أن دخلوا في دين الله أفواجا واعتنقوا عقيدة الإسلام، وصاروا مسلمين لهم العزة ولهم القيادة والحكم، وأصبحت بلادهم دار إسلام وبلاداً إسلامية، فتركزت الفتوحات الإسلامية بحكمها بالإسلام، ثم بدخول أهلها في الدين الجديد، حتى كان فتح المسلمين لأي بلد فتحاً أبدياً إلى يوم الدين سلخ هذا البلد وأهله عن حالهم الأولى إلى حال ثانية، وأحالهم من كفار إلى مسلمين، كما أحال بلادهم من دار كفر إلى دار إسلام، وظلت دار إسلام حتى ذهب حكم الإسلام عنها، ولكن أهلها ظلوا مسلمين، وظلت بلاداً إسلامية حتى بعد ذهاب حكم الإسلام منها وتقلص ظل الدولة عنها، وإذا كانت الدولة الإسلامية قد ذهبت فإن البلاد التي فتحها المسلمون لا تزال بلاداً إسلامية، ولا يزال أهلها مسلمين، ولا تزال محلاً لعودة حكم الإسلام إليها ونشر سلطان الدولة الإسلامية فوق ربوعها.

والذي ركز الفتوحات الإسلامية تركيزا دائمياً جعل الإسلام فيها ثابتاً إلى يوم الدين عدة أمور، منها ما سهل حكمها جميعها من أول يوم كالتشريع، ومنها ما هيأ أهلها لدخول الإسلام كطريقة الحكم وسلوك الحكام، ومنها ما ركز الإسلام في نفوس من أسلموا تركيزا أبدياً كعقيدة الإسلام وتبني الأحكام، ويمكن إجمالي هذه الأمور في عدة نقاط منها:

١- إن الإسلام عقلي في عقيدته، فكري في آرائه وأحكامه، فهو يفرض على معتنقه أن يؤمن به عن طريق العقل وأن يفهم أحكامه بالعقل، ولذلك كان مجرد اعتناقه يحيل الإنسان إلى إنسان مفكر حين يلفت نظره إلى مخلوقات الله ليدرك وجود خالقه، وحين ينبه فيه الفكر لبحث الأحكام الشرعية ليستنبطها

ويعالج مشاكله بها، وبذلك يكون قد ركز الإسلام في نفسه أبدياً حين يعتقده بشكل قطعي ويفهم أحكامه ويطبقها.

٢- يقضي الإسلام على معتنقه بالقراءة والدرس، وليس يكفي المسلم أن ينطق بالشهادتين ليتعلم الإسلام ويفهمه، بل لا بد من تعلمه والتثقف به بعمق واستنارة ووعي، وهذا التعلم يوسع أفق المسلم، وينمي معارفه، ويخصب عقليته، ويجعله معلماً لغيره.

٣- إن طبيعة مبدأ الإسلام وأحكامه الشرعية توجب أن تكون طريقة تعلمها ارتقائية مؤثرة في المتعلم وفي الوسط الذي يعيش فيه، ولذلك كان المسلمون يتعلمون الإسلام للعمل به، وكانوا يتلقون أحكامه تلقياً فكرياً، فكان هذا مؤثراً في مشاعرهم، ولذلك كان إحساسهم بالحياة وتبعاتها إحساساً ناتجاً عن فكر مؤثر، فنتج عنه ما كان يشاهد في المسلمين من التلهب والحماس للإسلام ومن الفكر وغزارة المعرفة وسعة الأفق، لأن العقيدة الإسلامية قد غرست في نفوسهم غرساً، ولأن آراء وأفكار وأحكام الإسلام قد أخذوها بعد درس وتمحيص، ولأن الناحية العملية كانت هي المسيطرة.

فهم لم يتعلموا الإسلام لمجرد العلم فقط، وإلا لكانوا مجرد كتب تحوي معلومات عن الإسلام، ولا سمعوه مجرد سماع مواعظ وإرشادات، وإلا لكانوا سطحيين لا حرارة للإيمان عندهم، بل تجنبوا هاتين الناحيتين الخطرتين، وهما تعلم الإسلام حقائق مجردة للتعلم فقط وأخذه مواعظ وإرشادات فحسب.

وحصروا طريقة أخذهم المفاهيم والأحكام بطريقة الإسلام، التي هي أخذ

الإسلام بعمق وتفهم ووضوح، لتطبيقه عملياً في معترك الحياة.

٤- إن الإسلام ارتقائي يأخذ بيد معتنقه ليسير به في طريق الكمال، فهو يفرض أعمالاً معينة على المسلم، والقيام بهذه الأعمال يأخذ بيد الإنسان إلى مرتقى من الكمال يتمتع فيه بالسمو الروحي والاطمئنان النفسي والسعادة الحقة، وبجعل الإنسان ثابتاً على هذا المرتقى لا ينحدر عنه، وإنه وإن كان الارتقاء في طريق الكمال إلى المرتقى العالي صعباً، فإن الثبات عليه أصعب، ولذلك كانت هذه الأعمال دائمية وليست مؤقتة، حتى يظل الإنسان في سموه وارتقائه.

وهذه الأعمال هي العبادات، منها ما هو فرض، ومنها ما هو فوق الفرض. والقيام بالفروض من قبل جميع الناس يحقق حداً مشتركاً في الرقي لا بد منه، والقيام بما هو فوق الأرض يحفز على الاندفاع في طريق الكمال.

وليس القيام بهذه العبادات بالأمر الشاق العسير، ولا بالشيء المرهق المضني، وليس فيه حرمان من متاع الدنيا وملذاتها، ولا إعراض عن مباهجها ومسراتها، ولا كبت للغرائز ولا مخالفة للطبائع، كلا، وإنما القيام بهذه العبادات بالنسبة للفرض أمر ميسور لكل إنسان مهما تكن قواه ومهما تكن إرادته، وهي لا تحول بينه وبين زينة الدنيا، كما أن القيام ما هو فوق هذه الفروض أمر مندوب يقوم بها المسلمون بشوق وشغف، ويقبلون عليها ليقوموا بأكثر مما فرض، وهم يشعرون الشعور العميق بأنهم ينعمون برضوان من الله.

٥- كان المسلمون يفتحون البلاد لحمل الدعوة الإسلامية إليها ونشرها فيها، ولذلك كانوا يشعرون أنهم رسل رحمة وهداية، فكانوا يدخلون البلد

فيحكمونه بالإسلام، وبمجرد دخول أهل البلاد في الذمة يصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ويصبح لتلك البلاد المفتوحة من الحقوق والواجبات في الدولة ما لأي بلد آخر من بلاد المسلمين، وتصبح قطعة منها، لأن نظام الحكم نظام وحدة، ولهذا لم يكن أهل البلاد المفتوحة يشعرون بأنهم مستعمرون، ولا يحسون بأي ناحية تشم منها رائحة الاستعمار؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يقبل الناس على الإسلام بعد أن رأوا- عملياً- حقيقة الإسلام في الكيفية التي يحكم بها المسلمون.

٦- أن مبدأ الإسلام وأحكامه عامة لجميع الناس، ويباح تعلمها لجميع الناس، بل يفرض تعليمها لجميع الناس حتى يتذوقوا حلاوة الإسلام ويدركوا حقائقه. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرسل الولاة والحكام والمعلمين يحكمون الناس بالإسلام ويعلمونهم أحكامه، وكذلك كان المسلمون من بعده يفتحون البلدان، ويقيمون بها الحكام والمعلمين، ويفقهون الناس بالإسلام، ويعلمونهم أحكام القرآن. فأقبل أهل البلاد المفتوحة على المعارف الإسلامية حتى أصبحت ثقافتهم ثقافة إسلامية، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام.

٧- إن الشريعة الإسلامية شريعة عالمية كاملة. ولذلك كان المسلمون حين يفتحون البلدان، لا يحتاجون إلى تعرف شريعة أهلها وقوانينهم، ولا للتوفيق بين ما يحملونه من أحكام لمعالجة مشاكل الحياة وبين القوانين التي كانت تطبق على البلاد المفتوحة، بل كانوا يفتحون البلد ومعهم الشريعة الكاملة، فكانوا يطبقون الإسلام من أول يوم يفتحون فيه البلاد. وكانت طريقتهم في التطبيق

انقلابية، ليس فيها تدريج أو ترقيع، ولا يراعون الواقع الذي يجدونه، لأنهم إنما فتحوا البلاد لتبليغها الإسلام وليغيروا واقعها الفاسد وحياته المضطربة، وهو يقضي برفع النظام القديم ووضع النظام الجديد وضعاً شاملاً. ولهذا كان يسهل عليهم حكم البلاد من أول يوم. وكان يتركز حكمهم تركزاً تاماً، ولم يعانوا أزمة قانونية ولا حالة انتقالية، لأنهم يحملون دعوتهم، وهي عقيدة تنبثق عنها الأنظمة والقوانين والأحكام، وهي شريعة تطبق على كل إنسان في كل زمان ومكان.

صهر الشعوب وجعلها أمة واحدة:

توفى رسول الله ﷺ بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام وبعد أن قضي على الشرك فيها وبعد أن أصبحت دار إسلام تحكم بالإسلام كله عقيدة ونظاماً، وبعد أن أكمل الله الدين وأتم بنعمته على المسلمين ورضي لهم الإسلام ديناً وبعد أن بدأ بدعوة الأمم والشعوب المجاورة بإرسال الكتب إلى ملوكها وحكامها، وبالسرايا والغزوات على حدود الروم في مؤتة وتبوك. وقد جاء بعده الخلفاء الراشدون فتتابعت الفتوحات، ففتح العراق وكان يسكنه خليط من النصارى والمزدكية والزرادشتية من العرب والفرس، وفتحت فارس وكان يسكنها العجم وقليل من اليهود والرومانيين وكانت تدين بدين الفرس، وفتحت الشام وكانت إقليماً رومانياً يتثقف بثقافة الرومانيين ويتدين بالنصرانية يسكنه السوريون والأرمن واليهود وبعض الرومان وبعض العرب، وفتحت مصر وكان يسكنها المصريون وبعض اليهود وبعض الرومان، وفتحت شمال أفريقيا وكان يسكنها البربر وكانت في يد الرومان. وجاء بعد الخلفاء الراشدين الأمويون، ففتحوا السند وخوارزم

وسمرقند وأدخلوها ضمن أراضي الدولة الإسلامية، ثم فتحت الأندلس وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وكانت هذه الأقطار المتعددة متباينة القوميات واللغة والدين والتقاليد والعادات والقوانين والثقافة، وطبيعياً كانت مختلفة العقلية مختلفة النفسية، ولذلك كانت عملية صهرها ببعضها وتكوين أمة واحدة منها موحدة الدين واللغة والثقافة والقوانين أمراً عسيراً وعملاً شاقاً، يعتبر النجاح فيه شيئاً غير عادي، ولم يحصل لغير الإسلام، ولم يتحقق إلا للدولة الإسلامية. فإن هذه الشعوب جميعها بعد أن ظللتها الراية الإسلامية وحكمتها الدولة الإسلامية ودخلت في الإسلام صارت أمة واحة هي الأمة الإسلامية، وذلك بتأثير حكمهم بالإسلام، وبتأثير اعتناقهم عقيدته، ولقد عمل على صهر هذه الشعوب عدة أمور أهمها أربعة أمور هي:

١- أوامر الإسلام.

٢- اختلاط المسلمين الفاتحين بغيرهم من الأمم المفتوحة في المسكن والعيش.

٣- دخول أهل البلاد المفتوحة بجملتهم في الإسلام.

٤- الانقلاب الذي حصل لمن أسلموا ونقلهم من حال إلى حال.

أما أوامر الإسلام فهي تقضي بأن يدعو أهله له وأن يحملوا دعوته وينشروا هدايته حيثما استطاعوا، وهذا يقضي بالجهاد وفتح البلاد حتى يتمكن الناس من فهمه والوقوف على حقيقة أحكامه. ويقضي بترك الاختيار للناس إن شاءوا اعتنقوه وإن شاءوا ظلوا على دينهم، واكتفى بإخضاعهم لأحكامه في شؤون المعاملات والعقوبات، ليحصل الانسجام في أعمال الناس بتوحيد النظم التي تعالج مشاكلهم

وتنظم أعمالهم، وليشعر غير المسلمين بأنهم كالمسلمين يشاركون المجتمع في تطبيق النظام الذي يطبق فيه، ويتمتعون بالطمانينة، ويستظلون براية الدولة.

وأوامر الإسلام تقضي بأن ينظر إلى المحكومين نظرة إنسانية لا نظرة عنصرية أو طائفية أو مذهبية، ولذلك تطبق الأحكام على الجميع بالسواء لا فرق بين المسلم وغير المسلم، قال تعالى في سورة المائدة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ويتساوى في الحكم والقضاء جميع الناس، فالحاكم حين يرعى شؤون الناس ويحكمهم، والقاضي حين يقضي بينهم لا ينظر لمن يحكمهم ويقضي بينهم أي نظرة سوى النظرة إلى الإنسان ليرعى شؤونه ويفصل خصوماته. ويقضي نظام الحكم في الإسلام بالوحدة بين أجزاء الدولة، كما يقضي بضمان حاجات كل ولاية فيها بالإنفاق عليها من بيت مال الدولة، بغض النظر عما يجبى منها قل أو كثر، وفى بهذه الحاجات أم لم يف. كما يقضي بوحدة المالية بجبايتها لبيت المال من جميع الولايات، وبذلك تصبح جميع البلدان المفتوحة ولايات في دولة واحدة تجعلها في الحكم سائرة سيراً حتمياً في طريق الانصهار.

وأما اختلاط المسلمين الفاتحين بغيرهم فكان من أكبر العوامل أثراً في دخولهم الإسلام وانصهارهم مع سائر المسلمين. وذلك أن المسلمين بعد أن فتحوا البلاد سكنوها وصاروا يُعَلِّمُون أهلها الإسلام ويثقفونهم بالثقافة الإسلامية، وسكنوا معهم في بيوت متجاورة حتى صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعاً، وقد اشتركوا في جميع شؤون الحياة وصاروا جميعاً سكان بلد واحد تطبق عليهم أحكام واحدة، ولم يكونوا فئتين، فاتحاً ومفتوحاً وغالباً ومغلوباً، وإنما كانوا جميعاً رعية الدولة يتعاون أفرادهم في شؤون الحياة جميعاً، ورأوا في الحكام نوعاً آخر من الناس

لم يكونوا يعرفونهم، رأوهم يساوونهم بأنفسهم ويقومون هم بخدمتهم في شؤونهم وفي خواص حاجاتهم، فرأوا صفات عالية حببت إليهم هؤلاء الحكام وحببت إليهم الإسلام، وكان الحكام وسائر المسلمين يتزوجون من أهل الكتاب ويأكلون ذبائحهم وطعامهم، فكان هذا الاختلاط حافزاً لدخولهم الإسلام؛ لأنهم رأوا أثر الإسلام في الحكام، كما رأوا نوره في تطبيق النظام، وبذلك انصهرت هذه الشعوب بعضها ببعض وصارت أمة واحدة.

وأما دخول البلاد المفتوحة في الإسلام فقد كان بشكل عام، وكان أهل كل قطر يدخلون في دين الله أفواجاً، حتى دخلت الجمهرة الساحقة من أهل البلدان المفتوحة في الإسلام، وظل الناس يدخلون في الإسلام جماعات، وصار الناس في جملتهم مسلمين، ولم يبق الإسلام مقصوراً على الفاتحين. وبدخول أهل البلاد في الإسلام انصهروا مع الفاتحين فصاروا أمة واحدة.

وأما الانقلاب العام الذي أحدثه الإسلام في الذين أسلموا، فذاك أن الإسلام رفع المستوى العقلي عندهم فأوجد لديهم العقيدة الإسلامية فكانت قاعدة فكرية تبنى عليها جميع الأفكار وتقاس صحتها وفسادها بمقياس هذه القاعدة، ولذلك نقلهم من الإيمان الوجداني إلى الإيمان العقلي، ومن عبادة الأصنام والنار والتثليث وما شاكل ذلك وما تقتضيه هذه العبادة من انحطاط في النظر وإسفاف في الفكر إلى عبادة الله وما تقتضيه من فكر مستنير ونظر واسع. وجعلهم يصدقون بالحياة الأخرى، ويتصورونها بالصورة التي أوضحها لهم في الكتاب والسنة وأوضح ما فيها من عذاب ونعيم، فصاروا يتصورونها ويرون أنها هي الحياة الحقيقية، وبذلك صار للحياة عندهم معنى وقيمة لأنها طريق لحياة أخرى أسعد وأخلد، ولهذا اقبلوا على هذه الحياة الدنيا ولم يهملوها وأخذوا بأسبابها وتمتعوا بزينة الله التي أخرج لعباده

والطيبات من الرزق، وجعل للحياة مقاييس صحيحة وتصويراً حقيقياً. فبعد أن كان مقياس الحياة هو المنفعة فقط، وكانت هذه المنفعة هي المسير للأعمال وهي الغاية من الأعمال وهي قيمة العمل، صار مقياس الحياة هو الحلال والحرام، وصار تصوير الحياة هو بأنها حلال وحرام، وصار المسير للأعمال والموجه لها هو أوامر الله ونواهيه، وصارت الغاية من تسيير الأعمال بأوامر الله ونواهيه هي رضوان الله، وصارت قيمة العمل هي ما يقصده من القيام به، فتكون روحية إن كان صلاة أو جهاداً أو ما شاكلها، وتكون مادية إن كان بيعاً أو إجارة أو ما شاكلها، وتكون خلقية إن كان أمانة أو رحمة أو ما شاكلها، فصاروا يميزون بين الموجّه للعمل، وبين قيمة العمل الذي قام بالعمل من أجلها، وبذلك جعل تصوير الحياة لهم مختلفاً عن تصويرها السابق وجعله تصويراً حقيقياً لحقيقة الحياة بالمقياس الذي وضعه له وهو أوامر الله ونواهيه أي الحلال والحرام.

وجعل للسعادة معنى حقيقياً في نظرهم، فبعد أن كانت السعادة عندهم إشباع الجوعات وإعطاء الجسد مُتَعَهُ، صارت السعادة هي نوال رضوان لله؛ لأن السعادة هي الطمأنينة الدائمة للإنسان، وهي لا تتأتى بالملذات ولا بالشهوات، وإنما تتأتى بنوال رضوان رب العالمين.

وهكذا فإن الإسلام أثر في وجهة نظر الشعوب التي اعتنقته للحياة وللأعمال التي يقومون بها في هذه الحياة، وغيّر مراتب الأشياء فرفع من مرتبه أشياء وخفض مرتبة أخرى، فبعد أن كانت الحياة هي أعلى مرتبة عند الإنسان والمبدأ هو أقل مرتبة منها، قلب هذه المراتب فجعل المبدأ في المرتبة الأولى، وجعل الحياة في مرتبة أقل، وبذلك صار يبذل المسلم حياته في سبيل الإسلام؛ لأنه أغلى قيمة من الحياة، ومن باب أولى أن يتحمل المشقات والمصاعب في سبيل الإسلام، وبذلك وضعت

الأشياء التي في الحياة في المراتب اللائقة بها، فصارت الحياة سامية وصار يشعر المسلم في هذه الحياة بالطمأنينة الدائمة، وقد رسم للعالم كله مثلاً أعلى واحداً لا يتعدد، وثابتاً لا يتغير، ألا وهو رضوان الله تعالى. وبذلك تغير المثل الأعلى عند الناس، فبعد أن كانت لتلك الشعوب مُثُل عليا متعددة، متغيرة، صار لهم مثل أعلى واحد ثابت. وتبعاً لتغير المثل الأعلى عند الشعوب والأمم تغيرت معاني الأشياء عندهم عما كانت عليه وتغير مفهوم الفضائل عما كان عليه. فالشجاعة الشخصية، والشهامة الفردية، والمناصرة العصبية، والتفاخر بالأموال والأحساب، والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص للقبيلة أو للقوم، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر وما شاكل ذلك كانت أصول الفضائل، فجاء الإسلام ولم يجعلها أصول الفضائل ولم يتركها كما هي عليه بل جعلها صفات يتصف الإنسان بما أمر الله به منها إجابة لأمره تعالى لا لذات الفضائل، ولا لما فيها من منافع، ولا لما تجره من مفاخر، ولا لأنها عادات وتقاليد وتراث ينبغي أن يحافظ عليها. ثم جعل الخضوع لله ولأوامره ونواهيه هو الواجب، فأوجب إخضاع منافع الفرد والقبيلة والشعب والأمة لأوامر الإسلام فحسب.

وهكذا نقل الإسلام عقلية الشعوب التي اعتنقته، كما نقل نفسيتهم، وبذلك أصبحوا بعد دخولهم في الإسلام غيرهم قبل دخوله في شخصيتهم كلها وفي تقديرهم للكون والإنسان والحياة ومقاييسهم لجميع الأشياء في الحياة. وصاروا يفهمون أن للحياة معنى خاصاً هو السمو والكمال، وصار لهم مثل أعلى واحد ثابت هو رضوان الله، وصار نيل هذا المثل الأعلى، أي نيل رضوان الله، هو السعادة التي ينشدون، وبذلك صاروا خلقاً آخر غير خلقهم الأول.

وبهذه الأشياء الأربعة انسلخت جميع الشعوب التي دانت للدولة الإسلامية عن حالها الأول، فتوحدت أفكارها ووجهة نظرها في الحياة، حتى صارت فكراً واحداً ونظرة واحدة، وتوحدت معالجات مشاكلها بعلاج واحد، وتوحدت مصالحها فصارت مصلحة واحدة هي مصلحة الإسلام، وتوحدت أهدافهم في الحياة فصار هدفاً واحداً هو إعلاء كلمة الله. فكان حتمياً أن تنصهر هذه الشعوب جميعها في بوتقة الإسلام، فتصبح أمة واحدة هي الأمة الإسلامية.

عوامل ضعف في الدولة الإسلامية:

تقوم الدولة الإسلامية على مبدأ الإسلام، فيه قوتها وبه وحده بقاؤها وبه وحده ارتقاؤها فهو قوام وجودها؛ ولذلك قامت الدولة الإسلامية قوية لقوة الإسلام، وفتحت أقطاراً واسعة من العالم في مدة أقل من قرن مع أن وسيلة مواصلاتها كانت الخيل والإبل، ودانت جميع الشعوب والأمم المفتوحة بالإسلام في مدة وجيزة مع أن أداة نشرها لم تكن واسعة وما كانت سوى اللسان والقلم، غير أن الذي حقق ذلك كله بهذه السرعة هو الإسلام الذي جعل للدولة هذه القوة.

وقد أدرك أعداء الإسلام ذلك وعرفوا أنهم لن يستطيعوا إضعاف الدولة ما دام الإسلام قوياً في نفوس المسلمين قوياً في فهمه قوياً في تطبيقه، فعمدوا إلى إيجاد الوسائل التي تضعف فهم المسلمين له وتضعف تطبيقهم لأحكامه.

أما الوسائل التي استعملوها لإضعاف فهمه فكثيرة، منها ما يتعلق بنصوصه، ومنها ما يتعلق باللغة التي يؤدّى بها، ومنها ما يتعلق بانطباقه على وقائع الحياة، فقد عمدوا إلى الأحاديث النبوية يدسون فيها أحاديث مكذوبة لم يقلها الرسول ﷺ ولكنهم زوروها وضمنوها معاني غير إسلامية ومفاهيم تناقض الإسلام حتى يأخذها المسلمون ويعملون بما فيها فيبعدون عن الإسلام.

وبالفعل كذبوا على الرسول أحاديث كثيرة دسوها بين الأحاديث وأشاعوها بين الناس، غير أن المسلمين فطنوا لهؤلاء الزنادقة وقضوا على مؤامراتهم، فهب العلماء ورواة الحديث يجمعون الحديث ويضعون تاريخ رواته وأوصافهم ويبينون الحديث الصحيح من الضعيف المكذوب، حتى حفظ الحديث فحصرت رواية الحديث في تابعي التابعين عن التابعين عن الصحابة ولم تقبل بعدهم أي رواية، وحصر الرواة وعرف كل واحد منهم، وبينت طبقات كتب الحديث، حتى أصبح بإمكان المسلم إذا تتبع الحديث أن يعرف صحته من ضعفه من كذبه، بمعرفة سنده ومتنه، وفوق ذلك فإن الدولة الإسلامية ضربت على يد هؤلاء الزنادقة بيد من حديد حتى كان جزاء الكثيرين منهم القتل جزاء على افترائه الأحاديث على رسول الله ﷺ، وبذلك لم يكن لهذه المؤامرة على الإسلام ولا على الدولة أثر يذكر، فعمدوا إلى اللغة العربية لأنها اللغة التي يؤدى بها الإسلام، وصاروا يحاولون فصلها عن الإسلام، ولكنهم لم يستطيعوا في أول الأمر؛ لأن المسلمين اندفعوا في الفتوحات وهم يحملون الكتاب والسنة واللغة العربية، وكانوا يعلمون الناس اللغة العربية كما يعلمونهم القرآن والحديث، فدخل الناس في الإسلام وحذقوا اللغة العربية وأتقنوها، حتى كان منهم أئمة مجتهدون كأبي حنيفة، وشعراء مبدعون كبشار بن برد، وكتاب بليغون كابن المقفع. وكان حِرْصُ المسلمين على اللغة العربية شديداً، والإمام الشافعي لم يجز ترجمة القرآن ولم يجز الصلاة بغير اللغة العربية. والذين أجازوا ترجمة القرآن كأبي حنيفة فإنهم لا يُسَمّون المُتَرْجَم قرآناً مطلقاً، وهكذا ظلت العناية منصبّة على اللغة العربية؛ لأنها جزء جوهري في الإسلام وشرط من شروط الاجتهاد فيه، ولا يتأتى فهم الإسلام من مصادره واستنباط الأحكام منه إلا باللغة العربية. إلا أن هذه العناية فقدت بعد القرن السادس الهجري حين تولى الحكم من لا يعرف للغة

العربية قيمتها، فأهمل أمرها، وبذلك وقف الاجتهاد وصار لا يمكن استنباط الأحكام لمن لا يعرف هذه اللغة فانفصلت اللغة العربية عن الإسلام، واضطرب على الدولة فهم الأحكام، وبالطبع اضطرب عليها تطبيقها، فكان لذلك أثر كبير على الدولة أضعفها وأضعف فهم الحوادث المتجددة، مما جعل المشاكل التي تحدث لا تعالج أو تعالج معالجة غير صحيحة، فجعل هذا أمام الدولة مشاكل تتراكم إلى أن سببت لها الهزال والاضمحلال. هذا كله بالنسبة لنصوص الإسلام واللغة التي يفهم بها. أما بالنسبة لانطباق الإسلام على وقائع الحياة فقد عمدوا في القرون الأولى إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة الهندية والإسلام، وفسر الزهد في الدنيا وطلب الآخرة بالتقشف وتعذيب الجسد، فصرف الكثيرين عن مباهج الحياة وعن خوض غمارها، مما جعلهم غير عاملين في حقل الدولة الإسلامية وفي معترك حياة المسلمين، فأفقد الدولة الكثير من جهود أبناء الأمة كان يمكن أن تستخدمها في الدعوة إلى الإسلام بدل أن تعطل في تعذيب الأجساد، ثم كان الغزو الثقافي من الغرب لبلاد المسلمين يحمل حضارة وتناقض حضارة الإسلام، ويوهم المسلمين أنه أخذها منهم، ويأتيهم بأنظمة تناقض نظام الإسلام، ويوهم المسلمين أنها تتفق مع أحكام الإسلام، ويعطيهم قوانين تناقض الأحكام الشرعية، ويبين للمسلمين أنها لا تخالف الإسلام، فأثر ذلك على المسلمين تأثيراً كبيراً، أدى إلى أن تتحكم فيهم الحضارة الغربية، فيرون الحياة بأنها المنفعة، وأدى إلى أن يأخذوا ببعض الأنظمة الغربية في الدولة العثمانية، فيؤولون الربا ويفتحون المصارف، وأدى إلى أن يأخذوا القوانين الغربية، فيعطلون الحدود الشرعية ويأخذون من الغرب قوانين العقوبات، فكان هذا العمل طامة كبرى على الدولة أبعدها عن الحكم بالإسلام، وإن كانت قد تذرعت بالفتاوى في جواز

هذه الأعمال. فكان بعدها هذا قد أضعف فيها حرارة الإيمان، وبالطبع صارت تسير على غير هدى، فأدى ذلك إلى الضعف والانحلال.

هذا من ناحية الفهم، أمامن ناحية التطبيق فقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى إساءة التطبيق، منها أن الأحزاب السياسية التي كانت ترى أن رأيها هو الذي يجب أن ينفذ قد اتخذت الأعمال الحربية طريقة للوصول إلى الحكم لتطبق رأيها، ولم تتخذ الأمة طريقة لذلك، فقام العباسيون واستولوا على فارس والعراق واتخذوها نقطة ارتكاز انتقلوا منها حتى استولوا على الدولة ليكون الحكم في بني هاشم، ثم كان الفاطميون الذين أخذوا مصر وأقاموا بها خلافة ليتخذوا منها نقطة ارتكاز ينتقلون منها ليستولوا على الدولة الإسلامية ليكون الحكم في أبناء فاطمة رضي الله عنها، فأوجد في الحالة الأولى صدمة أوقفت الفتوحات عند حد، وشغلت الدولة بالداخل. وأوجدوا في الثانية خلافتين في آن واحد مع أن الدولة الإسلامية واحدة ولا يجوز أن يكون للمسلمين خليفتان لأن الرسول ﷺ يقول "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما" فكان لذلك أثر في إضعاف الدولة، وفي وقوفها عن الفتح وعن حمل الدعوة. إلا أن الذي أدى إلى اتخاذ الأحزاب السياسية هذه الطريقة ما حصل من الخلفاء الأمويين من اتباع طريقة العهد للخليفة ثم البيعة له، مما لم يجعل الأمل موجوداً في انتظار البيعة والاعتماد عليها في الوصول إلى الحكم، فقد عهد معاوية إلى ابنه يزيد وأخذ البيعة له، ثم صار كل خليفة يعهد إلى من بعده، ثم يبايعه الناس، وهذا وَجَّهَ المسلمين لمبايعة من يعهد إليه بالخلافة، وقلما يبايعون شخصاً آخر فحملت هذه الطريقة الأحزاب السياسية لأن تتخذ القوى طريقة الوصول إلى الحكم.

ومع أن العهد طريقة اتخذها أبو بكر في عهده إلى عمر، إلا أن إساءة تطبيقها أدى إلى هذه النتائج، فأبو بكر أخذ رأي المسلمين فيمن يكون خليفة بعده، وظهر من

المذاكرة أن المرشحين للخلافة محصورون بعلي وعمر، ثم كان العهد لعمر فانتخب، وبعد وفاة أبي بكر حصلت البيعة لعمر، وهذا أمر شرعي، غير أن الخلفاء الذين عهدوا فيها بعد لغيرهم قد أساءوا تطبيق هذه الطريقة، فجعلوا العهد لأبنائهم أو إخوانهم أو من أسرتهم، وجعلوه لأكثر من واحد في بعض الأحيان، فكانت إساءة التطبيق هذه سبباً في حرمان المسلمين من بيعة من يريدون، فأدى إلى ضعف الدولة. غير أن هذا لم يؤثر يوم كانت الدولة قوية، ولكنه ظهر أثره فيما بعد حين ضعفت الدولة، على أن الأمر في الدولة لم يقتصر على أمر بيعة الخليفة، بل تعدى ذلك إلى الولاة، فإن سكوت الدولة العباسية على عبد الرحمن الداخل في الأندلس وتركها له يستقل فيها، قطع من الدولة الإسلامية جزءاً يدار إدارة منفردة من قبل ولاة أطلقوا على أنفسهم فيما بعد اسم أمير المؤمنين، وأنه وإن كانت الأندلس لم تنفصل عن جسم الدولة ولم ينفصل المسلمون فيها عن باقي المسلمين، وظلوا جزءاً من الأمة الإسلامية ولكنها مع ذلك كانت منفصلة الإدارة، فأدى ذلك إلى تسرب الضعف لها مما سهل استيلاء الكفار عليها وأخذهم لها والدولة الإسلامية في عنفوان مجدها وفي أوج قوتها ولم تستطع أن تدفع عنها عادية الأعداء للانحلال الذي كان في كيان الأندلس. هذا في المغرب، أما في المشرق فإن إعطاء الولاية العامة للولاة، وجعل الصلاحيات الواسعة لهم حرك فيهم أحاسيس السيادة وأطمعهم، فاستقلوا بالإدارة الداخلية، ورضي الخليفة منهم ذلك، واكتفى بالدعاء له على المنابر، وفي صدور براءة التعيين منه، وفي ضرب النقد باسمه، وإرسال الخراج له. فكانت الولايات في استقلالها الداخلي تشبه الدويلات، كما كان الحال مع السلجوقيين والحمدانيين وغيرهم، وهذا أيضاً كان من أسباب الضعف، فكانت جميع هذه الأمور سبباً أدى إلى ضعف الدولة الإسلامية، إلى أن جاء العثمانيون وحولوا الخلافة لهم، ووحدوا أكثر

البلاد الإسلامية تحت سلطانهم، ثم حملوا الدعوة لأوروبا واستأنفوا الفتوحات، إلا أن ذلك كله لم يكن مستنداً على أساس فهم صحيح للإسلام، وتطبيق كامل له، ولذلك لم تنتج هذه الفتوحات ما أنتجته الفتوحات الأولى، ولم تكن القوة أساسية في الأمة الإسلامية كلها، ولهذا ما لبثت هذه الدولة أيضاً لأن ضعفت ثم انهارت وذهبت الدولة الإسلامية، ولم يكن ذهابها إلا أثراً للعوامل الكثيرة التي تحصل، وللمكائد المتعددة التي كانت تحاك لها من أعداء الإسلام، وتتلخص عوامل ضعف الدولة التي سببت ذهابها في عاملين اثنين: ضعف فهم الإسلام، وإساءة تطبيقه. ولذلك فإن الذي يعيد دولة الإسلام هو فهم الإسلام فهم صحيحاً، والذي يحفظ قوة الدولة هو استمرارها على الفهم الصحيح للإسلام وإحسانها تطبيقه في الداخل وحمل دعوته إلى الخارج.

انحلال الدولة الإسلامية:

لقد بدأ الضعف الفكري في الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري حين قام بعض العلماء ينادون بسد باب الاجتهاد، وكان ذلك نذير ضعف الدولة ومع أنه وجد بعد ذلك مجتهدون، غير أن الضعف الفكري أخذ يستفحل، فأثر ذلك على كيان الدولة، حتى تسرب التفكك إليه، واستولى عليها الوهن، وما إن جاءت الحروب الصليبية حتى كانت الدولة في حال لم تجعلها قادرة على الثبات أمام الصليبيين، ووقعت الدولة في حروب متتالية استمرت زهاء قرنين، كان النصر في أول الأمر حليف الصليبيين، فاستولوا على جزء من البلاد الإسلامية، ثم استطاعت الدولة أن تنقذ البلاد الإسلامية من أيديهم، فانتقل الحكم إلى المماليك الذين أهملوا أمر اللغة العربية، وأهملوا أمر النواحي الفكرية والتشريعية، فأغلق باب الاجتهاد وضعف فهم الإسلام، وأوجب العلماء التقليد، فازداد الوهن في كيان الدولة،

وكانت غزوة التتار، فزادت الطين بلة، وأضعفت من قوة الدولة، إلا أن ذلك كله أثر على كيان الدولة الداخلي ولم يؤثر على كيانها الخارجي، ولم يضعف موقفها الدولي، وظلت الدولة الإسلامية قوية الشكيمة، مرهوبة الجانب، تمثل في العالم المعمور الشطر الأكبر والأقوى فيه، وتسلمت الدولة العثمانية حكم أكثر العالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري، الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، وفي القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي ضمت إليها البلاد العربية، وامتد سلطانها امتداداً كبيراً، وعنيت بقوة السلطان وتنظيم الجيش، وأبهة الحكم، واشتغلت بالفتوحات، وأهملت أمر اللغة العربية، مع أنها ضرورية لفهم الإسلام، وشرط من شروط الاجتهاد، ولم تعن بأمر الإسلام من حيث الفكر، ومن حيث التشريع، فانخفض مستواها الفكري والتشريعي، وبسبب ذلك كانت الدولة قوية قوة ظاهرية، ولكنها في الحقيقة ضعيفة ضعفاً بيِّنًا، بسبب الضعف الفكري والتشريعي، إلا أن هذا الضعف لم تلاحظه الدولة الإسلامية حينئذٍ، لأنها كانت في عنفوان مجدها، وفي أوج عظمتها، وفي منتهى قوتها العسكرية. ولأنها كانت تقيس فكرها وتشريعها وحضارتها بأفكار أوروبا وتشريعها وحضارتها، فتجد نفسها خيراً من أوروبا فكراً وتشريعاً وحضارة، فترتاح لذلك وترضى بهذا الضعف؛ لأن أوروبا كانت تتخبط في دياجير الجهالة وظلام الفوضى والاضطراب، وتتعثر في محاولات النهضة وتفشل في كل محاولة تقوم فيها. ولذلك كان قياس الدولة العثمانية حالها بحال أوروبا يريها أنها في وضع حسن، وعلى نظام صالح، وذات حضارة فائقة، وقد عميت عن حالتها الداخلية فلم تشاهد الهزال الداخلي، ولم تشاهد جمود الفكر وجمود التشريع وتفكك الأمة. وقد أعماها عن رؤية ذلك انتصارها على أوروبا واستيلاؤها على البلقان والجزء الجنوبي الشرقي منها، مما أثار الرعب في جميع دول أوروبا من الدولة العثمانية

بوصفها دولة إسلامية، وصار متركزاً عند الجميع أن الجيش الإسلامي لا يغلب، وأنه لا قبل لأحد بمواجهة المسلمين.

وظهرت المسألة الشرقية للوجود، وكان معناها حينئذٍ اتقاء الخطر من زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري. (الخامس عشر الميلادي)، ومن خلفه من السلاطين، ذلك الزحف الذي استمر إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري على يد سليمان القانونية وتركز تركزاً قوياً حتى أواسط القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. وفي هذه المدة كانت قوة الاستمرار في الدولة الإسلامية عاملاً فعالاً في إعطاء الدولة هذه القوة، فقد كانت قوة العقيدة عند المسلمين، ووجود مفاهيم معينة عن الحياة رغم عدم بلورتها في أذهانهم، ووجودها نظام الإسلام في الحياة رغم إساءة تطبيقه، كل ذلك سند الدولة ومكّنها من الاستمرار والقوة. وساعدها على ذلك الحال المضطربة فكرياً وتشريعياً في اوروبا، وكان من الممكن أن تحاول الدولة فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن تعنى باللغة العربية، وتشجّع الاجتهاد، وتهتم بالناحية الفكرية والتشريعية، حتى يحصل تركيز هذه الدولة تركيزاً متيناً، وحتى يكون انطلاقها في الكرة الأرضية انطلاقاً كاملاً، فتفتح بالإسلام باقي أجزاء العالم، حاملة لهم الإسلام، وبذلك تركز دولتها، وتطبع العالم بالحضارة الإسلامية، وتنقذ بني الإنسان مما هم فيه من فساد وشرور. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولم يكن تشجيع اللغة العربية سوى إعطاء العرب بعض مناصب التدريس وبعض المناصب العلمية، مما لم يكن له أي أثر في تقوية اللغة، ولا في إيقاظ الفكر؛ لأنه لم يعمل على إحياء هذه اللغة، وجعلها وحدها لغة الدولة كما هو الواجب في الدولة الإسلامية، ولأنه لم يعمل شيء بالنسبة للناحية الفكرية ولا الناحية الفقهية، ولذلك لم تؤثر هذه الحركة الضعيفة المغلوطة، وظل الحال سائراً في

سبيله المعوج، وما إن أتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) حتى تحول الأمر وبدأ الضعف الداخلي يبرز؛ لأن كيان الدولة كان قائماً على بقايا النظام الإسلامي الذي يساء تطبيقه، وعلى أفكار مضطربة منها الإسلامية ومنها الدخيلة على الإسلام، وكان الحكم في جملته في جو النظام الإسلامي أكثر منه في نظام الإسلام، من جرّاء الفهم المغلوط للأفكار الإسلامية، ومن جرّاء إساءة تطبيق نظام الإسلام، لفقدان الاجتهاد وعدم وجود المجتهدين. وما إن جاء القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي حتى كان ميزان التاريخ بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية في تأرجح، فأخذت كفة العالم الإسلامي تخف في الوزن، وكفة الدول الأوروبية ترجح شيئاً فشيئاً. فقد بدأت اليقظة في أوروبا، وبدأت تظهر نتائجها وبدأت تظهر على المسلمين نتائج الجمود الفكري وسوء التطبيق للإسلام. وذلك أن القرن التاسع عشر شاهد انقلاباً خطيراً في الأفكار الأوروبية على أثر المجهود العظيم الذي بذله الفلاسفة والكتاب والمفكرون، والتغيير الشامل الذي طرأ على الفكر الأوروبي لإحياء الشعوب، فنشأت الحركات المتعددة التي كان لها أثر في إحداث آراء جديدة في وجهة النظر في الحياة. وكان من أهم ما وقع تعديل الأنظمة السياسية والتشريعية وكافة أنظمة الحياة، فقد زال شبح الملكية المستبدة تدريجياً في أوروبا، وحلت محلها أنظمة حكومية جديدة قائمة على الحكم النيابي وسيادة الأمة، فكان لهذا أثر كبير في توجيه النهضة الأوروبية، كما كان للانقلاب الصناعي الذي ظهر في هذا القرن في أوروبا الأثر الفعال. كما ظهرت الاختراعات المتعددة. فكان لذلك في مجموعة الأثر الفعال في تقوية أوروبا وفي تقدمها الفكري والمادي. وكان من جرّاء هذه القوى المادية والتقدم العلمي أن رجحت كفة العالم الأوروبي على العالم الإسلامي في الموقف الدولي رجحاناً عظيماً فتغير مفهوم المسألة

الشرقية، فلم تعد مسألة اتّقاء الأخطار الإسلامية على أوروبا، وإنما صارت مسألة الإبقاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها، حيث اختلفت عليها الدول تبعاً لاختلافها في المصلحة، وكان هذا الانقلاب في مفهوم المسألة الشرقية وما طرأ على أحوال أوروبا من الارتفاع الفكري والتقدم العلمي، والثورة الصناعية؛ وما طرأ على العثمانيين من الضعف والتفكك محاولة المفكرين فيها، كل ذلك أدى إلى هذا الانقلاب السياسي بين الدولة الإسلامية ودول الكفر، فرجحت كفة الأوروبيين وخفت كفة المسلمين.

وكان سبب هذا الانقلاب السياسي في حالة أوروبا محاولة المفكرين فيها الوصول إلى نظام للحياة. وقد كان اتخاذهم وجهة نظر معينة في الحياة، واعتناقهم عقيدة معينة، وبناء النظام على أساسها، هو الذي قلب مفاهيم الأشياء عندهم وقلب مراتب القيم لديهم، مما أدى إلى الانقلاب العام في الحياة، ومما ساعد على وجود الانقلاب الصناعي العظيم. بخلاف الحال في العالم الإسلامي أو في الدولة العثمانية التي كانت تتزعمه، فإنها بدل أن تنظر لأوضاعها النظرة الصحيحة، وتفكر في مبدئها التفكير العميق، وتثير الأفكار وتعمل على إيجاد الاجتهاد، وتعالج مشاكلها حسب الأحكام المنبثقة عن عقيدتها، وتقبل على العلم والصناعة، بدل أن تفعل كل ذلك أصابتها حيرة وقلق مما حصل في أوروبا، ووقفت جامدة من جرّاء هذه الحيرة، ونتج عن ذلك تخلف الدولة العثمانية من الناحية العلمية والصناعية، فتخلفت في الرقي المادي وتخلفت عن باقي الدول. والسر في ذلك هو أن الدولة العثمانية دولة إسلامية، والشعوب التي تحكمها شعوب مسلمة. والإسلام هو عقيدة الدولة وهو نظامها، وأفكاره أفكارها، ووجهة نظره في الحياة هي وجهة نظرها، فكان عليها أن تنظر إلى الأفكار الجديدة التي حصلت في أوروبا وتقيسها بقاعدتها الفكرية، وأن تنظر

إلى المشاكل الحديثة من وجهة نظر إسلامية فتعطي حكمها على الأفكار والمشاكل كل باجتهاد صحيح حسب وجهة نظر الإسلام، فتَبِتّ في شأنها من حيث الصحة والفساد، ولكنها لم تفعل؛ لأن الأفكار الإسلامية لم تكن واضحة لديها، فلم تكن لها مفاهيم محددة. ولأن العقيدة الإسلامية لم تكن قاعدة فكرية تبنى عليها جميع الأفكار، وإنما كانت عقيدة تقليدية. فكان الأساس الذي تقوم عليه الدولة وهو العقيدة والأفكار غير واضح لدى الدولة، وكان النظام جامداً لعدم وجود الاجتهاد، وكانت الحضارة التي هي مجموع المفاهيم عن الحياة غير مبلورة وغير مقترنة باعمال الدولة، فسبب ذلك الانحطاط الفكري وعدم وجود نهضة، ولهذا وقفوا مبهوتين أمام ما شاهدوه في أوروبا من الانقلاب الفكري والصناعي، فلم يقطعوا بأخذه، ولم يقطعوا بتركه، ولم يميزوا بين ما يجوز أن يأخذوه من علوم وصناعات واختراعات، وبين ما لا يجوز أن يأخذوه من فلسفة تعين وجهة النظر في الحياة، وحضارة هي مجموع المفاهيم عن الحياة. وبذلك جمدوا ولم يتحركوا، فكان هذا الجمود سبباً في وقوف عجلتهم في حين كانت عجلة الدول الأوروبية تسير، وما ذلك كله إلا بسبب عدم فهمهم الإسلام فهما صحيحاً، وعدم إدراكهم التناقض بين الأفكار الأوروبية وأفكارهم، وعدم تمييزهم بين العلم والصناعات والاختراعات مما يحثهم الإسلام على أخذها، وبين الفلسفة والحضارة والفكر مما يمنعهم الإسلام من أخذها.

نعم لقد عمي الإسلام على العثمانيين فلم يفهموه فهماً صحيحاً، وكانت هذه التعمية هي التي جعلت الأمة والدولة تعيش كيفما اتفق، دون أن تعنى بما عندها من نظام، في حين أن خصومها تمسكوا بنظام معين وساروا عليه، وبذلك صارت أوروبا صاحبة مبدأ مهما كانت عقيدته، ومهما كانت فلسفته. وصارت الأمة الإسلامية صاحبة المبدأ الصحيح تعيش في خيال هذا المبدأ الذي يطل عليها من وراء القرون،

لأنها كانت تعيش في وضع يساء فيه تطبيق مبدئها. ومع أن الرسول ﷺ يقول "تركت فيكم ما أن تمسكتم به أن تضلوا كتاب الله وسنتي" ومع أن الدولة إسلامية، والأمة إسلامية، ومع أن الثروة الفكرية والفقهية كانت في متناول الأيدي" إلا أن الدولة لم تفهم معنى هذا الحديث لترجع إلى الإسلام في أصوله على أساس أنه عقيدة ونظام، ولم تنتفع بهذه الثروة التي لا مثيل لها عند الأمم.

نعم لم تنتفع بذلك لأنه لما وقف الاجتهاد ووقف النشاط الفكري ضعفت المفاهيم الإسلامية عند المسلمين، وتخلفت المعارف الإسلامية، وبقيت الكتب والثروات العلمية محفوظة في خزائنها، ولم يعد هنالك علماء مفكرون إلا قليلون، وقلت الرغبة في البحث والتنقيب عن الحقائق، وصارت المعارف لا تطلب للعمل بها في الدولة وفي معترك الحياة؛ لأن الدولة لا تشجعها، بل صار العلماء يطلبون العلم والثقافة للترف العقلي ويطلقون عليه أنه طلب العلم للعلم، أو يطلبون العلم للارتزاق. وقل منهم من يطلب العلم لنفع الأمة والدولة. وبسبب هذه الحالة لم تعد هناك حركة علمية أو ثقافية أو تشريعية، فكان من جرّاء ذلك اضطراب فهم الإسلام، وصار المسلمون يفهمون الإسلام فهما روحياً أكثر منه فهماً فكرياً وسياسياً وتشريعياً؛ إذ عميت فكرته الأصلية وطريقته التي تنفذ بها هذه الفكرة، فعمي عليهم فهم الكتاب والسنة وصاروا يفهمون أن الإسلام مجرد دين روحي، ويقارنون بينه وبين باقي الأديان بماله من مميزات عليها كأديان روحية، بدل أن ينظروا إليه عقيدة ونظاماً لجميع شؤون الحياة. ولذلك لم يكن غريباً أن تقف الأمة الإسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية موقف الجمود والحيرة والقلق من الحركة الانقلابية التي حصلت في أوروبا، وأن تظل متأخرة تأخراً ظاهراً دون أن تتأثر بالرقي الاقتصادي الذي شمل أوروبا، ولا بتعدد الاختراعات التي كانت فيها، ولا بالحركة

الصناعية التي سادتها، اللهم إلا تأثراً جزئياً بشكل مضطرب مشوش لم تكن له فائدة، ولم يمكنها من التقدم المادي، بل لم يمكنها من وقف عجلة التأخر التي كانت تهوي بها إلى الانخفاض والضعف. وسبب ذلك يرجع إلى أنهم لم يفرقوا بين العلم والثقافة، وبين الحضارة والمدنية، ولذلك وقفوا تجاهها وقفة الحائر، أياخذونها أم يتركونها، فكثيرون كانوا يرونها أنها جميعها تتعارض مع الإسلام، ولذلك نادوا بتحريم أخذها. حتى إنه حين ظهرت المطابع وعزمت الدولة على طبع القرآن الكريم حرم الفقهاء حينئذٍ طبعه، وصاروا يفتون بتحريم كل جديد، وتكفير كل من يتعلم العلوم الطبيعية، واتهام كل مفكر بالزندقة والإلحاد؛ وكان هناك جماعة قليلون يرون ضرورة أخذ كل شيء من الغرب، من علم وثقافة وحضارة ومدنية، وهؤلاء كانوا من الذين تعلموا في أوروبا أو في المدارس التبشيرية التي كانت قد دخلت البلاد، وهؤلاء لم يكن لهم تأثير في أول الأمر، وجمهرة الناس كانت تحمل فكرة محاولة التوفيق بين الإسلام وبين الثقافة والعلوم والحضارة والمدنية التي يحملها الغرب، فقد سادت في أواخر الدولة العثمانية فكرة مؤداها أن الغرب أخذ حضارته من الإسلام، وإن الإسلام لا يمنع أخذ ما يرافقه والعمل بما لا يخالفه، وقد نجح الغرب في نشر هذه الفكرة حتى سادت وحملتها جمهرة الناس ولا سيما المتعلمين، وكثير منهم من الفقهاء والعلماء، وكانوا يسمونهم علماء عصريين، وأطلق عليهم أنهم مصلحون. ونظراً للتناقض الحقيقي بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وللتباين الواضح بين الثقافة الغربية وما تتضمنه من معانٍ تتعلق بوجهة النظر في الحياة، وبين الثقافة الإسلامية وما تتضمنه من معانٍ تتعلق بطريقة الحياة. نظراً لهذا التناقض لم يمكن التوفيق بين ما في الإسلام وما في الأفكار الغربية، فأدى ذلك إلى بُعْدِ هؤلاء عن الإسلام. وقربهم من الأفكار الغربية بشكل مشوش فعجزوا عن فهم أفكار الغرب

وابتعدوا عن الإسلام فكان لذلك أثر كبير في إهمال الاختراعات والعلوم والصناعات، وأثر كبير في سوء فهم الإسلام. أدى إلى تحويل الأمة إلى هذه المجموعة المتناقضة في الأفكار وإلى عدم استطاعة الدولة أن تجزم في فكر معين كما أدى إلى إعراض الأمة عن الأخذ بوسائل الرقي المادي من العلوم والاختراعات والصناعات فضعفت ضعفاً ظاهراً حتى أصبحت غير قادرة على الوقوف، وعاجزة عن حماية نفسها، فكان من جرّاء هذا الضعف أن أخذ أعداء الإسلام يقتطعون أجزاء الدولة الإسلامية جزءاً جزءاً وهي عاجزة مستسلمة، وأخذ الغزو التبشيري باسم العلم يتغلغل في كيان الأمة الداخلي يفرق صفوفها، ويشعل نار الفتنة داخل البلاد الإسلامية. ونجحت الحركات المتعددة التي تهدم جسم الدولة، وظهرت فكرة القومية، في جميع أجزاء الدولة، في البلقان، وتركيا، والبلاد العربية، وأرمينيا، وكردستان، وما إن جاءت سنة ١٩١٤ حتى كانت الدولة على شفا جرف هار، فدخلت الحرب العالمية الأولى وخرجت منها مهزومة، فقضي عليها. وبذلك ذهبت دولة الإسلام وتحقق للغرب الحلم الذي كان يداعبهم قروناً طويلة، وهو القضاء على الدولة الإسلامية للقضاء على الإسلام. وبذهاب الدولة الإسلامية صار الحكم في جميع البلاد الإسلامية غير إسلامي، وصار المسلمون يعيشون تحت راية غير إسلامية، فاختل أمرهم، وساء حالهم، وصاروا يعيشون على نظام الكفر، ويحكمون بأحكام الكفر.

الغزو التبشيري:

اخذت أوروبا تغزو العالم الإسلامي غزواً تبشيرياً باسم العلم، ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة. أو بعبارة أخرى غزواً استعمارياً عن طريق التبشير باسم العلم والإنسانية. وذلك لتمكين دوائر الاستخبارات السياسية، ودوائر الاستعمار

الثقافي التمركز في البلاد، حتى كانت طليعة الاستعمار الغربي، وبهذا فسح المجال لهذا الاستعمار، وفتح باب العالم الإسلامي على مصراعيه، وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثير من البلدان الإسلامية. وكان معظمها جمعيات انكليزية وفرنسية وأمريكية. فتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها، وأصبحت هذه الجمعيات مع الزمن هي الموجهة للحركات القومية. وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين، أو توجيه القومية العربية والقومية التركية لغرضين رئيسين: الأول فصل العرب عن الدولة العثمانية المسلمة، للإجهاز على دولة الإسلام، وأطلقوا عليها اسم (تركيا) لإثارة النعرة العنصرية، والثاني إبعاد المسلمين عن الرابطة الحقيقية التي لم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام. وقد انتهوا من الغرض الأول وبقي الثاني قائماً. ولذلك سيظل التوجيه إلى القومية عند الترك والعرب والفرس وغيرهم هو الأسفين الذي يفرق وحدة المسلمين، ويعميهم عن مبدئهم. وقد مرت هذه الجمعيات التبشيرية بأدوار عديدة، وكان أثرها بليغاً في العالم الإسلامي، ومن نتائجه ما نعانيه اليوم من ضعف وانحطاط، لأنها كانت اللبنة الأولى التي وصلت في السد الذي أقامه الاستعمار بيننا وبين النهوض، وحال به بيننا وبين مبدئنا وهو الإسلام. والذي حمل الأوروبيين على إنشاء الجمعيات التبشيرية في العالم الإسلامي، هو ما عانوه في الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد وذلك أن الغربيين حين لاقوا المسلمين في ساحة النزال كانوا يعتمدون على أمرين حسب رأيهم، وكانوا يعلقون أهمية كبرى على هذين الأمرين للقضاء على الإسلام والمسلمين القضاء التام.

أما أولهما فهو اعتمادهم على النصارى الذين كانوا يسكنون العالم الإسلامي إذ كان في البلاد الإسلامية نصارى كثيرون، وخاصة في بلاد الشام. وكان هؤلاء

النصارى ممن يتمسكون بدينهم، فكانوا يعتبرونهم إخواناً في الدين وظنوا أنهم سيكيدون للمسلمين، وسيكونون عيناً لهم عليهم، بحجة أنهم أثاروا حربهم هذه حرباً دينية.

وأما الأمر الثاني فقد كانوا يعتمدون على كثرة عددهم، وعظم قوتهم، على حين كان المسلمون متقاطعين متدابرين، قد بدأ الانحلال يدب في كيانهم فظنوا أنهم إذا هزموهم أول هزيمة أخضعوهم إلى الأبد، وسهل القضاء عليهم وعلى دينهم، ولكن خاب فألهم ولم يصدق حدسهم. وكم كانت دهشتهم عظيمة حين رأوا أثناء الحروب أن النصارى العرب وقفوا بجانب المسلمين، ولم تؤثر فيهم الدعايات، وكانوا يحاربون مع المسلمين، لأنهم كانوا يعيشون في دار الإسلام، ويطبق عليهم النظام الإسلامي، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم يأكل المسلمون من طعام النصارى ويتزوج المسلم النصرانية ويصاهر أهلها ويخوضون معترك الحياة معاً لأن الإسلام ضمن لهم جميع حقوقهم، وسار على العمل بذلك الخلفاء والحكام، وكان عليه العمل في دولة الإسلام، وقد نص القوافي وابن حزم (على أن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحربيون لبلادنا، وقصدوهم في جوارنا، أن نموت في الدفاع عنهم، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالاً لحقوق الذمة) ويقول القرافي (إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم، وسد خلة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم مع القدرة على الدفع، رفقاً بهم لا خوفاً ولا تعظيماً، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم، ودفع من تعرض لإيذائهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يفعله)، وهذا كله جعل النصارى يدافعون طبيعياً مع المسلمين، وكانت دهشتهم أعظم حين رأوا أن الأمر الثاني لم

يحقق ظنهم. وذلك أنهم قد استولوا على بلاد الشام وهزموا المسلمين شر هزيمة واستعملوا أشد الفظائع، وكانوا أول من ابتدع مع المسلمين إجلاءهم عن ديارهم. وساروا على ذلك في جميع حروبهم مع المسلمين. وظلت هذه طريقتهم حتى الآن كما حصل في فلسطين، وكانوا يظنون أن الأمر قد استتب لهم، وأنه لن تقوم للمسلمين قائمة. ولكن المسلمين ظلوا مصممين على إخراجهم من بلادهم، وبالرغم من مكثهم مدة تقرب من قرنين، أقاموا فيها ممالك وإمارات في بلاد الشام، فإن المسلمين استطاعوا في النهاية أن يتغلبوا على الصليبيين، وأن يطردوهم من ديارهم.

وقد بحثوا عن السر في ذلك كله فوجدوه في الإسلام، لأن عقيدته هي منشأ هذه القوة العظيمة في المسلمين، وأحكامه بالنسبة لغير المسلمين ضمنت لهم حقوقهم فنتج هذا التماسك بين الرعية، ولذلك فكر الكافر المستعمر في طريقة يغزو بها هذا العالم الإسلامي، فوجد أن خير طريق هي سلوك الغزو الثقافي عن طريق التبشير ليكسبوا النصارى إلى جانبهم، وليثيروا شكوك المسلمين في دينهم، ويزعزعوا عقيدتهم. وبذلك يوجدون الانقسام بين المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية، ويضعفون قوة المسلمين.

ونفذوا ذلك بالفعل، فأسسوا في أواخر القرن السادس عشر مركزاً كبيراً للتبشير في مالطة، وجعلوها قاعدة هجومهم التبشيري على العالم الإسلامي إذ منها كانت ترسل قوات التبشير، فإنهم بعد أن استقر بهم المقام ومكثوا مدة، شعروا بضرورة مد نشاطهم، فانتقلوا لبلاد الشام سنة ١٦٢٥م، وحالوا إيجاد الحركات التبشيرية، غير أن نشاطهم كان محدوداً جداً، لم يتعد تأسيس بعض المدارس الصغيرة، ونشر بعض الكتب الدينية. وعانوا مشقات كبيرة من اضطهاد وإعراض ومحاربة من

الجميع. إلا أنهم ثبتوا حتى سنة ١٧٧٣م، حيث ألغيت الجمعيات التبشيرية لليسوعيين، وأغلقت مؤسساتهم ما عدا بعض الجمعيات التبشيرية الضعيفة كجمعية المبشرين العازاريين. وبالرغم من وجودها انقطع أثر المبشرين والتبشير، ولم يعد لهم وجود إلا في مالطة حتى سنة ١٨٢٠م، حين أسس أول مركز للتبشير في بيروت، وبدأ نشاطهم فيها فلاقوا صعوبات كثيرة، وبالرغم من هذه الصعوبات استمروا في عملهم، وكانت عنايتهم الأولى منصرفة إلى التبشير الديني والثقافة الدينية، وكانت عنايتهم بالتعليم ضعيفة، وفي سنة ١٨٣٤م انتشرت البعثات التبشيرية في سائر بلاد الشام، ففتحت كلية في قرية عنتورة في لبنان، ونقلت الإرسالية الأميريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت، لتقوم بطبع الكتب ونشرها. ونشط المبشر الأمريكي المشهور (إيلي سميث) نشاطاً ظاهراً. وقد كان هذا المبشر في مالطة يشتغل في التبشير متطوعاً، ويتولى أمر مطبعة الإرسالية. وفي سنة ١٨٢٧م حضر لبيروت، ولكنه ما لبث سنة حتى تولاه الذعر والملل، ولم يطق صبراً فرجع إلى مالطة، ثم عاد إلى بيروت سنة ١٨٣٤م، وفتح هو وزوجته مدرسة للإثاث، واتسع المجال أمامه ووقف حياته للعمل في بيروت بوجه خاص وفي بلاد الشام بوجه عام، وبذلك تعاونت هذه الجهود جميعاً في بعث حركة التبشير، وكان قيام إبراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليم الابتدائي في سوريا- مستوحى من برنامج التعليم الموجود في مصر المأخوذ عن برامج التعليم في فرنسا- فرصة لهؤلاء المبشرين، فاغتنموها وساهموا في الحركة التعليمية من وجهة النظر التبشيرية، ثم شملت حركة الطباعة. وبذلك نشطت الحركة التبشيرية، وشاركت في الحركة التعليمية مشاركة ظاهرة. وقد استطاعوا بنشاطهم هذا أن يوغروا الصدور بين رعايا الدولة الإسلامية باسم الحرية الدينية. وأوجدوا بين المسلمين والنصارى والدروز نشاطاً دينياً يتصل بالعقيدة.

وحين انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠م، من بلاد الشام انتشر القلق والفوضى والاضطراب فيها، وانقسم الناس على أنفسهم، واغتنم الموفدون الأجانب- لا سيما رجالات البعثات التبشيرية- ضعف نفوذ الدولة العثمانية في البلاد، وحينئذٍ أخذوا يشعلون نار الفتنة. وما مر عام واحد وحلت سنة ١٨٤١م، حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها، حتى اضطرت الدولة العثمانية- بتأثير ضغط الدول الأجنبية- أن تضع للبنان نظاماً جديداً تقسمه فيه إلى قسمين: يسود النصارى في قسم منه، ويسود الدروز في القسم الآخر، وتعين حاكماً للقسمين. وأرادت بذلك أن تتفادى الاحتكاك بين الطائفتين. غير أن هذا النظام لم ينجح، لأنه لم يكن طبيعياً. وقد تدخلت كل من انجلترا وفرنسا في هذا الخلاف، وكانتا تشعلان نار الفتنة كلما حاول القائمون على الأمر أخمادها. وأخذ الإنكليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاك بين الطوائف ذريعة للتدخل في شؤون لبنان. وانحاز الفرنسيون إلى جانب الموارنة، وانحاز الإنكليز إلى جانب الدروز، مما أدى إلى تجدد الاضطرابات سنة ١٨٤٥م، بشكل فظيع، شمل الاعتداء فيه الأديرة والكنائس، واستعمل فيه السلب والنهب والقتل، مما اضطر الحكومة العثمانية إلى إرسال ناظر خارجيتها إلى لبنان، ليتلافى الأمر بما لديه من الصلاحيات المطلقة. ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً هاماً، وإن كان قد أخمد الحالة نوعاً ما. إلا أن المبشرين ازداد نشاطهم. وما إن جاءت سنة ١٨٥٧م، حتى بدأت فكرة الثورة والاصطدامات المسلحة في طائفة الموارنة، فقد قام رجال الدين الموارنة بتحريض الفلاحين على الإقطاعيين، وهاجموهم في لبنان الشمالي هجوماً عنيفاً، واشتعلت نار الثورة هناك، ثم امتدت إلى الجنوب، فثار الفلاحون النصارى على الإقطاعيين الدروز. وأخذت كل من انكلترا وفرنسا تؤيد جماعتها، فالإنكليز يؤيدون الدروز والفرنسيون يؤيدون

النصارى. وبذلك توسعت الفتنة توسعاً عاماً، حتى شملت جميع لبنان. وأخذ الدروز يقتلون جميع النصارى لا فرق بين رجال الدين وغيرهم، حتى قتل وشرد آلاف من النصارى من جرّاء القسوة التي كانت تنطبع بها الاضطرابات. ثم سرت موجه الاضطرابات إلى سائر بلاد الشام، وهبت في دمشق موجة البغضاء الشديدة بين المسلمين والنصارى، أدت في شهر تموز سنة ١٨٦٠م، إلى أن يهاجم المسلمون حي النصارى، ويقوموا بمذبحة كبيرة. وقد صاحب تلك المذابح شيء من التخريب والتدمير والاضطراب، حتى اضطرت الدولة إلى وقف الفتننة بالقوة. وبالرغم من أن الاضطرابات خمدت وكادت تنتهي، إلا أن الدول الغربية رأت أن هذه هي الفرصة التي تتيح لها أن تتدخل في بلاد الشام. فأرسلت البوارج الحربية إلى سواحلها. وفي شهر آب من السنة نفسها أرسلت فرنسا حملة برية من الجيش الفرنسي، نزلت في بيروت، وأخذت تعمل لإخماد الثورة. وهكذا حصلت للدولة العثمانية في سوريا فتنة خلقتها الدول الغربية، لتكون باباً لتدخّلهم. فتدخلوا وأجبروها على أن تخضع لوضع نظام خاص لسوريا، يقسمها إلى ولايتين، وأن تمنح لبنان امتيازات خاصة، ففصلت لبنان عن سائر أجزاء البلاد الشامية، ومنحته استقلالاً ذاتياً، يتمتع فيه بنظام محلي للإدارة، على رأسه حاكم مسيحي، ويعاونه مجلس إداري يمثل السكان. ومن ذلك الحين رعت الدول الأجنبية أمر لبنان، وجعلته مركزاً لها، فكان رأس الجسر الذي نفذ منه الأجانب إلى قلب الدولة العثمانية والبلاد الإسلامية.

وفي هذه الأثناء اتخذت أعمال التبشير مظهراً آخر لم يكن موجوداً من قبل، فلم يكتفوا بحركة المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات، بل تعدوا ذلك إلى تأسيس الجمعيات ففي سنة ١٨٤٢م، تشكلت لجنة لتأسيس جمعية علمية تحت رعاية الإرسالية الأمريكية وفق برنامجها. وقد سارت هذه اللجنة في طريقها مدة خمس

سنوات، حتى تمكنت في سنة ١٨٤٢م، تشكلت لجنة لتأسيس جمعية تحت رعاية الإرسالية الأمريكية وفق برنامجها. وقد سارت هذه اللجنة في طريقها مدة خمس سنوات، حتى تمكنت في سنة ١٨٤٧م، من تأسيس جمعية سمتها (جمعية الفنون والعلوم). وكان أعضاؤها ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني من نصارى لبنان أخذتهما بوصفهما من نصارى العرب، وإيلي سميث، وكورنيليوس فان ديك من الأمريكان، والكولونيل تشرشل من الإنكليز.

وكانت أهداف هذه الجمعية في أول الأمر غامضة، ولكنها كانت تظهر بمظهر نشر العلوم بين الكبار، كما تنشر العلوم في المدارس بين الصغار. وحمل الكبار كما يحمل الصغار على تثقيفهم بالثقافة الغربية، موجهين بتوجيه خاص وفق الخطة التبشيرية. وبالرغم من نشاط رجال هذه الجمعية وبذل جهودهم الجبارة فيها، فإنه لم ينتسب لها خلال عامين سوى خمسين عضواً عاملاً من جميع بلاد الشام، كلهم من النصارى، وأكثرهم من سكان بيروت، ولم يدخل في الجمعية من المسلمين ولا من الدروز أي عضو مطلقاً. وقد بذلت جهود جبارة لتوسيعها وتنشيطها، ولكنها لم تثمر، وماتت الجمعية بعد خمس سنوات من تأسيسها، دون أن تترك إلا أثراً واحداً، هو الرغبة عند المبشرين في تأسيس الجمعيات.

ولذلك أسست جمعية أخرى سنة ١٨٥٠م باسم (الجمعية الشرقية): أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب اليسوعي الفرنسي (هنري دوبرونير). وكان أعضاؤها كلهم من النصارى، وسارت على منهاج جمعية العلوم والفنون، ولكنها لم تعش طويلاً، وماتت بعد موت الجمعية الأولى بقليل. ثم تأسست عدة جمعيات كانت كلها تصاب بالإخفاق التام، حتى تشكلت سنة ١٨٥٧، جمعية على أسلوب جديد، روعي فيها أن لا يدخلها أحد من الأجانب مطلقاً، فقد كان مؤسسوها كلهم من العرب.

وبذلك أتيح لها أن توفق إلى أن تضم بين أعضائها بعض المسلمين وبعض الدروز أخذتهم بوصفهم عرباً. وتأسست باسم (الجمعية العلمية السورية) واستطاعت بفضل نشاطها وظهورها بالمظهر العربي، وعدم وجود أي عضو فيها من الغربيين، أن تؤثر على الناس، حتى انتسب إليها عدد كبير بلغ مئة وخمسين عضواً. وكان بين أعضاء إدارتها شخصيات بارزة من العرب، منهم محمد أرسلان من الدروز، وحسين بيهم من المسلمين، وانضم إليها كذلك من كل طائفة من نصارى العرب، ومن أشهرهم إبراهيم اليازجي وابن بطرس البستاني. وهذه الجمعية الوحيدة التي عاشت مدة أطول من المدة التي عاشتها غيرها من الجمعيات. وكان من برنامجها التوفيق بين الطوائف، وبعث القومية العربية في النفوس. ولكن غايتها المخفية كانت استعمارية تبشيرية باسم العلم وكان يتجلى ببعث الثقافة الغربية والحضارة الغربية. ثم في سنة ١٨٧٥م تألفت في بيروت الجمعية السرية، وأخذت هذه الجميعة تركز نفسها على فكرة سياسية، فأخذت تبعث فكرة القومية العربية. والذين قاموا بتأسيسها هم خمسة شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت. وكانوا جميعاً من النصارى الذين استطاعت الجهات التبشيرية أن تؤثر فيهم، فقام هؤلاء الشبان بتأسيس هذه الجمعية، وبعد مضي مدة استطاعوا أن يضموا إليها عدداً قليلاً، ومع أن هذه الجمعية كان ترمي فيما بينته من أقوال ومنشورات إلى القومية العربية وإلى استقلال العرب السياسي، وخاصة في سوريا ولبنان، إلا أنه كانت يتجلى في عملها وبرامجها وما وصل عنها من أخبار، إنها ترمي إلى صب الرغبات الغامضة، والآمال المبهمة في النفوس. وكانت تدعو للقومية وللعرب والعروبة، وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها (التركية) وتعمل على فصل الدين عن الدولة وجعل القومية العربية هي الأساس. ومع أن هذه الجمعية كانت تلبس ثوب العروبة إلا أن القائمين

عليها كثيراً ما ضمنوا نشراتهم اتهام (تركيا)- حسب تعبيرهم- بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب، وأنها تجاوزت على الشريعة الإسلامية الغراء، وأنها فرطت في الدين، مما يدل على الغاية التي وجدت من أجلها، وهي إثارة القلاقل ضد الدولة الإسلامية وتشكيك الناس في الدين وإقامت الحركات السياسة على غير الإسلام والذي يجزم به من تتبع تاريخ هذه الحركات أن الغربيين هم الذين أنشأوها، وأنهم كانوا يراقبونها، ويشرفون عليها، ويهتمون بها، ويكتبون تقاريرهم عنها. فقد كتب قنصل بريطانيا في بيروت بتاريخ ٢٨ تموز سنة ١٨٨٠م برقية بعثها إلى حكومته، ونصها (ظهرت نشرات ثورية يشتبه أن يكون مدحت مصدراً لها، مع ذلك يسود الهدوء التفاصيل بالبريد)، وكانت هذه البرقية إثر توزيع الجمعية المذكورة منشورات لها في الشوارع ولصقها في الجدران في بيروت. وقد تبعت هذه البرقية عدة رسائل من القناصل البريطانيين في بيروت ودمشق. وكانت هذه الرسائل ترفق بنسخ من النشرات التي كانت توزعها الجمعية. وكانت بمثابة تقارير عن هذه الحركة التي ولدت في الكلية البروتستانتية وأخذت تعمل في بلاد الشام، يدل على ذلك أن المعتمد البريطاني في جدة كتب إلى حكومته سنة ١٨٨٢م كتاباً عن الحركة العربية جاء فيه (إلا أنه قد وصل إلى علمي أن بعض الأذهان حتى في مكة نفسها، أخذت تتحرك بفكرة الحرية، ويلوح لي بعد الذي سمعته من تلميح، أن هنالك خطة مرسومة، ترمي إلى توحيد نجد مع بلاد ما بين النهرين أي جنوب العراق وتنصيب منصور باشا عليها، وتوحيد عسير مع اليمن وتنصيب علي بن عابد عليها) ولم يقتصر الاهتمام بها على انكلترا، بل إن فرنسا كذلك كانت مهتمة إلى حد بعيد؛ ففي سنة ١٨٨٢م كتب أحد الفرنسيين الذين كانوا في بيروت ما يدل على مبلغ اهتمام فرنسا، فقد قال (إن روح الاستقلال منتشرة انتشاراً كبيراً. وقد رأيت شباب المسلمين خلال إقامتي في

بيروت منهمكين بتشكيل الجمعيات العاملة على تأسيس المدارس والمستشفيات، والنهوض بالبلاد، ومما يلفت النظر في هذه الحركة أنها محررة من أي أثر للطائفية، فإن هذه الجمعية تستهدف قبول النصارى بين أعضائها، والاعتماد على معاونتهم في العمل القومي) وكتب أحد الفرنسيين من بغداد (لقد كان يواجهني في كل مكان، وبنفس النسبة، وذلك الشعور العام المستقر "كراهية الترك" وأما فكرة القيام بعمل مشترك مرتب لطرح هذا النير البغيض فهي في دور التكوين. ويلوح في الأفق البعيد طيف حركة عربية ولدت حديثاً، وسيقوم هذا الشعب الذي كان مغلوباً على أمره حتى الآن بالمطالبة عما قريب بمركزه الطبيعي في عالم الإسلام، وفي توجيه مصير هذا العالم). ولم يقتصر أمر الاهتمام بالغزو التبشيري باسم الدين والعلم على أمريكا وفرنسا وبريطانيا، بل شمل أكثر الدول غير الإسلامية، ومنها روسيا القيصرية، فقد أرسلت بعثات تبشيرية، كما أمت بلاد الشام بعثة بروسية (ألمانية) مؤلفة من راهبات (كابزرودت) ساهمت مع باقي البعثات. وبالرغم من تباين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية وبين الموفدين الغربيين بالنسبة لمنهجها السياسي باعتبار مصالحهم الدولية، فقد كانت متفقة في الغاية، وهي التبشير بالدين المسيحي، وبعث الثقافة الغربية في الشرق، وتشكيك المسلمين في دينهم، وحملهم على الامتعاض منه، وعلى احتقار تاريخهم، وتمجيد الغرب وحضارته. كل ذلك مع بغض شديد للإسلام والمسلمين، واحتقار لهم، واعتبارهم برابرة متأخرين، كما هو رأي كل أوروبي وقد وصلوا إلى نتائج كانت هي السبب بما نراه من تركيز الكفر والاستعمار.

العداء الصليبي:

يقول أحد العلماء الفرنسيين وهو الكونت هنري دكاستري في كتابه (الإسلام) سنة ١٨٩٦م ما نصه: (لست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا

أقاصيص القرون الوسطى، وفهموا ما كان يأتي في أغاني أقوال من المسيحيين، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد، كان السبب في الحروب الصليبية. وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان. ولا يزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام. فكل منشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين) وهكذا كان يوصف المسلمون كما يوصف دينهم من قبل رجال الدين النصراني في أوروبا بأوصاف فظيعة في القرون الوسطى. وكانت هذه الأوصاف مما استعمل لإثارة الحقد والبغضاء ضد المسلمين، مما أثار العالم النصراني فكانت الحروب الصليبية. وبعد انتهائها بعدة قرون قام المسلمون في القرن الخامس عشر فغزوا الغرب، حيث فتحت الدولة الإسلامية القسطنطينية، ثم فتحت في القرن السادس عشر جنوب وشرق أوروبا وحملت الإسلام إليها، فدخل في دين الله الملايين من البانية، ويوغسلافيا وبلغاريا، وغيرها فتجدد العداء الصليبي ووجدت المسألة الشرقية، وكانت تعني العمل من جانب أوروبا لرد الجيوش الإسلامية ووقف الفتح الإسلامي ودرء خطر المسلمين. فكان هذا العداء المتأصل في نفوس الأوروبيين للإسلام والمسلمين هو الذي حمل كافة النصارى في أوروبا أن يبعثوا بالحركات التبشيرية في بلاد الإسلام، باسم المدارس والمستشفيات والجمعيات والنوادي، وأن يبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة والجهود الضخمة، وأن يتفقوا على هذه الخطة رغم اختلاف مصالحهم وتباين سياستهم، وأن يجمع على ذلك جميعهم دولاً وشعوباً، وأن يجعلوه من أعمال قناصلهم وسفاراتهم، كما هو من أعمال الموفدين والمبشرين.

وهذا العداء الصليبي الكامن في النفوس الغربية كلها، ولا سيما أوروبا، وعلى

الأخص بريطانيا، هذا العداء المتأصل والحقد اللئيم هو الذي أو جد هذه الخطط الجهنمية للقضاء على الإسلام والمسلمين، وهو الذي سبب إذلالنا في ديارنا هذا الإذلال. وإذا كان اللورد اللنبي قد قال حين فتح القدس وهو يدخلها سنة ١٩١٧ (اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية) فإنما ذلك تعبير صادق عن مكنون نفسه، وشدة بغضه، وتأصل الحقد في نفسه، وهو تعبير عن نفس كل أوروبي يخوض غمار الحرب- ثقافية أو عسكرية- ضد المسلمين وصدق الله حيث يقول ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وما بدا من فم اللورد اللنبي إن هو إلا بعض، ما كانت تخفيه دولته بريطانيا هو أكبر من ذلك ولا ريب. وكذلك ما في نفس كل أوروبي على الإطلاق.

وقد امتد هذا البغض منذ أيام الصليبيين. ولا يزال يمتد حتى اليوم. وما نلاقيه من اضطهاد وإذلال واستعمار واستغلال هو- إلى جانب الناحية السياسية التي فيه- أمر انتقامي منا نحن المسلمين بوجه خاص.

يقوم الأستاذ ليبولد فايس (محمد أسد) في كتابه "الإسلام على مفترق الطرق "إن النهضة أو إحياء العلوم والفنون الأوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص كانت تعزى في الأكثر إلى الاتصال المادي بين الشرق والغرب، لقد استفادت أوروبا أكثر مما استفاد العالم الإسلامي، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل، وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام، بل كان الأمر على العكس، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن، ثم استحالت عادة، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة (مسلم)، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوروبي رجلاً كان أو امرأة، وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي ثم جاء عهد الإصلاح

الديني حينما انقسمت أوروبا شيعاً، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها. وبعدئذٍ جاء زمن أخذ الشعور الديني فيه يخبو، ولكن العداء للإسلام استمر وإنّ من أبرز الحقائق على ذلك أن الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر، كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام. وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ علماء العرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف. أمّا فيما يتعلق بالإسلام، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً في التفكير الأوروبي). وعلى هذه الأسس قامت الجمعيات التبشيرية التي أشرنا إليها، ولذلك كانت تهدف إلى التبشير بالديانة النصرانية، وإلى تشكيك المسلمين في دينهم، وتحقيره فيي نفوسهم وتحميله تبعة ضعفهم، وتهدف إلى النواحي السياسية، ولذلك كانت نتائجها فظيعة في الناحيتين السياسية والتشكيكية، حتى وصلت إلى نتائج أكثر مما كانوا يتوقعون.

فقد كانت الحركات التبشيرية تبنى على أساس محو الإسلام بالطعن فيه، وإثارة المشاكل والشبهات حوله وحول أحكامه لصد الناس عن سبيل الله ولإبعاد المسلمين عن دينهم، وكانت من وراء هذه الحركات التبشيرية حركات الاستشراق والمستشرقين ترمي إلى ذات الغرض وعن نفس القوس.

وتوحدت الجهود كلها في أوروبا في حرب صليبية شنتها أولا من ناحية ثقافية بتسميم العقل كله بما شوهوه من أحكام الإسلام ومثله الأعلى، وبالتسميم الأجنبي لعقول أبناء المسلمين بما يقولونه عن الإسلام وتاريخ المسلمين باسم البحث العلمي

والنزاهة العلمية، وما هو إلا السم الثقافي الذي هو أخطر من الحروب الصليبية. وكما كان دعاة التبشير يقومون بهذا التسميم باسم العلم والإنسانية، كان المستشرقون يقومون به باسم الاستشراق. يقول الأستاذ ليوبولد فايس (محمد أسد) "والواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من (الوثنيين)- يعني المسلمين- غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر، مع أن علوم الاستشراق تحررت من نفوذ التبشير ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية) وهذا العداء الموروث لا يزال هو الذي يؤرث نار الحقد في نفوس الغربيين على المسلمين، ويصور الإسلام حتى في بلاد المسلمين للمسلمين وغيرهم بأنه (بعبع الإنسانية) أو المارد الهائل الذي سيقضي على تقدم الإنسانية، يسترون بذلك خوفهم الحقيقي منه، لأنه إذا تركز في النفوس، تزول سيطرة الكافر المستعمر عن العالم الإسلامي وتعود الدولة الإسلامية تحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم- وإنها لعائدة إن شاء الله- وهي في صالح الإنسانية، وفي صالح الغرب نفسه. وسيذهب عمل المبشرين وغيرهم حسرة في نفوسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ولا يزال ذلك العداء الموروث هو الذي يؤيد كل حركة ضد الإسلام والمسلمين. وإنك لتجد الغربي يبحث المجوسية والهندوكية والشيوعية فلا تجد في بحثه

أي تعصب أو بغضاء، في حين إنك تجده حين يبحث الإسلام تظهر عليه علامات البغض والحقد والمقت والكراهية، ومع أن المسلمين قد هزموا شر هزيمة، وانتصر عليهم الكافر المستعمر، لكن رجال الكنيسة الغربيين- ومن ورائهم الاستعمار لا يزالون يبدون مختلف النشاط ضد الإسلام. ولا يفترون عن الطعن في الإسلام والمسلمين، والنيل من محمد عليه الصلاة والسلام ومن أصحابه، وإلصاق المثالب بتاريخ الإسلام والمسلمين، كل ذلك للانتقام منهم وتمكين أقدام الاستعمار والمستعمرين.

آثار الغزو التبشيري:

كانت هذه الغزوات التبشيرية هي الطلائع التي مهدت الطريق للاستعمار الأوروبي ليفتح العالم الإسلامي فتحاً سياسياً بعد أن فتحه فتحاً ثقافياً.

وبعد أن كان المسلمون حملة القيادة الفكرية الإسلامية للغرب حين فتحوا استنبول والبلقان وأدخلوا الإسلام في أوروبا، صارت البلاد الإسلامية هدفاً للغرب، يحمل قيادته الفكرية إليها، ومسرحاً لحضارته ومفاهيمه عن الحياة، يذيعها بشتى الوسائل تحت اسم العلم والإنسانية والتبشير الديني. ولم يكتف بحمل حضارته ومفاهيمه، ولكنه كان يطعن الحضارة الإسلامية ومفاهيم الإسلام عن الحياة حين كان يوجه حملاته ضد الإسلام، فأثر ذلك على الفئة المثقفة، وعلى رجال السياسة، بل على حملة الثقافة الإسلامية، وعلى جمهرة المسلمين.

أما الفئة المثقفة، فإن الاستعمار في مدارسه التبشيرية قبل الاحتلال، وفي المدارس كلها بعد الاحتلال قد وضع بنفسه مناهج التعليم والثقافة على أساس فلسفته هو، وحضارته هو، ومفاهيمه الخاصة عن الحياة. ثم جعل الشخصية الغربية

الأساس الذي تنتزع منه الثقافة التي يثقفنا بها، كما جعل تاريخه ونهضته وبيئته المصدر الأصلي لما نحشو به عقولنا. ولم يكتف بذلك، بل تدخل في تفصيلات المناهج حتى لا تخرج جزئية من جزئياتها عن المبدأ العام الذي هو فلسفته وحضارته. وكان ذلك عاماً حتى في دروس الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي، فإن مناهجهما بنيت على الأساس الغربي، وعلى حسب مفاهيم الغرب، فالدين الإسلامي يعلم في المدارس الإسلامية مادة روحية أخلاقية، كما هو مفهوم الغرب عن الدين، وهو يُعَلَّمُ على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مفاهيمه عنها، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن النبوة والرسالة وتدرس كما تدرس حياة نابليون أو بسمارك مثلاً، ولا تثير في نفوسهم أي مشاعر أو أفكار. ومادة العبادات والأخلاق، وهي التي يشتمل عليها منهاج الدين، تعطى من وجهة النظر النفعية، وبذلك صار تعليم الدين الإسلامي أيضاً سائراً وفق المفاهيم الغربية. والتاريخ الإسلامي تُعَلِّمُ فيه المثالب التي يخترعها سوء القصد وسوء الفهم، ويوضع بإطار أسود تحت اسم النزاهة التاريخية والبحث العلمي. ويزيد الطين بلة، أنه نبت من المسلمين المثقفين نابتة تُعَلِّمُ التاريخ وتؤلف فيه على الأسلوب والمنهج التبشيري. وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على اساس الفلسفة الغربية، ووفق مناهج الغرب، وبذلك صار أكثر المثقفين أبناء الثقافة الغربية وتلاميذها، وصاروا يستمرئون هذه الثقافة ويتعشقونها، ويتجهون في الحياة طبق مفاهيمها، حتى صار الكثيرون منهم يستنكرون الثقافة الإسلامية إذا تناقضت مع الثقافة الغربية، وصاروا مثقفين ثقافة غربية تتحكم فيها وجهة نظر الغرب وقد أخلصوا لهذه الثقافة الغربية إخلاصاً تاماً حملهم على تقديس الأجنبي وحمل حضارته، وانطبع كثيرون منه بطابعه، وصاروا يمقتون الإسلام والثقافة الإسلامية، كما يمقته الغربي، ويحملون للإسلام وللثقافة الإسلامية العداء اللئيم كما

يحمله الغربي، وصاروا يعتقدون أن الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحي إليهم أن يعتقدوا ذلك. وبهذا نجحت الحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير حين ضمت إليها الفئة المثقفة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية.

وقد تجاوز الحال أمر المثقفين في أوروبا والمدارس الأجنبية إلى أولئك الذين يحملون الثقافة الإسلامية. فقد هالهم أن يهاجمهم الاستعمار الغربي في الطعن على دينهم فصاروا يردون هذا الطعن مستعملين كل ما تصل إليه أيديهم سواء أكان هذا الرد صحيحاً أم فاسداً، وسواء أكان ما يطعن به الأجنبي إسلامهم من مفاخره أم مكذوباً عليه، وكانوا في ردهم قد سلموا بجعل الإسلام متهما ثم أوّلوا نصوصه بما يتفق مع مفاهيم الغرب، وهكذا صاروا يردون الهجمات رداً مضطرباً كان مساعداً للغزو التبشيري أكثر مما كان رادّاً له. والأنكى من ذلك أن الحضارة الغربية المناقضة للحضارة الإسلامية، صارت من مفاهيمهم التي يتقبلونها وينسبونها زوراً وبهتاناً للإسلام، وغلب على الكثيرين منهم أن يقولوا إن الغرب أخذ حضارته عن الإسلام والمسلمين، وصاروا يؤولون أحكام الإسلام وفق هذه الحضارة مع التناقض المطلق الذي بين الإسلام وبين الحضارة الغربية، وبذلك قبلوا الحضارة الغربية قبولاً تاماً ورضوا بها حين أظهروا أن عقيدتهم وحضارتهم تتفق مع الحضارة الغربية، ومعنى ذلك أنهم قبلوا الحضارة الغربية، وتخلوا عن حضارتهم الإسلامية، وهو ما يهدف إليه الاستعمار أو ما كان يهدف إليه الغرب حين ركز حملات التبشير وحملات الاستعمار. وبوجود المثقفين ثقافة أجنبية، وسوء فهم المثقفين ثقافة إسلامية، وجدت عند المسلمين المفاهيم الغربية عن الحياة، كما تحكمت في ديارهم الحضارة الغربية المادية، وصارت الحياة في المجتمع تخضع للحضارة الغربية، والمفاهيم الغربية. فعامة

المسلمين لا يدركون أن النظام الديمقراطي في الحكم، والنظام الرأسمالي في الاقتصاد هي أنظمة كفر، وصاروا لا يتأثرون إذا فصل بينهم القضاء على غير ما أنزل الله، وهم لا يجهلون أن الله قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كل ذلك لأن الحضارة الغربية المبنية على أساس فصل الدين عن الدولة هي التي تسيطر على مجتمعاتهم. ولأن المفاهيم الغربية المادية هي السائدة في أجوائهم.

وصاروا يستشعرون القيام بواجبات الدين إذا هم اعتقدوا بالله، وحافظوا على الصلوات فقط ولو أداروا أمور دنياهم على وفق ما يرون وما يشتهون، لأنهم يتأثرون بالمفاهيم الغربية التي تقول: (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله). ولم يتأثروا بالمفاهيم الإسلامية التي تجعل قيصر وما لقيصر كله لله، وتجعل الصلاة والبيع والإجارة والحوالة والحكم والتعلم كلها تسير وفق أوامر الله ونواهيه. نعم لم يتأثروا بهذه المفاهيم ولو قرأوا قوله تعالى ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ وقوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. نعم لا يتأثرون بهذه المفاهيم في آيات القرآن ولو قرأوها، لأنهم يقرأونها آيات من القرآن يقرأها المسلم حية نابضة ليعمل بها في معترك الحياة، وإنما يقرأونها في حال تسيطر عليهم فيها مفاهيم الغرب، فيتأثرون بروحانية هذه الآيات، ويضعون حاجزاً بين أذهانهم وبين مفاهيمها ومدلولاتها، كل ذلك لأن الحضارة الغربية تتحكم فيهم، ولأن

مفاهيم الغرب تسيطر عليهم، هذا بالنسبة لجمهور الشعب وللمثقفين ثقافة إسلامية وأجنبية.

أما بالنسبة لرجال السياسة فإن البلاء أعم، والمصيبة أكبر، إذ إن هؤلاء الساسة منذ أن جمعهم الاستعمار، وأغراهم بالقيام ضد الدولة العثمانية ومنّاهم ووعدهم- ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ - فإنهم منذ ذلك الحين يسيرون في ركاب هذا الأجنبي، وحسب ما يرسم لهم من خطط، ففي أيام الدولة العثمانية، انحازوا إلى الأجنبي، وظاهروه على دولتهم، وهو أمر لا يجيزه الإسلام، ولكنهم فعلوه واتخذوا من عملهم هذا مفخرة يذكرونها في كل مناسبة وعيداً لهم يحتفلون به في كل عام. وأنهم في ذلك الوقت بدل أن يحاربوا الفئة الحاكمة لإصلاح الدولة، ساروا مع عدوها الكافر ضد الدولة كلها، حتى كانت النتائج المريرة في استيلاء الكافر المستعمر على بلادهم. ثم صاروا بدل أن يستعينوا بالشعب على هذا الكافر المستعمر، استعانوا به على الشعب. وقد تأثروا به إلى حد أفقدهم شخصيتهم الإسلامية، وسممت أفكارهم بآراء سياسية وفلسفية مما أفسد عليهم وجهة نظرهم في الحياة وفي الجهاد، وترتب على ذلك إفساد الجو الإسلامي برمته، وبلبلة الأفكار بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة.

فقد جعلوا بدل الجهاد المفاوضة، وآمنوا بقاعدة خذ وطالب- التي تعتبر أنفع للاستعمار من جيوش جرارة في البلاد- وجعلوا قبلة أنظارهم الاستعانة بالكافر المستعمر، والاتكال عليه، دون أن يعوا أن كل استعانة بالكافر المستعمر تعتبر إثماً كبيراً، وانتحاراً سياسياً، ورضوا أن هذه الإقليمية هي التي تجعل العمل السياسي مستحيل الإنتاج، لعدم إمكان الإقليمية- مهما اتسعت بلادهم الإقليم- أن تنهض بالأعباء السياسية وغير السياسية التي تتطلبها الحياة الصحيحة.

ولم يكتفوا بذلك كله، بل جعلوا مركز تنبههم الفردي مصالحهم الفردية ومركز تنبههم العام هو الدول الأجنبية، وبذلك فقدوا مركز التنبه الطبيعي -وهو مبدؤهم- وبفقدانهم مركز التنبه الطبيعي، فقدوا إمكانية نجاح مسعاهم، مهما أخلصوا فيه وبذلوا من مجهود. ولذلك صارت جميع الحركات السياسية حركات عقيمة، وصارت كل يقظة في الأمة تتحول إلى حركة مضطربة متناقضة تشبه حركة المذبوح تنتهي بالخمود واليأس والاستسلام. وذلك لأن قادة الحركات السياسية فقدوا مركز تنبههم الطبيعي، فصار طبيعياً أن تفقد الأمة هذا المركز التنبهي لها. وهكذا سممت أفكار السياسيين بالآراء المغلوطة، كما سممت بالمبادئ الأجنبية، إذ قامت في البلاد الإسلامية حركات باسم القومية والاشتراكية، وباسم الوطنية والشيوعية، وباسم الدين الروحي والأخلاق، وباسم التعليم والإرشاد، وكانت هذه الحركات ضغثاً على إبّالة، وعقدة جديدة في المجتمع تضاف إلى العقد الأخرى التي يرزح تحت عبئها. وكانت نتيجتها الإخفاق والدوران حول نفسها، لأنها سارت وفق مفاهيم الحضارة الغربية، متأثرة بالغزو التبشيري ووجهت الأمة إلى المفاهيم الغربية عن الحياة برمتها، فضلاً عن أنها نفست عواطف الأمة المتأججة فيما لا ينفع ولا يأتي بخير. ومكنت للاستعمار من التركز والبقاء. وهكذا كان نجاح الغزو التبشيري نجاحاً منقطع النظير.

الغزو السياسي للعالم الإسلامي

يرجع السبب الحقيقي لغزو الأندلس إلى الانتقام الذي تأصل في نفوس الغربيين من جرّاء الحروب الصليبية. وذلك أن الغرب بعد إخفاقه الذريع في الحروب الصليبية، وطرده من العالم الإسلامي شر طرد، ظلت في نفسه حرقة من هذه الهزيمة، وامتلأ قلبه حقداً وبغضاً وكراهية للمسلمين. وكان يتعذر عليه أن يعاود الكرة على الشرق، فقد كانت قوته على اختلاف أهله كافية لصده والقضاء على محاولاته، فرأى أن أمر هذا الانتقام ميسور في الأندلس لذلك وجه حملته إليها، وقضى عليها قضاء وحشياً استعمل فيه محاكم التفتيش والمقاصل وبيوت النيران، ما يزيد وحشية على فعل الوحوش، مما يعتبر عاراً على الغرب، وتمادى في انتقامه لما أظهره المسلمون من تخاذل عن نصرة الأندلس، وكانوا أقوياء وفي وضع حربي يمكنهم من نصرة تلك البلاد. ولكنهم تقاعسوا وتركوا تلك البلاد لقمة سائغة، وبذلك أطمعوا الغرب في أن يفكر في خطوة أخرى للانتقام. ولولا قوى المسلمين- ولا سيما الدولة العثمانية- لتتابعت غزوات الغربيين لبلاد الإسلام. ولكن قوة المسلمين وغزو العثمانيين لأوروبا وفتحهم لها، أرهب الغربيين، وحملهم على التريث في غزو المسلمين، حتى لا يهزموا في حرب صليبية ثانية ولذلك وقف الغزو الغربي لبلاد الإسلام إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر، وحينئذٍ أخذ الركود يخيم على العالم الإسلامي برمته فقد تخلى عن حمل الدعوة الإسلامية عن طريق دولي فخفت حرارة الإسلام في النفوس، وكان من جرائها أن زالت هيبتهم من نفوس أعدائهم، وحينئذٍ نشطت الغزوات الثقافية والتبشيرية في العالم الإسلامي، وبدأ تصاحبها الغزوات السياسية لاقتطاع بلاد الإسلام جزءاً جزءاً، ولتمزيق العالم الإسلامي والقضاء عليه. وقد تم لهم ذلك بالفعل ونجحوا نجاحاً باهراً.

فإن روسيا في عهد كاترينا (١٧٦٢-١٧٩٦)م حاربت العثمانيين وتغلبت عليهم واقتطعت بعض أراضيهم، وأخذت منهم مدينة آزوف وشبه جزيرة القرم، واستولت على جميع الحوض الشمالي للبحر الأسود، وأنشأت مدينة سباستبول قاعدة لها في شبه جزيرة القرم، كما أنشأت ميناء أوديسا التجاري على البحر الأسود. وأصبحت روسيا عاملاً هاماً في سياسة الدولة العثمانية الخارجية، وصارت صاحبة السيادة في الإمارات الرومانية، واعتبرت نفسها حامية المسيحية في الدولة العثمانية. ثم اقتطعت من تركيا في سنة ١٨٨٤ التركستان، ثم أكملت احتلالها للقفقاس جميعه. ولم يقتصر الأمر على روسيا وحدها. بل شمل ذلك بقية الدول الغربية ففي أول تموز سنة ١٧٩٨م، هاجم نابليون مصر واستولى عليها. وفي شباط ١٧٩٩م هاجم الجزء الجنوبي من بلاد الشام واستولى على غزة والرملة ويافا، ووقف على حصون عكا إلا أن حملته هذه لم توفق، فرجع إلى مصر ثم رجع إلى فرنسا وفشلت الحملة سنة ١٨٠١م. ومع أن حملته هذه لم توفق فقد أثرت على كيان الدولة العثمانية وكانت هزة عنيفة لها، وتتابعت سائر الدول تهاجم العالم الإسلامي، وتستولي على أجزائه. فقد احتل الفرنسيون سنة ١٨٣٠م الجزائر وتطلعوا إلى احتلال تونس وعملوا لذلك حتى احتلوها سنة ١٨٨١م ثم احتلوا مراكش سنة ١٩١٢م، كما احتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١م فتم بذلك اقتطاع شمال أفريقيا، وسلخه عن حكم الإسلام وجعله خاضعاً لحكم الكفر، مستعمراً له.

ولم يكتف الغربيون بذلك بل أكملوا الاستيلاء على البقية الباقية، فقد استولت بريطانيا على عدن سنة ١٨٣٩، وبسطت حمايتها على لحج والمحميات التسع من حدود اليمن الجنوبية إلى شرق الجزيرة. وكان الإنكليز قد استولوا على الهند قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين وأناخوا بكلكلهم

عليهم بنوع خاص، إذ كان المسلمون هم أصحاب السلطان في الهند، فانتزعها الإنكليز منهم واستعمروها وأخذوا يعملون على إضعاف موقف المسلمين فيها بوجه عام. ثم في سنة ١٨٨٢م استولت بريطانيا على مصر، وفي سنة ١٨٩٨، استولت على السودان. كما كانت هولندا تسيطر على جزر الهند الشرقية، وحصرت أفغانستان تحت الضغط الإنكليزي والروسي كما حصرت إيران، واشتدت حملة الغربيين في كل مكان على العالم الإسلامي، حتى شعر جميعه بتعرضه للسقوط نهائياً تحت نير الغرب، وشعر أن الحملة الصليبية تجددت تحرز الانتصار تلو الانتصار، وصار يتشبث بأعمال لوقف هذا الزحف الغربي عند حده، أو للتخفيف من ثقل كابوسه. فحدثت حركات من المقاومة للغربيين في أكثر من مكان، فشبت ثورة في الجزائر، وهب المسلمون في الصين، قام المهديون في السودان، واشتعلت الثورة السنوسية، فكان كل ذلك دليلاً على الحيوية الكامنة في العالم الإسلامي رغم ركوده وضعفه، إلا أن هذه المحاولات كلها أخفقت نهائياً، ولم تنقذ العالم الإسلامي، ولم يقف الغرب عند حده في الغزو بل استمر الغزو بقسميه السياسي والثقافي، ولم يقتصر على اقتطاع أجزاء العالم الإسلامي، بل أخذ يعمل للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الإسلامية التي تمثل المسلمين فقد أقام في داخلها الحركات القومية، إذ أخذت الدول الأجنبية تحرض شعوب البلقان على الثورة منذ سنة ١٨٠٤م، وتمدهم لهذه الثورات، حتى انتهت ثوراتهم بالاستقلال سنة ١٨٧٨م، كما حرضت هذه الدول اليونان على الثورة منذ سنة ١٨٢١م، وتتابعت سائر بلاد البلقان حتى تقلص ظل الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية عن البلقان وعن كريت وقبرص وأكثر جزر البحر الأبيض المتوسط، واستعمل الغربيون أنواع الوحشية مع المسلمين في البلقان وجزر البحر المتوسط، فأجلوا الكثيرين منهم عن ديارهم إجلاءً مما حمل الكثيرين أيضاً منهم على

الرحيل فراراً بدينهم من وحشية الكفر ولجأوا إلى بلاد العرب بوصفها بلاداً إسلامية، وجزءاً من الدولة الإسلامية، وما هؤلاء الجركس والبوشناق والشاشان وأمثالهم إلا أبناء أولئك الابطال من المسلمين الذين لم يرضوا أن يخضعوا لحكم الكفر، وفروا بدينهم إلى ديار الإسلام وإلى حكم الإسلام.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام الغربيون- بوسائلهم الخفية- بتشجيع الحركات الانفصالية عند المسلمين أنفسهم في داخل كيان الدولة بين الترك والعرب. فشجعوا الحركات القومية، وشجعوا بل ساعدوا على قيام الأحزاب السياسية التركية والعربية، كحزب تركيا الفتاة، وحزب الاتحاد والترقي، وكحزب الاستقلال العربي، وحزب العهد إلخ... مما جعل كيان الدولة داخلياً في اضطراب واهتزاز، فأخذ يميد تحت هذه الأحداث الداخلية مع الغزوات الخارجية، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى وجد الكفر الممثل بالغرب حينئذٍ الفرصة مواتية ليوجه الحملة على العالم الإسلامي، فيستولي على الباقي من بلاده، ويقضي على الدولة الإسلامية، ويبيدها من الوجود. فدخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانتصار الحلفاء وهزيمتها، فتقاسم الغربيون جميع العالم الإسلامي غنيمة لهم، ولم تبق منها إلا بلاد الترك التي صار يطلق عليها اسم (تركيا)، وبقيت بعد الحرب تحت رحمتهم منذ انتهاء الحرب سنة ١٩١٨م حتى سنة ١٩٢١م، حيث استطاعت الاستقلال بعد تأمينها للحلفاء القضاء على دولة الإسلام.

القضاء على الدولة الإسلامية:

انتهت الحرب العالمية الأولى وأعلنت الهدنة بين المتحاربين بعد أن انتصر الحلفاء انتصاراً باهراً، وتحطمت الدولة العثمانية وتفككت إلى أجزاء صغيرة واستولى الحلفاء على بلاد العرب جميعها: مصر وسوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق

وسلخوها عن الدولة، ولم يبق في يد العثمانيين سوى بلاد الأتراك (تركيا) وهذه نفسها قد دخلها الحلفاء، فقد استولت البوارج الإنكليزية على البسفور، واحتلت الجيوش الإنكليزية قسماً من العاصمة وكل قلاع الدردنيل والمواضع الحربية الهامة في جميع أنحاء تركيا، واحتلت الجيوش الفرنسية قسماً من استانبول وملأ جنودها السنغاليون الشوارع. واحتلت الجيوش الإيطالية بيرا وخطوط السكك الحديدية، وأشرف ضباط الحلفاء على شؤون البوليس والحرس الوطني وعلى الميناء، وجردوا القلاع من أسلحتها، وأخذوا يسرحون قسماً من الجيش التركي، وانحلت جمعيّة الاتحاد والترقي وفر جمال باشا وأنور باشا إلى خارج البلاد، واختفى باقي أعضاء الجمعية وتألفت حكومة هزيلة برئاسة توفيق باشا لتقوم بتنفيذ أوامر الأعداء المحتلين. وكان الخليفة حينئذٍ وحيد الدين. وكان يرى أنه أمام الأمر الواقع، وأنه يجب أن ينقذ الموقف بالأسلوب الحكيم، فحل البرلمان وأسند رياسة الوزارة إلى أخلص أصدقائه فريد، فأيده في نظرته التي كانت ترمي إلى مجاملة الحلفاء وعدم المقاومة، لئلا تسبب دمار البلاد. لا سيما وأن الحرب قد انتهت. ونفذ خطته هذه. وظلت الحال كذلك، إذ ظل الحلفاء مسيطرين وظلت تركيا في حالة خمود حتى أواسط سنة ١٩١٩م، فتبلدت الأحوال وطرأ على موقف الحلفاء الضعف فقد حصلت في كل من إيطاليا وفرنسا وإنكلترا متاعب داخلية بين الشعب كانت جدّية إلى حد أنها تنذر بتصدع صفوفهم الداخلية. ودب الخلاف بين الحلفاء أنفسهم، وظهر بشكل سافر في استانبول بين الممثلين. إذ كان الشجار بينهم ظاهراً وتنافسوا على الغنيمة، وطمع كل منهم في أن ينال حصة الأسد من المراكز العسكرية والامتيازات الاقتصادية، وصار في إمكان تركيا أن تجرب آخر سهم لانقاذ موقفها، بعد أن وصل ضعف الحلفاء واختلافهم إلى حد أن صارت كل دولة منهم تثير الأتراك ضد الدول الأخرى

وتساعدهم على غيرها. وكان مؤتمر الصلح لم يعقد بعد، وشروط الصلح لم توضع. ولذلك بدت تلوح في الأفق بوادر الأمل، وصار عند الناس اعتقاد بإمكان تنظيم حركة مقاومات جدية. وتألفت في استانبول أكثر من عشر جمعيات سرية، هدفها سرقة الأسلحة والمستودعات الخاضعة لإشراف العدو، وإرسالها إلى منظمات سرية في داخل البلاد وكان بعض الرجال الرسميين يساعدون في ذلك، فقد كان عصمت وكيلاً لوزارة الحرب وفوزي رئيس أركان الحرب، وفتحي وزيراً للداخلية، ورؤوف وزيراً للبحرية، وكان جميعهم يساعد في هذه الحركات. ولذلك قامت جمعيات متعددة مهمتها المقاومة السرية للعدو، ونشطت جميع الاتحاد والترقي وانضمت بعض الجيوش النظامية لهذه الحركات، ثم تجمعت في حركة واحدة قادها مصطفى كمال، وقام بحركة لمقاومة الحلفاء وطردهم من البلاد، ولمقاومة جيش الخليفة إذا تصدى لهم، ونجح مصطفى كمال في ذلك إلى حد كبير. ثم رأى أن الحكومة المركزية والسلطان في استانبول واقعان تحت سيطرة الأعداء، وأنه يجب أن تقوم حكومة وطنية في الأناضول.

فقام بعقد مؤتمر وطني في سيواس، نوقشت فيه الوسائل والأساليب الكفيلة بالاحتفاظ باستقلال تركيا، وقد اتخذ المؤتمر قرارات، وانتخب لجنة تنفيذية، واختار مصطفى كمال رئيساً لهذه اللجنة، وأرسل هذا المؤتمر إنذاراً إلى السلطان يطلب فيه عزل رئيس الوزراء فريد، وإجراء انتخابات لبرلمان جديد حر. فاضطر السلطان تحت هذا الضغط أن يخضع لطلبات المؤتمر فعزل رئيس الوزراء، وولى مكانه علي رضا، وأمر بإجراء انتخابات جديدة خاض غمارها رجال المؤتمر ككتلة تريد انقاذ البلاد، وفازوا بالأكثرية الساحقة في البرلمان الجديد.

وعلى أثر الفوز انتقل المؤتمر ورجاله إلى أنقرة، وصارت منذ ذلك الوقت

مركز العمل. وقد عقد نواب المؤتمر اجتماعاً في أنقرة عرضوا فيه اقتراحاً بأن يجتمع البرلمان في استانبول، وأن يحل المؤتمر بعد أن صار أعضاؤه نواباً رسميين. لكن مصطفى كمال قاوم هاتين الفكرتين وقال: (إن المؤتمر ينبغي أن يستمر حتى يظهر مدى التزام البرلمان للعدالة وتستبين سياسته، أما الانتقال إلى العاصمة فليس سوى حماقة جنونية، إنكم لو فعلتم ذلك لأصبحتم تحت رحمة العدو الأجنبي، فالإنجليز ما زالوا هم المسيطرين على البلاد، وسوف تتدخل السلطات في أموركم، وربما اعتقلتكم. وإذن ينبغي أن يعقد البرلمان هنا في أنقرة كي يظل حراً مستقلاً) وأصر مصطفى كمال إصراراً كلياً على رأيه ولكنه لم يفلح بإقناع النواب أن يعقد البرلمان جلساته في أنقرة. وذهب النواب إلى العاصمة، وأعربوا للخليفة عن ولائهم له. ثم عكفوا على عملهم. وكان ذلك في كانون الثاني سنة ١٩٢٠.

وقد حاول السطان ومن ورائه الإنكليز أن يُمْلُوا إرادتهم على النواب، فرفضوا وأظهروا تمسكهم بحقوق البلاد، ولما اشتد الضغط عليهم من قبل الحلفاء نشروا للرأي العام ميثاقهم الوطني الذي قرروه في مؤتمر سيواس، وهو الميثاق المشتمل على الشروط التي يقبلون السلام على أساسها. وأهمها أن تكون تركيا حرة مستقلة داخل نطاق حدود مقررة. فسر ذلك الحلفاء ولا سيما الإنكليز، لأن هذا القرار هو الذي يسعون إليه، ويسعون أن يأتي من أهل البلاد أنفسهم. ويلاحظ أن جميع البلاد التي كانت الدولة العثمانية تحكمها بوصفها دولة إسلامية، قد وضعت لها عقب الحرب العالمية الأولى ميثاقاً وطنياً يتضمن نصاً واحدا، هو استقلال الجزء الذي أراده الحلفاء أن يكون بلداً منفصلاً. فالعراق وضعت ميثاقاً وطنياً يتضمن استقلال العراق، وسوريا وضعت ميثاقاً يتضمن استقلال سوريا، وفلسطين كان ميثاقها الوطني يتضمن استقلال فلسطين، ومصر كان ميثاقها يتضمن استقلال مصر،

وهكذا... ولهذا كان من الطبيعي أن يسر الحلفاء، ولا سيما الإنكليز، بالميثاق الوطني التركي، لأنه جاء وفق ما يريدون، لأن خطتهم تقطيع أوصال الدولة العثمانية وتقسيمها إلى دول حتى لا تعود دولة واحدة قوية، وحتى يقضي على دولة المسلمين. ولولا هذا الميثاق الوطني الذي نجح الحلفاء بإقراره في كل مكان لكان للأمر وجه آخر، وذلك لأن الدولة العثمانية كانت دولة واحدة تعتبر جميع ولاياتها جزءاً منها، وهي سائرة على نظام الوحدة لا الاتحاد، فلم يكن هنالك فرق بين الحجاز وتركيا، ولا بين سنجق القدس وسنجق الاسكندرونة إذ كلها دولة واحدة، وهزيمة تركيا كهزيمة ألمانيا سواء بسواء، إذ هما حليفتان في الحرب وما ينطبق على واحدة من شروط الصلح ينطبق على الأخرى، وإذا كانت ألمانيا لم يفرط أهلها بشبر من بلادها، ولم تقطع أوصالاً، فكذلك يجب أن يكون الحال في الدولة العثمانية لا يجوز أن تقطع أوصالاً.

وكان الحلفاء يعرفون ذلك، ويحسبون له ألف حساب. أما وقد طلب العثمانيون أنفسهم أن تقطع دولتهم أجزاء. طلبه العرب وطلبه الترك على السواء، فما أسرع ما يقبل ذلك الحلفاء ويشجعونه، ولا سيما من مركز الدولة (تركيا) لأنها كانت تمثل أكثرية الحكم في الدولة.

ولهذا اعتبر الحلفاء الميثاق الوطني التركي الانتصار النهائي لهم. وعلى أثر نشره تركوا للأتراك حرية المقاومة، وصاروا ينسحبون من كل مكان فسحبت القوات الإنكليزية والفرنسية من داخل البلاد واشتدت عزائم الأتراك وقامت في البلاد حركة مقاومة للعدو انقلبت إلى ثورة ضد السلطان، مما جعله يجهز جيشاً ويرسل لها حملة قوية قاومتها وقضت عليها. وصار الناس كلهم مع السلطان ما عدا أنقرة التي كانت مركز الثورة. وكانت أنقرة ذاتها على وشك السقوط، فقد كانت القرى المحيطة بها

تنضوى واحدة بعد الأخرى تحت لواء السلطان، وتنضم إلى جيش الخليفة. وصار مصطفى كمال ومن معه في أنقرة في حالة حرجة جداً. إلا أن مصطفى كمال صمم على المقاومة، وأشعل الوطنيين حماسة جديدة، فاشتدت عزائمهم، وشاعت في أقاليم تركيا وقراها أنباء عن احتلال الإنكليز للعاصمة، واعتقالهم الوطنيين، وإغلاقهم دار البرلمان بالقوة، ومؤازرة السلطان وحكومته لهم. فتغير الموقف. فانصرف الناس عن السلطان، وانحاز الرأي العام إلى الوطنيين في أنقرة، وأقبل الرجال والنساء على أنقرة، يتطوعون للدفاع عن تركيا. وفر كثيرون من جيش الخليفة وانضموا إلى جيش مصطفى كمال، الذي أصبح محط أنظار الأتراك ومعقد آمالهم. وقد قويت جبهته وصارت أكثرية البلاد في قبضته، فأصدر منشوراً بالدعوة إلى انتخاب جمعية وطنية، يكون مقرها أنقرة. وحصل الانتخاب، فاجتمع النواب الجدد، وأطلقوا على أنفسهم "الجمعية الوطنية الكبرى" واعتبروا أنفسهم الحكومة الشرعية، ثم انتخبوا مصطفى كمال رئيساً للجمعية. وصارت أنقرة مركز الحكومة الوطنية. وانضم إليها جميع الأتراك. فقام مصطفى كمال وسحق ما تبقى من جيش الخليفة، وأنهى الحرب الأهلية، ثم تفرغ لمحاربة اليونان واشتبك معهم في معارك دامية كان النصر حليفهم في أول الأمر، ثم تحولت الأمور وصارت كفته هي الراجحة وما إن جاء شهر آب سنة ١٩٢١م حتى قام بهجوم خاطف، انتهى بانتصاره على اليونانيين الذين كانوا يحتلون أزمير وبعض شواطئ تركيا. وفي أوائل شهر أيلول سنة ١٩٢١م أرسل إلى عصمت ليقابل هارنجتون للاتفاق على التفصيلات. وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانين من تريس وجلائهم هم أنفسهم عن القسطنطينية وتركيا بأسرها. والظاهر من تتبع خطوات مصطفى كمال أن موافقة الحلفاء هذه كانت مقابل أن يقضي مصطفى كمال على الحكم الإسلامي، ولذلك تجده حين ناقشته الجمعية الوطنية في أمر تركيا بعد

الانتصارات التي أحرزها، خاطبها بقوله: (أنا لست مؤمناً بعصبة من الدول الإسلامية، ولا حتى بعصبة من الشعوب العثمانية ولكل منّا أن يعتنق الرأي الذي يراه. أما الحكومة فينبغي أن تلتزم سياسة ثابتة مرسومة مبنية على الحقائق لها هدف واحد، واحد فقط، أن تحمي حياة الوطن واستقلاله داخل نطاق حدوده الطبيعية، فلا العاطفة ولا الأوهام ينبغي أن تؤثر في سياستنا، وسحقاً للأحلام والخيالات، لقد كلفتنا غالياً في الماضي).

وهكذا أعلن أنه إنما يريد استقلال تركيا بوصفها شعباً تركياً لا أمة إسلامية. وقد طلب إليه بعض النواب ورجال السياسية أن يبين رأيه فيما ينبغي أن تكون عليه الحكومة من تركيا الجديدة، فليس من المعقول أن تكون لها حكومتان كما هو الوضع القائم حينئذٍ: حكومة مؤقتة ذات السلطان مقرها أنقرة، وحكومة رسمية (اسمية) في العاصمة يرأسها السلطان ووزراؤه. وقد ألح السياسيون بطلب بيان رأيه في هذا الوضع، فلم يجبهم وأخفى نواياه، وصار يثير الرأي العام على الخليفة وحيد الدين، بأنه مالأ الإنكليز واليونان حتى أثار هياج الشعب عليه. وفي وسط هذا الجو الحماسي له والمقت للسلطان، جمع الجمعية الوطنية ليبين خطته في أمر السلطان والحكومة. وكان يعلم أنه قد يستطيع إقناع النواب بخلع وحيد الدين، وبإلغاء السلطنة، لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة، فذلك من شأنه أن يمس المشاعر الإسلامية في الشعب جميعه. لذلك لم يلغ الخلافة ولم يتعرض لها، وإنما اقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة، فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين. وما إن سمع النواب هذا الاقتراح حتى وجموا، وأدركوا خطر هذا الاقتراح الذي يطلب إليهم أن يقرروه. وأرادوا أن يتناقشوا في الأمر، فخشي مصطفى كمال من هذه المناقشة، وطلب أخذ الرأي على الاقتراح، وأيده في ذلك ثمانون نائباً من أنصاره الشخصيين،

إلا أن المجلس رفض ذلك وأحال الاقتراح إلى لجنة الشؤون القانونية كي تبحثه. وحينما اجتمعت اللجنة في اليوم التالي حضر مصطفى كمال في القاعة التي اجتمعت فيها، وجلس يرقب أعمالها، فلبثت تناقش في الاقتراح بضع ساعات، وكان أعضاؤه من العلماء والمحامين وكانوا يعرضون هذا الاقتراح على النصوص الشرعية ويرونه مخالفاً للشرع، إذ لا يوجد في الإسلام سلطة دينية وأخرى زمنية، فالسلطنة والخلافة شيء واحد ولا يوجد في الإسلام سلطة دينية وأخرى زمنية، فالسلطنة والخلافة شيء واحد ولا يوجد هنالك شيء يسمى الدين، وشيء يسمى الدولة، بل هنالك نظام الإسلام، وتعتبر الدولة جزءاً من هذا النظام، وهي التي تقوم على تنفيذه. ولذلك لم تجد اللجنة القانونية ما يُبرر هذا الفصل، بل لم تجد ما يبرر هذا البحث، لأن نصوص الإسلام صريحة فيه ولذلك صممت على رفض الاقتراح، لكن مصطفى كمال كان يريد فصل الدين عن الدولة بفصل السلطنة عن الخلافة، وذلك إجابة لطلب الحلفاء منه، حتى يقضوا على آخر الدولة الإسلامية على يد أهلها، ولأن ثقافته الاستعمارية التي يقلد فيها الغربيين في فصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية تحمله على القيام بفصل السلطنة عن الخلافة، كما فصلت الكنيسة عن الدولة في الغرب. ولهذا فإن مصطفى كمال حين رأى مناقشات اللجنة واتجاهها فقد سيطرته على أعصابه، وقفز فجأة واعتلى مقعداً وهو يتميز من الغيظ، وقطع مناقشات اللجنة صائحاً (أيها السادة لقد اغتصب السلطان العثماني السيادة من الشعب بالقوة، وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه، إن السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى، وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا، كل ما في الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط في غضون ذلك) وكان يتكلم بلهجة الديكتاتور فانقضّ اجتماع اللجنة، ثم دعيت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح. ولدى

مناقشتها له تبين لمصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يميل إلى رفض هذا الاقتراح فجمع أنصاره حوله وطلب أخذ الرأي على الاقتراح برفع الأيدي مرة واحدة، فاعترض النواب على ذلك وقالوا: إن كان لا بد من أخذ الرأي فليكن بالمناداة بالاسم. فرفض مصطفى كمال ذلك، وصاح- وفي صوته رنة التهديد- قائلاً: (أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء. ويكفي أخذ الأصوات برفع الأيدي. وطرح الاقتراح للتصويت، فلم ترتفع غير أيد قليلة، لكن النتيجة أعلنت بأن المجلس أقر الاقتراح بإجماع الآراء، فدهش النواب لذلك، وقفز بعضهم فوق مقاعدهم محتجين صائحين: (هذا غير صحيح نحن لم نوافق) فصاح بهم أنصار الغازي يسكنونهم، وتبادلوا الشتائم. إلا أن الرئيس أعلن النتيجة مرة أخرى بأن الجمعية الوطنية الكبرى لتركيا قررت بإجماع الآراء إلغاء السلطنة، ثم فُضت الجلسة. وغادر مصطفى كمال القاعة يحيط به أنصاره. ولما علم الخليفة وحيد الدين بذلك فر هارباً. وعلى أثر إعلان فراره نودي بابن أخيه عبد المجيد خليفة للمسلمين، مجرداً من كل سلطان. وبذلك صار الخليفة من غير سلطان. وظلت البلاد من غير حاكم شرعي. وإذا كانت فصل السلطنة قد فصلت عن الخلافة فمن الذي يحكم؟ لقد كان مصطفى كمال حريصاً على فصل السلطنة عن الخلافة حرصاً شديداً، جعله يقدم عليه قبل أن يعين شكل الحكم الذي ستكون عليه تركيا ولذلك صار يتعين البت في شكل الحكومة الجديدة بعد إلغاء السلطنة: هل يؤلف مصطفى كمال الوزارة وحينئذٍ يكون رئيساً لحكومة دستورية، ويبقى الخليفة صاحب السلطة ولا أثراً لقرار الإلغاء؟ لم يقبل مصطفى كمال أن يؤلف الوزارة. وأخفى ما هو عازم عليه. وقام بعد ذلك بواسطة القوة والسلطة التي يحملها، ويتحكم بواسطتها بالشعب قام بتأليف حزب سماه حزب الشعب. وكان يقصد من ذلك أن يأخذ الرأي العام بجانبه. إذا إنه بالرغم من

هذا فإن الأغلبية الساحقة في الجمعية كانت ضده بعد إعلان فصل السلطنة عن الخلافة، ولذلك أخذ يفكر في أمر إعلان شكل الحكومة التي قررها، وهي إعلان تركيا جمهورية، وإعلان نفسه رئيساً لها. وعمل على إيقاع الجمعية في أزمات حرجة كان من جرّائها أن استقالت الوزارة، التي كانت تحكم، وقدمت استقالتها للجمعية الوطنيّة، ولم تجد الجمعية من يتولى الوزارة. وبعد أزمة مستحكمة اقترح على الجمعية أن يتولى الوزارة مصطفى كمال، فقبلت للظرف العصيب الذي كانت تجتازه. وطلبت إلى مصطفى كمال أن يتولى الوزارة ويحل الأزمة. فأظهر الامتناع أولاً، ثم أجاب الطلب وصعد المنصة وقال للنواب: لقد أرسلتم في طلبي كي أنقذ الموقف في لحظة الحرج، لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم، فليس منشأ هذه الأزمة أمراً عابراً، بل خطأ أساسياً في نظام حكومتنا، فالجمعية الوطنية تقوم بوظيفة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في وقت واحد، وكل نائب منكم ينبغي أن يشترك في إصدار كل قرار وزاري، ويدس أصبعه في كل إدارة حكومية، وكل قرار لوزير، أيها السادة ما من وزير يستطيع أن يضطلع بمسؤولية، ويقبل المنصب في مثل هذه الظروف. يجب أن تدركوا أن حكومة تقوم على هذه الأسس لهي حكومة يستحيل إيجادها. وإذا وجدت لم تكن حكومة، بل كانت فوضى، ونحن يجب أن نقدر هذا الوضع. لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب. وبعد أن أنهى كلامه كان قد أعد المرسوم بجعل تركيا جمهورية، وانتخاب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية وبذلك جعل نفسه الحاكم الشرعي للبلاد.

إلا أن الأمور لم تسر كما يريد مصطفى كمال، فإن الشعب التركي شعب مسلم وما فعله مصطفى كمال يخالف الإسلام لذلك سادت البلاد فكرة مؤداها أن مصطفى كمال يعتزم القضاء على الإسلام، وأيدت هذه الفكرة تصرفات كمال نفسه

فإنه كان متنكراً للإسلام في حياته الخاصة مخالفاً لكل الأحكام الشرعية، يظهر السخرية من كل الأوضاع المقدسة عند المسلمين. وتيقن الناس في جمهرتهم أن حكام أنقرة الجدد كفرة ملاعين. وصار الناس يلتفون حول الخليفة عبد المجيد، ويحاولون أن يرجعوا إليه السلطة، وأن يجعلوه هو الحاكم ليقضي على هؤلاء المرتدين. فأدرك مصطفى كمال الخطر مجسماً ورأى أن أكثرية الشعب تكرهه. وتتهمه بالزندقة والكفر والإلحاد، وفكر في الأمر ونشط في الدعاية ضد الخليفة والخلافة، وأثار حماسة الجمعية الوطنية حتى سنت قانوناً يقضي باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان خيانة يعاقب عليها بالموت. ثم أخذ يحدث عن أضرار الخلافة في كل مجلس، ولا سيما للجمعية الوطنية، وأخذ يهيء الأجواء لإلغاء الخلافة، فقام بعض النواب يتحدثون عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الديبلوماسية، فقاومهم مصطفى كمال، وقال للجمعية الوطنية: أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون؟ لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها، وتتجاهل الهنود والعرب، وتنقذ نفسها من تزعم المسلمين.

وهكذا سار مصطفى كمال في دعايته ضد الخلافة يبين أضرارها للأتراك، كما يبين أضرار الخليفة نفسه، ويصوره وأنصاره في صورة الخونة، ويظهره بمظهر الصنائع للإنجليز. ولم يكتف بذلك. بل أوجد موجة إرهاب ضد من يؤيدون الخلافة، فإن أحد النواب قد صرح بلزوم الخلافة والمحافظة على الدين فما كان من مصطفى كمال إلا أن كلف شخصاً باغتياله في الليلة التي تكلم فيها فاغتاله شخص من أتباع مصطفى كمال وهو راجع إلى بيته من الجمعية الوطنية، وألقى أحد النواب خطابا إسلامياً فأحضره مصطفى كمال وهدده بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى. وهكذا نشر الرعب في طول البلاد وعرضها، ثم أرسل إلى حاكم استانبول يأمره بوجوب

إلغاء مظاهر الأبهة التي تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية صلاة الجمعة، وخفض مرتب الخليفة إلى الحد الأدنى. وأنذر أتباعه بوجوب التخلي عنه، ولما لاحظ ذلك بعض المعتدلين من أنصار مصطفى كمال أخذتهم الحمية الإسلامية وخافوا من إلغاء الخلافة، والتمسوا من مصطفى كمال أن ينصب نفسه خليفة للمسلمين. فلم يقبل، ثم جاءه وفدان أحدهما من مصر والآخر من الهند، وطلبا إليه أن ينصب نفسه خليفة للمسلمين وكررا الرجاء ولكنه رفض ذلك وهيأ ضربته القاصمة بإعلان إلغاء الخلافة: وأثار في الأجواء عند الشعب وعند الجيش وعند الجمعية الوطنية الحنق والبغض للأجانب وللأعداء ولحليفهم الخليفة- على حد زعمه-. وكانت إثارة الحنق على الأجانب خدعة قصد منها أن يتوصل إلى اتهام الخليفة بأنه حليف الأجانب وإلى إثارة الحنق عليه. وسمم الجو بالإشاعات المثيرة ضد الخليفة. ولما سيطر هذا الجو على البلاد تقدم مصطفى كمال في الثالث من شهر أيار سنة ١٩٢٤م إلى الجمعية الوطنية بمرسوم يقضي بالغاء الخلافة، وطرد الخليفة وفصل الدين عن الدولة، وكان مما قاله للنواب حين تقدم بهذا المرسوم لإقراره (بأي ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تقوم على أسس علمية متينة؟ فالخليفة ومخلفات آل عمثان يجب أن يذهبوا، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلي مكانها لمدارس حكومية غير دينية) ثم حمل على الدين ومن سماهم رجال الدين. وبسلطة دكتاتورية أقر هذا المرسوم من الجمعية الوطنية بغير مناقشة ثم أرسل إلى حاكم استانبول أمراً يقضي بأن يغادر الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالي فذهب الحاكم ومعه حامية من رجال الشرطة والجيش إلى قصر الخليفة في منتصف الليل وأجبروه أن يركب سيارة واقتادوه

خارج الحدود، ولم يسمحوا له أن يحمل معه سوى حقيبة فيها بعض الثياب وبعض النقد.

وهكذا هدم مصطفى كمال الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي وأقام الدولة الرأسمالية والنظام الرأسمالي وبذلك قضى على الدولة الإسلامية وحقق للكفار حلمهم الذي داعبهم منذ الحروب الصليبية ألا وهو القضاء على دولة الإسلام.

الحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية:

انتهت الحرب العالمية الأولى واستولى الحلفاء على جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان همهم القضاء على هذه الدول نهائياً، والحيلولة دون قيامها مرة أخرى، أما وقد قضوا عليها نهائياً فإنهم أخذوا يعملون للحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية في أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي. وقد وضعوا عدة خطط واستعملوا عدة أساليب لضمان عدم رجوع الدولة الإسلامية للوجود، ولا يزالون يعملون من أجل هذه الغاية.

فمنذ أن احتل الكافر المستعمر بلاد المسلمين قام بتثبيت حكمه لها على الأسس التي رسمها، فقد احتل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية سنة ١٩١٨ وأقام فيها الأحكام العسكرية حتى سنة ١٩٢٢ فركز حكمه باسم الانتداب في بعضها، وباسم الاستقلال الذاتي في البعض الآخر، حتى جاءت سنة ١٩٢٤، وفي تلك السنة قامت أعمال عدة أجهز بها العدو ولا سيما بريطانيا على كل ما فيه شبهة تمتُّ إلى قيام الدولة الإسلامية، ففي تلك السنة ألغى مصطفى كمال الخلافة من الدولة العثمانية بتأثير من الكافر المستعمر وجعل تركيا جمهورية ديمقراطية، فقضى على شبح الخلافة حتى يقضي على آخر أمل في رجوع الدولة الإسلامية. وفي تلك السنة أخرج الحسين بن علي من الحجاز وحبسه في قبرص لأنه كان يطمع في

الخلافة، وفي تلك السنة تدخل الإنكليز بواسطة عملائهم في مؤتمر الخلافة الذي كان معقوداً في القاهرة وعملوا على فضه وإخفاقه. وفي تلك السنة أخذ الإنكليز يعملون لإلغاء جمعية الخلافة في الهند ولإحباط مساعيها وتحويل تيارها إلى الناحية الوطنية والقومية. وفي تلك السنة أيضاً صدرت في مصر بتأثير من الكافر المستعمر مؤلفات من بعض علماء الأزهر تدعو لفصل الدين عن الدولة، وتدعي أن الإسلام ليس فيه أصول للحكم، وتصور الإسلام بأنه دين كهنوتي، ولم يرد فيه شيء عن الحكم وعن الدولة. وفي تلك السنة وما يليها قامت في البلاد العربية مجادلات بيزنطية حول موضوعين هما: هل الجامعة العربية أصلح وأكثر إمكانية أم الجامعة الإسلامية، واشتغلت الصحف والمجلات مدة في هذا الموضوع. مع أن كلا من الجامعة الإسلامية والجامعة العربية غير صالحة، ووجودها يحول دون قيام الدولة الإسلامية، ولكن الكافر المستعمر أوجد هذا الجدل لتحويل الأذهان عن الدولة الإسلامية. وبهذا استطاع أن يبعد عن الأذهان في البلاد الإسلامية فكرة الخلافة، وفكرة الدولة الإسلامية.

وكان الاستعمار قبل احتلاله قد أخذ يشيع بين شباب الترك ألفاظ القومية التركية، وأن تركيا تحمل عبء الشعوب غير التركية، وأنه آن لها أن تتخلى عن هذه الشعوب، وألفت أحزاب سياسية للعمل من أجل القومية التركية واستقلال تركيا عن البلاد غير التركية. وأخذ يشيع بين شباب العرب ألفاظ القومية العربية، وأن تركيا دولة مستعمرة وأنه آن الأوان للعرب لأن يتخلصوا من نير الاستعمار التركي، وقد ألفت الأحزاب السياسية للعمل من أجل الوحدة العربية واستقلال العرب. وما إن جاء الاحتلال حتى أخذ الكافر المحتل يشيع ألفاظ القومية، وأخذت تحل محل الإسلام، فاستقل الأتراك على أساس قومي وطني، وأخذ العرب يعملون للحكم

الذاتي على أساس قومي وطني، وشاعت كلمة القومية والوطنية وملأت الأجواء، وصارت هي موضع الفخر والاعتزاز ولم يكتف الاستعمار بذلك بل أشاع المفاهيم المغلوطة عن الحكم في الإسلام، وعن الإسلام، وصور الخلافة بأنها بابوية، وبأنها حكم ديني كهنوتي، حتى صار المسلمون يخجلون من ذكر كلمة خليفة، ومن طلب الخلافة. ووجد بين المسلمين عرف عام بأن أمر المطالبة بالخلافة تأخُّر وجمود، لا يجوز أن يصدر من مثقف، ولا يقول به مفكر.

وفي هذه الأجواء القومية والوطنية قسم البلاد الإسلامية إلى دويلات، وجعل أهل كل بلاد يركزون هذا التقسيم، فقسم الدولة العثمانية إلى عدة أقسام هي تركيا، ومصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، وشرق الأردن والحجاز، ونجد، واليمن. وصار المشتغلون بالسياسة فيه من عملاء هذا الكافر المستعمر، ومن غيرهم من حسني النية، يعقدون المؤتمرات في كل بلد يطالبون بالاستقلال، أي استقلال الجزء الذي رسم لهم دولة عن غيره من باقي الأجزاء، وعلى هذا الأساس قامت الدولة التركية، والدولة العراقية، والدولة المصرية، والدولة السورية إلخ... ثم أقام في فلسطين وطناً قومياً لليهود تحول فيما بعد إلى كيان مستقل تحت اسم الدولة، ليكون رأس جسر له ويُشْغِل به المسلمين عن الكافر المستعمر، وهو الدول الغربية كبريطانيا وأمريكا وفرنسا وليكون حاجزاً من الحواجز التي تحول دون رجوع الدولة الإسلامية وبذلك ركز الوضع الجغرافي، والأجواء العامة، تركيزاً يحول دون تحرير المسلمين.

وقام بتطبيق النظام الرأسمالي في الاقتصاد، والنظام الديمقراطي في الحكم والقوانين الغربية في الإدارة والقضاء، وَتَثَبَّتَ حضارته ومفاهيمه عن الحياة وصار يحاول أن يركز وجهة نظره في الحياة حتى تصبح طريقته في الحياة هي الطريقة التي

يعيش عليها المسلمون، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد، فقد جعل مصر سلطنة ثم أقام فيها النظام الملكي البرلماني، وأقام في العراق النظام الملكي البرلماني، وأقام في لبنان وسوريا النظام الجمهوري، وأقام في شرقي الأردن إمارة وفي فلسطين حكماً انتدابياً انتهى بقيام نظام ديمقراطي برلماني بين اليهود تحت اسم الدولة، وضم القسم الباقي لشرق الأردن وجعلها ملكية برلمانية، وأقام في الحجاز وفي اليمن ملكية مستبدة، وفي تركيا جمهورية رئاسية، وفي الأفغان ملكية وراثية، وشجع إيران على التمسك بالنظام بالإمبراطوري، وظل مستعمراً الهند، ثم قسمها إلى دولتين وبهذا جعل الكافر المستعمر نظامه هو الذي يطبق في بلاد المسلمين، وبتطبيقه أضعف في النفوس فكرة إعادة حكم الإسلام. ولم يكتف بذلك بل جعل في نفس أهل البلاد المحافظة على النظام الذي أقامه؛ إذ اعتبر أهل كل إقليم من هذه الأقاليم إقليمهم فقط دولة، وصاروا يفهمون وجوب استقلاله عن غيره من الأقاليم، وصار العراقي في تركيا اجنبياً، والسوري في مصر أجنبياً، وهكذا صار حكام كل بلد يحافظون على هذا النظام الرأسمالي الديمقراطي أكثر من محافظة أهله عليه. وصاروا موظفين بوظيفة الحراسة على ما أقام لهم المستعمر من نظام ودستور، ويعتبرون تغييره حركة غير مشروعة يعاقب عليها قانون المستعمر الذي وضعهم لتنفيذه.

وقام بتطبيق القوانين الغربية على بلاد المسلمين مباشرة، بعد أن كان يحاول تطبيقها بالواسطة عن طريق العملاء في البلاد الإسلامية؛ إذ حاول الاستعمار منذ أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر إدخال القوانين الغربية إلى البلاد الإسلامية. ففي مصر بدأ الاستعمار يشجع إدخال القانون المدني الفرنسي ليحل محل الأحكام الشرعية، ونجح في ذلك وبدأت مصر منذ سنة ١٨٨٣ تطبق القانون الفرنسي فقد ترجمت القانون الفرنسي القديم وسنته قانوناً وصار يطبق في المحاكم بدل

الأحكام الشرعية، وفي الدولة العثمانية بدأ منذ سنة ١٨٥٦ حركة لأخذ القوانين الغربية، غير أنها لم تلاق السهولة التي لاقتها في مصر بسبب وجود الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية، ولكن إلحاح الكفار واستجابة العملاء مكنهم من إدخال قانون الجزاء وقوانين الحقوق والتجارة بأخذ فتاوى بأنها لا تخالف الإسلام، ودخلت فكرة التقنين، ثم ألفت المجلة من الأحكام الشرعية قانوناً، وجعلت المحاكم قسمين شرعية تعمل بالأحكام الشرعية على شكل قوانين، ونظامية تحكم حسب القوانين الغربية التي أفتى العلماء بأنها لا تخالف الإسلام، وحسب القوانين الشرعية التي صيغت تقليداً للقوانين الغربية. هذا بالنسبة للقوانين، أما بالنسبة للدستور، فإن الحركة لإيجاد دستور للدولة وجعله يؤخذ من الدستور الفرنسي مع حركة أخذ القوانين، وكادت تنجح سنة ١٨٧٨ غير أن قوة مقاومة المسلمين وقفت في وجهها وأخمدتها. إلا أن ملاحقة الكافر المستعمر ونجاح عملائه والمضبوعين بثقافة مكن حركة الدستور من الظهور مرة أخرى ومكنها من النجاح، ووضع الدستور موضع العمل في الدولة سنة ١٩٠٨ وبوضع القوانين ووضع الدستور موضع العمل في الدولة العثمانية صارت البلاد الإسلامية في جملتها ما عدا جزيرة العرب والأفغان تسير نحو القوانين الغربية، وما أن احتل الكافر المستعمر البلاد حتى قام بتطبيق سائر القوانين الغربية مباشرة باعتبارها قوانين مدنية لا علاقة لها بالإسلام، وتركت الأحكام الشرعية، فَثَبَّتَ ذلك حكم الكفر وأبعد حكم الإسلام، وقد ساعده على ذلك أنه ثَبَّتَ أركانه وأقام جميع شؤونه على أساس سياسة التعليم التي رسمها، والمناهج التربوية التي وضعها، والتي ظلت تطبق حتى اليوم في كافة البلاد الإسلامية، وأنتجت ما أنتجته من هذه الجيوش الجرارة من المعلمين الذين يقوم أكثرهم على حراسة هذه البرامج وحمايتها، والذين يتولى الكثيرون منهم زمام الأمور، ويسيرون وفق ما يريد الكافر

المستعمر. وقد قامت سياسة التعليم ووضعت مناهجه على أساسين اثنين: احدهما فصل الدين عن الحياة، وينتج عنها طبيعياً فصل الدين عن الدولة، وذلك يحتم أن يقوم أبناء المسلمين بمحاربة قيام دولة إسلامية، لأنها تتناقض مع الأساس الذين تعلموا على سياسته، أما الأساس الثاني فهو جعل شخصية الكافر المستعمر المصدر الرئيسي لما تحشى به العقول الناشئة من معارف ومعلومات. وذلك توجب احترام هذا الكافر المستعمر وتعظيمه، ومحاولة محاكاته وتقليده، ولو كان كافراً مستعمراً، ويوجب احتقار المسلم والابتعاد عنه والاشمئزاز منه والاستنكاف عن الأخذ منه. وهذا يقضي بمحاربة قيام دول إسلامية واعتبارها رجعية. ولم يكتف الاستعمار بمناهج المدارس التي يشرف عليها أو تشرف عليها الحكومات التي أقامها مقامه. بل جعل إلى جانبها المدارس التبشيرية التي تقوم على أساس استعماري محض، والمعاهد الثقافية التي تأخذ على عاتقها التوجيه السياسي الخاطئ، والتوجيه الثقافي المغلوط. وبذلك صار الجو الفكري في المدارس على اختلافها والمعاهد الثقافية على تنوعها يثقف الأمة ثقافة تبعدها عن التفكير في الدولة الإسلامية، وتحول بينها وبين العمل من أجلها.

وقامت إلى جانب ذلك المناهج السياسية في كافة البلاد الإسلامية على أساس فصل الدين عن الحياة، وصار العرف العام عند المثقفين هو فصل الدين عن الدولة وعند عامة الشعب فصل الدين عن السياسة، وكان من جرّاء ذلك إن وجدت فئات من المثقفين تزعم أن سبب تأخر المسلمين هو تمسكهم بالدين، وأن الطريق الوحيد للنهضة هو القومية والعمل لها. كما وجدت فئات تدعي أن سبب تأخر المسلمين هو الأخلاق. فقامت على الأساس الأول تكتلات حزبية سياسية اسماً تعمل للقومية وللوطنية، وتعتبر العمل على أساس الإسلام دسيسة استعمارية، وتعتبرها رجعية

وجموداً يؤدي إلى التأخر والانحطاط. كما قامت على الأساس الثاني. تكتلات جمعية على أساس الأخلاق والوعظ والإرشاد، وصارت تعمل للفضيلة والخلق واشترطت على نفسها أن لا تتدخل في السياسة وبذلك كانت هذه الأحزاب والجمعيات الحائل العملي الذي يحول دون السعي لإيجاد الدولة الإسلامية. لأن الجمعيات صرفت الأذهان وانصرفت هي عن العمل السياسي الواجب شرعاً وهو إقامة الدولة الإسلامية إلى العمل الأخلاقي فقط الذي هو نتيجة حتمية لتطبيق المسلم أحكام الإسلام، ونتيجة طبيعية لقيام حكم الإسلام. ولأن الأحزاب قامت على أساس استعماري يناقض الإسلام، ويحول دون قيام الدولة الإسلامية.

وقامت إلى جانب المناهج السياسية القوانين التي تحفظ هذه المناهج وتؤمن تنفيذها، فقد سنت قوانين تحول دون قيام أحزاب أو حركات سياسية إسلامية واعتبرت تلك القوانين في مجموعها المسلمين طائفة من الطوائف، مع أنهم أهل البلاد. وتضمنت تلك القوانين نصوصاً مؤداها أنه يشترط في الأحزاب والحركات السياسية أن تكون نظمها ديمقراطية، وأن لا تحصر عضويتها عملياً في طائفة. ومعنى ذلك أنّه لا يجوز أن تنشأ في البلاد الإسلامية أحزاب أو حركات سياسية إسلامية حتى لا تعود الدولة الإسلامية. وأن المسلمين لا حق لهم إلا بالجمعيات الخيرية وما إليها، وممنوعون من العمل السياسي على أساس الإسلام، واعتبرت بعض القوانين القيام بالأحزاب السياسية الإسلامية جرماً يعاقب عليه. وبذلك تركزت المناهج السياسية على أساس الحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية بالقوانين الموضوعة.

ولم يكتف الاستعمار بذلك بل أخذ يصرف المسلمين عن التفكير بالدولة الإسلامية بأعمال تافهة يتلهون بها، فقد شجع المؤتمرات الإسلامية لتكون ألهيات الأمة الإسلامية عن العمل الحقيقي للدعوة الإسلامية ولاستئناف الحياة الإسلامية

في ظل الدولة الإسلامية، فكانت هذه المؤتمرات متنفساً للعواطف، تتخذ القرارات وتنشرها بالصحف ودور الإذاعة لمجرد النشر، دون أن ينفذ شيء منها، بل دون أن يسعى لتنفيذ شيء منها، ثم شجع المؤلفين والمحاضرين ليبينوا خطر وجود الدولة الإسلامية، وأن الإسلام ليس فيه نظام حكم، فصدرت كتب ورسائل لبعض المسلمين المأجورين تحمل دعوة الاستعمار هذه حتى يُضَلَّل المسلمون وحتى يُصْرفوا عن دينهم وعن العمل لاستئناف الحياة حسب أحكامه. وهكذا دأب الاستعمار منذ أن قضى على الدولة الإسلامية إلى الآن يقيم العراقيل التي تحول دون قيام الدولة الإسلامية، ويركز جهوده للحيلولة دون إيجادها، بعد أن محاها من الوجود.

قيام الدولة الإسلامية فرض على المسلمين

يقوم جهاز الدولة الإسلامية على سبعة أركان هي: الخليفة، والمعاونون، والولاة، والقضاء، والجهاز الإداري، والجيش، ومجلس الشورى. فإذا استكملت الدولة هذه الأركان السبعة استكمل جهازها، وإذا نقص واحد منها نقص جهازها، ولكنّها تبقى دولة إسلامية ولا يضرها نقص شيء من الجهاز ما لم يكن الخليفة؛ لأنه الأساس في الدولة. أما قواعد الحكم في الدولة الإسلامية فهي أربع قواعد هي: نصب خليفة واحد، وأن يكون السلطان للأمة، وأن تكون السيادة للشرع، وأن يتولى الخليفة وحده تبني الأحكام الشرعية أي جعلها قوانين. فإذا نقصت قاعدة واحدة من هذه القواعد كان الحكم غير إسلامي، بل لا بد من استكمال هذه القواعد الأربعة جميعها. والأساس في الدولة الإسلامية هو الخليفة، وما عداه نائب عنه أو مستشار له، فالدولة الإسلامية هي خليفة يطبق الإسلام، والخلافة أو الإمامة هي استحقاق تصرف عام على المسلمين، وهي ليست من العقائد، بل هي من الأحكام الشرعية، إذا هي من الفروع المتعلقة بأفعال العباد.

ونصب الخليفة فرض على المسلمين، ولا يحل للمسلمين أن يبيتوا ليلتين دون بيعة. وإذا خلا المسلمون من خليفة ثلاثة أيام أثموا جميعاً حتى يقيموا خليفة. ولا يسقط عنهم الإثم حتى يبذلوا لجهد لإقامة خليفة ويواصلوا العمل حتى يقيموه. وقد ثبت وجوب نصب الخليفة بالسنة وإجماع الصحابة؛ أما السنة فقد قال ﷺ "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية" ولأحمد والطبراني "ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" خرجاه من حديث معاوية، ولمسلم في صحيحه عن ابن عمر قال "سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يدا من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا

حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" وروى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "سيليكم بعدي ولاة فيليكم البَرُّ ببره ويليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحسنوا فلكم وإن أساؤوا فلكم وعليهم). وأما الإجماع فإن الصحابة قد جعلوا أهم المهمات بعد وفاة النبي ﷺ نصب الخليفة، على ما في الصحيحين من حديث سقيفة بني ساعدة، وكذا بعد موت كل خليفة من الخلفاء، وقد تواتر نقل إجماع الصحابة على وجوب نصب الخليفة حتى جعلوه من أهم الواجبات ويعتبر ذلك دليلاً قطعياً، وتواتر إجماع الصحابة أيضاً على امتناع خلو الأمة من خليفة في أي وقت من الأوقاف. فواجب على الأمة نصب إمام أي إقامته وتوليته، وتخاطب بذلك جميع الأمة من ابتداء موته عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة.

ويتضح مبلغ اللزوم الحتمي في إقامة الخليفة وبمبلغ فهم الصحابة هذا اللزوم مما فعله الصحابة من تأخير دفن رسول الله ﷺ حتى بويع خليفة لرئاسة الدولة، ويتضح كذلك مما فعله عمر بن الخطاب حين طعن وكان مشرفاً على الموت، فقد طلب إليه المسلمون أن يستخلف فأبى، فألحوا عليه فاستخلف ستة، أي حصر الترشيح في ستة ينتخب منهم خليفة. ولم يكتف بذلك بل حدد لهم موعداً نهائياً هو ثلاثة أيام، ثم أوصى أنه إذا لم يتفق على الخليفة بعد ثلاثة أيام فليقتل المخالف، نعم وَكَّلَ بهم من يقتل المخالف مع أنهم أهل الشورى، ومع أنهم كبار الصحابة، إذ هم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبي وقاص. وإذا كان هؤلاء يقتل أحدهم إذا لم يتفق على انتخاب خليفة فذلك يدل على اللزوم الحتمي لانتخاب الخليفة.

على أن كثيراً من الواجبات الشرعية يتوقف عليه كتنفيذ الأحكام، وإقامة

الحدود، وسد الثغور وتجهيز الجيوش، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد، وحفظ الأمن، ونحو ذلك من الأمور التي بين آحاد الأمة؛ ولذلك كان نصبه واجباً.

وليس طلب الخلافة مكروهاً، فقد تنازع فيها الصحابة رضوان الله عليهم في السقيفة، وتنازع فيها أهل الشورى، ولم ينكر عليهم ذلك أحد مطلقاً، بل انعقد الإجماع من الصحابة في الصدر الأول على قبول هذا التنازع عليها منهم.

ولا يولّى أكثر من خليفة واحد على جميع المسلمين لقوله ﷺ "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما" رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، ولقوله عليه الصلاة والسلام "من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر. وفي رواية فاضربوه بالسيف كائناً من كان" والأمر بقتل الآخر محمول على ما إذا لم يندفع إلا بالقتل قتل. وإذا اجتمع عدة ممن توفرت فيهم صفات الخليفة فالخليفة من انعقدت له البيعة من الأكثر، والمخالف للأكثر باغ. وهذا إذا اجتمعوا في الوجود لا في عقد الولاية لكل منهم، أما إذا انعقدت الولاية لواحد مستوف شروط الخلافة ثم بايع الأكثر غيره، فالأول هو الخليفة، والثاني يجب رده. والشروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة هي: الإسلام، والذكورة، والبلوغ، والعقل، والعدالة. أي يجب أن يكون الخليفة رجلاً، مسلماً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً. أما شرط الإسلام فلقوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وأما شرط الذكورة فلقوله ﷺ "كيف يفلح قوم تملكهم امرأة" وأما البلوغ والعقل فلأن المجنون والصبي يولى عليهم في تصرفاتهم فمن لم يكن له ولاية على نفسه لا تكون له ولاية على غيره. وأما العدالة فإن عمل الخليفة هو تنفيذ أحكام الدين، وإذا لم ينفذها على نفسه لا يصدق في تنفيذها على غيره؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وقد اشترط في

الخليفة أن يكون عدلاً فإذا كان كان فاسقاً لا يصلح للخلافة، ولا يبقى في الخلافة؛ لأن العدالة شرط في انعقاد الخلافة، وشرط في استدامتها.

هذه هي شروط الخليفة الثابتة، أما ما عداها من الشروط التي ذكرها الفقهاء من مثل الشجاعة والعلم وكونه من قريش أو من آل فاطمة وما شاكل ذلك فليست هي شروط انعقاد للخلافة ولم يصح أي دليل على أنها شرط لانعقاد الخلافة وصحة البيعة؛ ولذلك لا تعتبر شرطاً فكل رجل مسلم بالغ عاقل عدل يصح أن يبايع خليفة للمسلمين، ولا يشترط فيه أي شرط آخر.

وعلى ذلك فإن إقامة الدولة الإسلامية فرض على المسلمين جميعاً وقد ثبت ذلك بالسنّة وبإجماع الصحابة؛ ولأن المسلمين خاضعون لنفوذ الكفر في بلادهم وتطبق عليهم أحكام الكفر وأصبحت دارهم دار كفر بعد أن كانت دار إسلام، اي أصبحت تابعيتهم ليست تابعية إسلامية وإن كانت بلادهم بلاداً إسلامية، وواجب عليهم أن يعيشوا في دار الإسلام وأن تكون لهم تابعية إسلامية، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإقامة الدولة الإسلامية، وسيظل المسلمون آثمين حتى يعملوا لإقامة الدولة الإسلامية فيبايعوا خليفة يطبق الإسلام ويحمل دعوته للعالم.

صعوبات قيام الدولة الإسلامية:

ليس قيام الدولة الإسلامية سهلاً ميسوراً، لأن استئناف الحياة الإسلامية ليس بالأمر الهين. فهناك عراقيل شتى وضخمة تقوم في وجه قيام الدولة الإسلامية لا بد من إزالتها، وصعوبات كثيرة وكبيرة تقف في طريق استئناف الحياة الإسلامية لا بد من التغلب عليها، لأن الأمر لا يتعلق بقيام دولة أي دولة، ولا بقيام دولة تسمى إسلامية. بل الأمر يتعلق بقيام دولة إسلامية تطبق الإسلام نظاماً منبثقاً عن العقيدة الإسلامية، تطبقه أحكاماً شرعية باعتبارها حكم الله، فتستأنف الحياة الإسلامية كاملة

في الداخل، وتحمل الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة في الخارج. وهذه الدولة الإسلامية يجب أن تقوم على النفسية الإسلامية المكونة من العقيدة الإسلامية ومن أفكار الإسلام وأحكامه، وعلى العقلية الإسلامية المشبعة بالفكر الإسلامي والمكونة تكويناً فكرياً على الإسلام بفكرته وطريقته، حتى تقوم على الشخصية الإسلامية أولاً وقبل كل شيء، ثم تقوم على القوانين والنظم التي تنبثق عن العقيدة الإسلامية. وذلك حتى تنبعث حوافز هذه الحياة من داخل النفس فتوجد العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية التي تكفل تنفيذ النظم والقوانين تنفيذاً طوعياً عن شوق واطمئنان من كل من الحاكم والمحكوم على السواء. ولا بد أن تكون هذه الدولة إسلامية في الأمة التي تقيمها، وفي أولي الأمر الذين يتولون رعاية شؤون الأمة، إسلامية في جميع حياتها، محققة استئناف الحياة الإسلامية تحقيقاً يمكنها من حمل رسالتها للعالم. ويمكن غير المسلمين من مشاهدة نور الإسلام في دولته حتى يدخلوا في دين الله أفواجا، ولذلك كانت الصعوبات التي تقف في طريق استئناف الحياة الإسلامية، أو تقوم في وجه قيام الدولة الإسلامية كثيرة لا بد من معرفتها، ولا بد من العمل على التغلب عليها. وأهم هذه الصعوبات ما يأتي:

١- وجود الأفكار غير الإسلامية وغزوها للعالم الإسلامي: وذلك أن العالم الإسلامي- وقد مر في العصر الهابط وكان ضحل التفكير، عديم المعرفة، ضعيف العقلية، بسبب انحطاطه العام- قد غزي وهو على هذه الصورة بالأفكار غير الإسلامية المناقضة لأفكار الإسلام، والقائمة على أساس مغلوط وعلى فهم خاطئ للحياة ولما قبلها وما بعدها، فوجدت هذه الأفكار تربة خصبة خالية من المقاومة فتمكنت منها، ولذلك تشبعت عقلية المسلمين ولا سيما فئة المثقفين بهذه الأفكار، فكونت فيها عقلية سياسية مشبعة بالتقليد، بعيدة عن الابتكار، غير مستعدة لقبول

الفكرة الإسلامية سياسياً، وغير مدركة لحقيقة هذه الفكرة، وعلى الأخص من الناحية السياسية، ولذلك كان لزاماً أن تكون الدعوة الإسلامية: دعوة إلى الإسلام، ودعوة إلى استئناف حياة إسلامية، فيدعى غير المسلمين للإسلام بشرح أفكار الإسلام، ويدعى المسلمون إلى العمل لاستئناف الحياة الإسلامية بتفهيمهم الإسلام. وهذا يقضي بأن يبين ما في الأفكار الأخرى غير الإسلامية من زيف، وما في نتائجها من أخطار، وأن تأخذ الدعوة طريقها السياسي، وأن يسعى لتثقيف الأمة ثقافة إسلامية تبرز فيها الناحية السياسية. وبهذا يمكن التغلب على هذه الصعوبة.

٢- وجود البرامج التعليمية على الأساس الذي وضعه المستعمر، والطريقة التي تطبق عليها هذه البرامج في المدارس والجامعات، وتخريجها لمن يتولى أمور الحكم والإدارة والقضاء والتعليم والطب وسائر شؤون الحياة، بعقلية خاصة تسير فيها وفق الخطة التي يريدها الكافر المستعمر، حتى كان الحكم كما نشاهده هو أن يستبدل بموظفين مستعمرين موظفين من المسلمين، يكون عملهم حراسة ما أقام المستعمر من حدود وقوانين وثقافة وسياسة وأنظمة وحضارة وغير ذلك، والدفاع عنها كدفاعه هو أو أشد. وطريق التغلب على هذه الصعوبة هو كشف هذه الأعمال لهؤلاء الحكام والموظفين وغيرهم لهم وللناس جميعاً، حتى تبرز بشاعة الناحية الاستعمارية الموجودة فيها، ليتخلى هؤلاء عن الدفاع عنها حتى تجد الدعوة طريقها إلى هؤلاء المسلمين.

٣- استمرار تطبيق البرامج التعليمية على الأساس الذي وضعه الكافر المستعمر، وحسب الطريقة التي أرادها، مما جعل جمهرة الشباب من المتخرجين وممن

لا يزالون يتعلمون يسيرون باتجاه يناقض الإسلام. ولا نعني ببرامج التعليم البرامج العلمية والصناعية فإن هذه عالمية لا تختص بها أمة من الأمم بل هي عالمية لجميع الناس. وإنما نعني البرامج الثقافية التي تؤثر على وجهة النظر في الحياة فهذه هي التي جعلت برامج التعليم تقف صعوبة عن استئناف الحياة الإسلامية، وهذه المعارف تشمل التاريخ والأدب والفلسفة والتشريع، وذلك لأن التاريخ هو التفسير الواقعي للحياة، والأدب هو التصوير الشعوري لها، والفلسفة هي الفكر الأصلي الذي تبنى عليه وجهة النظر في الحياة، والتشريع هو المعالجات العملية لمشاكل الحياة والأداة التي يقوم عليها تنظيم علاقات الأفراد والجماعات العملية لمشاكل الحياة والأداة التي يقوم عليها تنظيم علاقات الأفراد والجماعات، وهذه كلها قد كوّن بها الكافر المستعمر عقلية أبناء المسلمين تكويناً خاصاً جعل بعضهم لا يشعر بضرورة وجود الإسلام في حياته وحياة أمته، وجعل البعض منهم أيضاً يحمل عداء الإسلام منكراً عليه صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة، ولذلك لا بد من تغيير هذه العقلية، وذلك بتثقيف الشباب خارج المدارس والجامعات ثقافة مركزة، وثقافة جماعية، بالأفكار الإسلامية والأحكام الشرعية، حتى يمكن التغلب على هذه الصعوبة.

٤- وجود إكبار عام لبعض المعارف الثقافية واعتبارها علوماً عالمية، وذلك كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلوم التربية، فإن الناس يعتبرون هذه المعارف علوماً، وأن الحقائق التي جاءت بها هي نتيجة تجارب، ويحملون لها إكباراً عاماً، ويأخذون ما تأتي به قضايا مسلمة يُحَكِّمُونَها في أمور الحياة وهي تُعَلَّم في مدارسنا وجامعاتنا كعلوم، وتطبقها في الحياة ونستعين بها في أمور الحياة، ولذلك يستشهد بما

قاله علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء التربية أكثر مما يستشهد بالقرآن والحديث، ولهذا وُجِدَت عندنا أفكار ووجهات نظر خاطئة من جرّاء تعلم هذه العلوم، من جرّاء إكبارها، ومن جرّاء تحكيمها في أمورنا في الحياة. وصار من الصعوبة بمكان أن يقبل القول الذي يخالفها، وهي في جملتها تؤدي إلى فصل الدين عن الحياة، وتؤدي إلى محاربة قيام الدولة الإسلامية.

والحقيقة أن هذه المعارف هي ثقافة وليست علماً؛ لأنها تأتي عن طريق الملاحظة والاستنباط، ولا توجد فيها تجارب. وتطبيقها على الناس لا يعتبر تجارب، وإنما هو ملاحظات متكررة على أشخاص مختلفين، وفي ظروف وأوضاع مختلفة فهي ملاحظة واستنباط وليست تجربة كتجربة المختبر حين يجرب فيه الشيء أو يجرب عليه، ولذلك تدخل في الثقافة لا في العلم وفوق ذلك فهي ظنية قابلة للخطأ والصواب، على أنها مبنية على أساس مغلوط؛ لأنها مبنية على النظرة للفرد والمجتمع، فهي مبنية على النظرة الفردية، ولهذا تنتقل نظرتها من الفرد إلى الأسرة، إلى الجماعة إلى المجتمع، على اعتبار أن المجتمع مكون من أفراد. ولهذا تعتبر المجتمعات منفصلة. وأن ما يصلح لمجتمع لا يصلح لمجتمع آخر. والحقيقة أن المجتمع مكون من الإنسان والأفكار والمشاعر والأنظمة، وأن ما يصلح للإنسان من أفكار ومعالجات في مكان ما يصلح للإنسان في كل مكان، ويحول المجتمعات المتعددة إلى مجتمع واحد تصلحه الأفكار والمشاعر والأنظمة. فخطأ النظرة إلى المجتمع ترتب عليها خطأ النظريات التربوية في علوم التربية، وخطأ النظريات في علم الاجتماع، لأنها مبنية على هذه النظرة. كما أنها مبنية على علم النفس وهو في جملته خطأ من وجهين:

أولاً: لأنه يعتبر الدماغ مقسماً إلى مناطق، وان كل منطقة لها قابلية خاصة، وان في بعض الأدمغة قابليات ليست موجود في أدمغة أخرى، مع أن الحقيقة أن الدماغ واحد وان تفاوت الأفكار التي تنتج واختلافها تابع لتفاوت المحسوسات والمعلومات السابقة واختلافها. وأنه لا توجد في دماغ قابلية لا توجد في الآخر بل جميع الأدمغة فيها قابلية الفكر في كل شيء متى توفر الواقع المحسوس والحواس والمعلومات السابقة للدماغ، وإنما تتفاوت الأدمغة في قوة الربط، وفي قوة الإحساس، كما تتفاوت العيون في قوة الإبصار وضعفه، ولذلك يمكن إعطاء كل فرد أي معلومات، وفيه قابلية لهضمها، ولذلك لا أساس لما جاء في علم النفس من القابليات.

وثانياً: يعتبر علم النفس الغرائز كثيرة منها ما اكتشفت ومنها ما لم يكتشف، وبنى العلماء على هذا المفهوم للغرائز نظريات خاطئة. والحقيقة أن المشاهد بالحس من تتبع الرجع أو رد الفعل أن الإنسان فيه طاقة حيوية، لها مظهران: أحدهما: يتطلب الإشباع الحتمي وإذا لم يشبع يموت الإنسان. والثاني: يتطلب الإشباع وإذا لم يشبع يبقى الإنسان حياً ولكنه يكون قلقاً من عدم الإشباع. والأول هو الحاجات العضوية كالجوع والعطش وقضاء الحاجة، والثاني الغرائز وهي غريزة التدين وغريزة النوع، وغريزة البقاء، وهذه الغرائز هي الشعور بالعجز، والشعور ببقاء النوع، والشعور ببقاء الذات، ولا يوجد غير ذلك. وما عدا هذه الغرائز الثلاث هي مظاهر للغرائز كالخوف والسيادة والملكية مظاهر لغريزة البقاء. والتقديس والعبادة مظاهر لغريزة التدين. والأبوة والأخوة مظاهر لغريزة النوع. فاعتبار علم النفس للغرائز اعتباراً خاطئاً، واعتباره الدماغ اعتباراً خاطئاً، أدى إلى خطأ النظريات التي بنيت على

أساسهما، وبالتالي أدى إلى خطأ علوم التربية التي تأثرت بعلم النفس.

وعليه فعلم الاجتماع وعلوم التربية وعلم النفس معارف ثقافية، وفيها ما يناقض الفكرة الإسلامية، وهي في جملتها خطأ، فبقاء الإكبار لها وتحكيمها يؤدي إلى إيجاد صعوبة تقف في وجه العمل للدولة الإسلامية، ولذلك يجب أن يبين أنها معارف ثقافية وليست علوماً، وأنها ظنية وليست حقائق قطعية، وأنها مبنية على أسس خاطئة؛ ولذلك لا تحكم في الحياة وإنما يحكم الإسلام.

٥- كون المجتمع في العالم الإسلامي يحيا حياة غير إسلامية، ويعيش وفق طراز من العيش يتناقض مع الإسلام، وذلك لأن جهاز الدولة، ونظام الحكم، الذي يقوم عليه هذا الجهاز والمجتمع، وقواعد الحياة التي يقوم عليها هذا المجتمع بكل مقوماتها، والاتجاه النفسي الذي يتجه المسلمون، والتكوين العقلي الذي يقوم عليه تفكيرهم. كل ذلك يقوم على أساس مفاهيم عن الحياة تناقض المفاهيم الإسلامية. فما لم تتغير هذه الأسس، وتصحح هذه المفاهيم المغلوطة، يكون من الصعب تغيير حياة الناس في المجتمع، ومن الصعب تغيير جهاز الدولة، وقواعد المجتمع، والاتجاهات النفسية والعقلية التي تتحكم بالمسلمين.

٦- بُعْدُ الشُّقة بين المسلمين والحكم الإسلامي، ولا سيما في سياسة الحكم وسياسة المال، يجعل تصور المسلمين للحياة الإسلامية ضعيفاً، ويجعل تصور غير المؤمنين بالإسلام للحياة الإسلامية تصوراً عكسياً، لا سيما وقد عاش المسلمون مدة يساء فيها تطبيق الإسلام عليهم من قبل الحكام، كما عاشوا مدة ثلث قرن يحكمون من قبل عدوهم على نظام يناقض الإسلام في كل شيء، وفي سياسة الحكم وسياسة

المال بوجه خاص، ولهذا كان لا بد من أن يرتفع الناس عن الواقع السيء الذي يعيشون فيه، وكان لا بد أن يتصوروا الحياة التي يجب أن يحيوها، والتي يجب أن يغيروا واقعهم ويحولوه إليها. وكان لا بد أن يصوروا هذا التحول إلى الحياة الإسلامية ولا بد أن يكون تحولاً كاملاً غير مجزأ، وأن تطبيق الإسلام لا بد أن يكون انقلابياً (أي دفعة واحدة) لا تدريجياً بالتجزئة والترقيع، حتى يقرب إليهم تصور واقع الحياة يوم كان عز الإسلام.

٧- وجود حكومات في البلاد الإسلامية تقوم على أساس ديمقراطي، وتطبق النظام الرأسمالي كله على الشعب، وترتبط بالدول الغربية ارتباطاً سياسياً وتقوم على الإقليمية والتجزئة. وهذا يجعل العمل لاستئناف الحياة الإسلامية صعباً، لأنه لا يتأتى إلا إذا كان شاملاً، لأن الإسلام لا يبيح جعل البلاد الإسلامية دولاً، بل يلزم جعلها دولة واحدة. وهذا يقتضى شمول الدعوة وشمول العمل وشمول التطبيق وهو يتعرض لمقاومة هذه الحكومات للدعوة الإسلامية ولو كان رجالها من المسلمين، ولهذا كان لا بد من حمل الدعوة الإسلامية في كل إقليم، ولو أدى إلى تحمل الصعوبات والمشقات التي تنشأ معارضة الحكومات في البلاد الإسلامية.

٨- وجود رأي عام عن الوطنية والقومية والاشتراكية، وقيام حركات سياسية على الأساس الوطني والقومي والاشتراكي. وذلك ان استيلاء الغرب على بلاد الإسلام، وتسلمه زمام الحكم فيها وتطبيقه النظام الرأسمالي عليها أثار في النفوس الميل للدفاع عن النفس، فنتجت عنها العاطفة الوطنية للدفاع عن الأراضي التي يعيش عليها، وأثار العصبية العنصرية للدفاع عن النفس وعن العائلة وعن القوم

والعمل لجعل الحكم لهم، فنشأت عن ذلك حركات سياسية باسم الوطنية لطرد العدو من البلاد، وباسم القومية لجعل الحكم عليها لأهلها. ثم تبين للناس فساد النظام الرأسمالي وعدم صلاحيته، وانتشرت بينهم دعاية للاشتراكية فقامت تكتلات باسم الاشتراكية لترقيع الرأسمالية ولم يكن لهذه الحركات أي تصور لنظام الحياة إلا التصور الارتجالي مما أبعدهم عن المبدأ وأبعدهم عن الإسلام بوصفه مبدأ عالمياً.

كيف تقوم الدولة الإسلامية:

إن قوة الفكرة الإسلامية مقرونة بطريقتها كافية لإقامة دولة إسلامية، ولاستئناف الحياة الإسلامية، إذا غرست هذه الفكرة في القلوب، وتغلغلت في النفوس، وتجسدت في المسلمين، فأصبحت إسلاماً حياً يعمل في الحياة. إلا أنه بالرغم من ذلك، لا بد من أن تتم أعمال عظيمة قبل قيام الدولة، وأن تبذل جهود جبارة لاستئناف الحياة الإسلامية. ولذلك لايكفي بمجرد الرغبة والتفاؤل ليجعل هذه الدولة قائمة. ولا مجرد الحماس والأمل ليحقق استئناف الحياة الإسلامية. فكان من أوجب الواجبات أن تقدر العوائق الضخمة التي تقف في وجه الإسلام حق التقدير، للتمكن من إزالتها، وكان من ألزم الأشياء أن ينبه المسلمون إلى ثقل التبعة التي تنتظر من ينهضون لهذه الغاية، وأن يلفت نظر المفكرين بوجه خاص إلى المسؤولية الكبرى لكل رأي يعطى في مثل هذا الأمر الهام، حتى يكون القول والعمل سائرين في طريقه السوي بوعي وإرادة إنما ينحتون طريقهم في الصخر الأصم، ولكن معاولهم مرهفة ضخمة كفيلة بتكسير صخوره، وإنهم يعالجون أمراً دقيقاً. ولكنّ رفقهم كفيل بحسن معالجته، وإنهم يصطدمون بالأحداث الكبار، ولكنهم سيتغلبون عليها، ولا يحيدون

عن طريقهم، لأنها الطريقة التي سار عليها رسول الله ﷺ، وسلوكها سلوكاً صحيحاً بجعل النتائج قطعية لا ريب فيها، والنصر محققاً لا شك في. وهذه الطريق هي التي يجب أن يسلكها المسلمون اليوم سلوكاً دقيقاً، على أن يكون الاقتداء بالرسول دقيقاً، والسير صحيحاً حسب خطواته، حتى لا يتعثر السائر، لأن كل خطأ في القياس، وكل حيد عن الطريق، يسبب التعثر بالسير والعقم في العمل. ولهذا لم يكن قيام مؤتمرات للخلافة طريقاً لقيام الدولة الإسلامية، ولا السعي لاتحاد دول تحكم شعوباً إسلامية وسيلة للدولة الإسلامية. ولا عقد مؤتمرات للشعوب الإسلامية محققاً استئناف حياة إسلامية، ليس ذلك ومثله هو الطريق، وإنما هو أُلهيات تتنفس فيها عواطف المسلمين فتفرّغ مخزون حماسها وتقعد بعد ذلك عن العمل، فضلاً عن أنها تخالف طريق الإسلام. بل الطريق الوحيد لإقامة الدولة الإسلامية، هو حمل الدعوة الإسلامية، والعمل لاستئناف الحياة الإسلامية، وذلك يقتضي أن تتخذ البلاد الإسلامية وحدة واحدة، لأن المسلمين أمة واحدة، إذ هي مجموعة إنسانية تجمعها عقيدة واحدة، ينبثق عنها نظامها. ولذلك كان حدوث أي عمل في أي قطر إسلامي يؤثر في باقي الأقطار. ويثير فيها المشاعر والأفكار، فكان لا بد أن تُتَّخذ كافة البلاد الإسلامية بلداً واحداً وتحمل الدعوة لها جميعها، حتى تؤثر في مجتمعها. وذلك لأن المجتمع الواحد الذي يشكل أمة. يكون كالماء في القدر. فإنك إذا وضعت تحته ناراً سخن الماء ثم وصل إلى درجة الغليان، ثم تحول هذاالغليان إلى بخار يدفع، ويحدث الحركة والاندفاع، وكذلك المجتمع يوضع فيه المبدأ الإسلامي. فتحدث حرارته فيه سخونة، ثم غلياناً، ثم يتحول هذا الغليان إلى ما يدفع المجتمع إلى الحركة والعمل،

ولهذا كان لا بد من أن تبعث الدعوة إلى العالم الإسلامي، ليعمل لاستئناف الحياة الإسلامية، وذلك بالكتب والرسائل والاتصالات وكافة وسائل الدعوة، ولا سيما الاتصالات، لأنها أنجح طرق الدعوة إلا أن بعث الدعوة بهذا الشكل المفتوح إنما هو للوقود في المجتمع، حتى يتحول هذا الجمود الذي فيه إلى حرارة. ولا يمكن أن يتحول إلى غليان ثم إلى حركة إلا إذا كانت الدعوة العملية في توجيهها السياسي محصورة العمل في إقليم أوأقاليم يبدأ منها العمل ثم تنطلق منها الدعوة إلى باقي أجزاء العالم الإسلامي، ثم يتخذ هذا الإقليم أو عدة أقاليم نقطة ارتكاز تقوم فيها الدولة الإسلامية، ويبدأ منها النمو في تكوين الدولة الإسلامية الكبرى، التي تحمل رسالة الإسلام للعالم، وهذا كما فعل ﷺ، فإنه بلغ دعوته للناس كافة. وكانت خطوات التبليغ تسير في الطريق العملي. فقد دعا أهل مكة ودعا العرب جميعاً في موسم الحج، فكانت دعوته تنتشر في جميع أنحاء الجزيرة وكأنه كان يوقد تحت المجتمع في الجزيرة العربية وقوداً يبعث الحرارة في كافة العرب، وكان الإسلام يدعى إليه العرب من قبل الرسول ﷺ بالاتصال بهم ودعوتهم في موسم الحج، وفي الذهاب إلى القبائل في منازلها ودعوتهم للإسلام، كما أن الدعوة كانت تصل إلى سائر العرب بالاحتكاك الذي كان بين الرسول وبين قريش حيث كانت أصداء هذا التصادم تملأ أسماع العرب، وتثير فيهم حب الاستطلاع والتساؤل، إلا أنه مع إرسال الدعوة إلى العرب، كان مجال الدعوة محصوراً في مكة، ثم امتد إلى المدينة حيث تكونت الدولة الإسلامية في الحجاز. وحينئذٍ كانت حرارة الدعوة، وانتصار الرسول، قد أحدثا في العرب الغليان ثم الحركة فآمنوا جميعاً، حتى شملت دولة الإسلام جميع جزيرة العرب

وحملت رسالته للعالم. ولهذا كان لزاماً علينا أن نتخذ حمل الدعوة الإسلامية، والعمل لاستئناف الحياة الإسلامية طريقة لإقامة الدولة الإسلامية، وكان لزاماً علينا أن نتخذ كافة البلاد الإسلامية مجتمعاً واحداً وهدفاً للدعوة إلا أنه يجب أن نحصر مجال العمل في إقليم أو أقاليم نقوم فيها بتثقيف الناس بالإسلام حتى يحيا فيهم ويحيوا به ومن أجله، ونقوم فيها بإيجاد الوعي العام به والرأي العام له، حتى يحصل التجاوب بين حملة الدعوة والمجتمع تجاوباً منتجاً فعالاً مؤثراً في تحويل الدعوة إلى تفاعل وإنتاج، هذا التفاعل حركة كفاح تستهدف إيجاد الدولة الإسلامية المنبثقة عن الأمة في هذا الإقليم أو تلك الأقاليم. وحينئذٍ تكون الدعوة قد سارت من فكرة في الذهن إلى وجود في المجتمع، ومن حركة شعبية إلى دولة. فتكون قد اجتازت أدوارها فانتقلت من نقطة ابتداء إلى نقطة انطلاق، ثم إلى نقطة ارتكاز تتمركز في الدولة المستكملة عناصر الدولة وقوة الدعوة. وحينئذٍ يبدأ الدور العملي الذي يوجبه الشرع على هذه الدولة ويوجبه الشرع على المسلمين الذين يعيشون في أقاليم لا يشملها سلطان هذه الدولة. أما واجب هذه الدولة فهو الحكم بما أنزل الله حكماً كاملاً، ثم جعل توحيد باقي الأقاليم معها أو توحيدها مع باقي الأقاليم جزءاً من السياسة الداخلية، فتباشر في حمل الدعوة والدعاية لاستئناف الحياة الإسلامية في كافة الأقاليم الإسلامية، ولا سيما الأقاليم المجاورة لها. ثم ترفع الحدود السياسية الوهمية التي خططها الاستعمار بينها. وجعل حكام البلاد التابعين لها حراساً على هذه الحدود السياسية. ولذلك كان لزاماً على هذه الدولة أن تلغي هذه الحدود حتى ولو لم يلغها الإقليم المجاور. فتلغي تأشيرات المرور، ومراكز ضرائب (الجمارك) وتفتح أبوابها لسكان الأقاليم

الإسلامية، وبهذا تجعل جميع الذين يسكنون في الأقاليم الإسلامية يشعرون بأن هـذه الدولة إسلامية، ويرون بأنفسهم تطبيق الإسلام وتنفيذه، أما واجب المسلمين فهو أن يعملوا لأن تصبح دارهم التي لا يطبق فيها الإسلام، والتي تعتبر دار كفر، دار إسلام، بالعمل على دمجها في الدولة الإسلامية بالدعوة والدعايـة، وبهـذا يصـبح المجتمـع في العالم الإسلامي في كافة أقاليمه في حالة غليان تدفعه إلى الحركة الصـحيحة الـتي بهـا يتحد المسلمون جميعهم في دولة واحدة، وبذلك توجـد الدولـة الإسـلامية الكـبرى، وبهذا تتكون الدولة الإسلامية التي تمثـل قيـادة فكريـة عالميـة، ويكـون لهـا خطرهـا ومركزها الذي يمكنها من حمل دعوتها، ومن العمل على إنقاذ العالم من الشرور.

وإذا كانت الأمة الإسلامية قديماً في بـلاد لا تعـدو جزيـرة العـرب ولا يزيـد عددها عن بضعة ملايين ومع ذلـك فإنهـا حـين اعتنقـت الإسـلام وحملـت الـدعوة شكلت قوة عالمية أمام المعسكرين اللذين كانا قائمين حينئذٍ وضربتهما معاً واستولت على بلادهما ونشرت الإسلام في أكثر أجزاء المعمورة في ذلك الوقت، فمـا بالنـا في الأمة الإسلامية اليوم وهي زهاء أربعمائة مليون تقع في بلاد متصلة ببعضـها تكـون بلداً واحداً، وهي من مراكش إلى الهند وأندونيسيا، وهي تحتل بقعة من أحسـن بقـاع الأرض ثروة ومركزاً وتحمل مبدأ هو وحده المبدأ الصحيح، فإنهـا ولا ريـب تشـكل جبهة أقوى من المعسكرين الحاليين في كل شيء، ولهذا كـان واجـب كـل مسـلم أن يعمل منذ الآن لإيجاد الدولة الإسلامية الكبرى التي تحمل رسالة الإسلام للعالم، وأن يبدأ عمله هذا بحمل الدعوة الإسلامية والعمـل لاسـتئناف حيـاة إسـلامية في جميـع البلاد الإسلامية، حاصراً مجاله العملي في إقليم أو عدة أقاليم، لتكون نقطة ارتكـاز،

حتى يبدأ العمل الجدي. ومثل هذه الغاية العظيمة التي يجب أن يهدف إليها المسلم، سالكاً هذا الطريق العملي الواضح الذي يجب أن يُسْلَك، جدير به أن يتحمل في سبيلها كل مشقة، وأن يبذل لها كل جهد، وأن يسير متوكلاً على الله، غير طالب أي جزاء على ذلك سوى نوال رضوان الله سبحانه وتعالى.

فهرس الكتاب

المقدمة ٣
نقطة الابتداء ٧
تكتل الصحابة ٨
انطلاق الدعوة ١٠
مقاومة الدعوة ١١
تفاعل الدعوة ١٧
دوْران من أدوار الدعوة ٢٢
توسّع مجال الدعوة ٢٥
بيعة العقبة الأولى ٢٦
الدعوة في المدينة ٢٧
بيعة العقبة الثانية ٣٠
قيام الدولة الإسلامية ٣٧
بناء المجتمع ٣٩
تهيئة أجواء القتال ٤٣
بدء القتال ٤٥
الحياة في المدينة ٤٨
جدال اليهود والنصارى ٥٠
غزوة بدر ٥٣

إجلاء بني قينقاع ٥٥
القضاء على الاضطرابات الداخلية ٥٦
غزوة الأحزاب ٦١
معاهدة الحديبية ٦٧
غزوة خيبر ٧٧
الرسل إلى الدول المجاورة ٧٨
غزوة مؤتة ٨٠
فتح مكة ٨٤
غزوة حنين ٨٧
غزوة تبوك ٩٢
سيطرة الدولة الإسلامية على جزيرة العرب ٩٦
جهاز الدولة الإسلامية ٩٧
موقف اليهود من الدولة الإسلامية ١٠١
استمرار الدولة الإسلامية ١٠٥
السياسة الداخلية للدولة الإسلامية ١١٠
السياسية الخارجية للدولة الإسلامية ١١٧
الفتوحات الإسلامية هي لنشر الإسلام ١٢٢
تركيز الفتوحات الإسلامية ١٢٤
صهر الشعوب وجعلها أمة واحدة ١٢٩

عوامل ضعف في الدولة الإسلامية ١٣٥
انحلال الدول الإسلامية ١٤٠
الغزو التبشيري ١٤٨
العداء الصليبي ١٥٨
آثار الغزو التبشيري ١٦٣
الغزو السياسي للعالم الإسلامي ١٦٩
القضاء على الدولة الإسلامية ١٧٢
الحيلولة دون قيام الدولة الإسلامية ١٨٤
قيام الدولة الإسلامية فرض على المسلمين ١٩٢
صعوبات قيام الدولة الإسلامية ١٩٥
كيف تقوم الدولة الإسلامية ٢٠٣